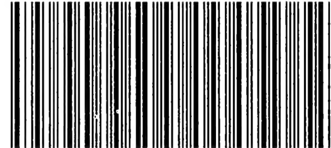
قصص القرآن

للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العتيبي، فايز بن سياف بن فايز السريح
قصص القرآن للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي.
فايز بن سياف بن فايز السريح العتيبي. - الرياض، ١٤٤١هـ
٣٠٤ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٢-٩-٩١٤١٧-٦٠٣-٩٧٨
١ - قصص القرآن ٢ - قصص الأنبياء أ - العنوان
ديوي ٢٢٩،٥ ١٤٤١ / ٩٠٣٢

رقم الإيداع: ١٤٤١/٩٠٣٢
ردمك: ٢-٩-٩١٤١٧-٦٠٣-٩٧٨



الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠م

مدار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
00966 11 2681045
@madarulqabas
madarulqabas@gmail.com
www.madarulqabas.com

قصص القرآن

للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

جمعها ورتبها

فايز بن سيّاف السريح

مدار القبس للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدِّمـة

الحمدُ لله الصادقِ في قِيلِه، العظيمِ في تنزيله، الهادي إليه بنوره ودليله، وصلاةً وسـلامًا زاكِيَيْنِ عاطِرَيْنِ على نبي الله وخليله، ومَن تَبِعَه بإحسـان، واسْتَنَّ بسُنَّته، واقتفى بسبيله.

وبعد: فإن من عـادات النفوس، وجِبِلِّيات الفِطَر؛ أن تشرئب لسماع القصص والأخبار، وأن تنشـط لمرأى الأطلال والآثـار، وأن تُفِيدَ من ذلك القلوبُ الحية العِظَةَ والاعتبار، ولذا كان من أعظم أَضْرُب الخطاب القرآني، وأَجَلِّ أنـواع المعاني القرآنيـة ما كان القـرآن يُوصِله عن طريـقِ القصصِ والأخبار.

لقد جاء القرآن قاصًّا ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، وأمر الله نبيه ﷺ ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقصَّ الله على نبيه ﷺ ممتنًّـا ومُعَلِّمًا ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وأخبر الله ﷻ أن ما قُصَّ في هذا القرآن هو أحسن القصص، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.

ولما كانت القصــة تقع في القلــوب موقعًا عظيمًا قال بعض الســلف: «القصص جندٌ من جنود الله»، أي: أنها تؤثــر في القلوب، وتَعِظُ النفوس بما لا يحصل من التوجيه المباشر الذي لم يكن واقعًا.

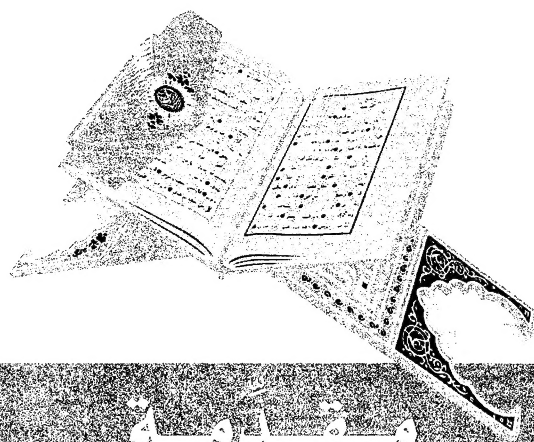
فإن أردت صادق الخبر، وصِدْقَ العبارة، وجمال الـمُعتبَر، فاجعل القرآن نافذتك على أطلال الديار، لتنظرْ في حضاراتٍ بائــدة، وأُمم وقرونٍ هامدة، خلَّد القرآن أفعالها، وسطر على مرِّ الزمان ما جرى لها، فكان ذِكْرُ القرآن لها عبرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ولما كان الأمر كذلك نشــطت هِمَّتي لجمع متفرِّقات في هذا الباب، في ســفرٍ لطيــفٍ، وحِمْــل خفيف، فعمــدتُ إلــى ما ذكــره الشــيخ العلامة عبد الرحمٰن بن ســعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيســير اللطيف المنان» و«تيسير الكريم الرحمٰن» من تعليقاته على قصص القرآن، فوفَّقــت بينها، وجمعتُ ما تفرَّق منها، ومزجت بينها، وشرحت ما أجمله هنا بما فصَّله هناك؛ ليكون ذلك في سردٍ بَيِّن لا يجدُ القارئ فيه غموضًا أو عُسْرًا.

كما أني عمدتُ إلى ما ذكره العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «أصول في التفســير»؛ حيث ذكر مبحثًا خاصًا متعلقًا بالقصص القرآني، فجعلته كالمقدمة لِمَا جمعت في هذا الكتاب، فجمعت في جَمْعِي هذا بين الشيخ وتلميذه؛ سائلًا الله أن يجمعني بهما، ومن يقرأ أسْطُرِي هذه في الفردوس الأعلى من الجنة.

والله ولي التوفيق، وصلى الله وســلَّم وبارَك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.





مقدمة

في علم القصص



القصص(١)



القَصَص والقَصُّ **لغةً**: تتبُّع الأثر.

وفي **الاصطلاح**: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضًا.

وقصص القرآن **أصدق القصص**؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

وأحسن القصص؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

- **قسم عن الأنبياء والرُّسُل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.**

- **وقسم** عن أفراد وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم؛ كقصة مريم، ولقمان، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك.

- **وقسم** عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ؛ كقصة غزوة بدر، وأُحُد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

---

(١) هذا المبحث منقول من كتاب (أصول في التفسير) لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى (ص٥٩ ـ ٦١)، من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.

وللقصص في القرآن حِكَم كثيرة عظيمة، منها:

١ ـ بيان حكمة الله تعالى فيما تضمَّنَتْه هذه القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤ ـ ٥].

٢ ـ بيان عدله تعالى بعقوبة المكذِّبين؛ لقوله تعالى عن المكذِّبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١].

٣ ـ بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۞ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤ ـ ٣٥].

٤ ـ تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذِّبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۞ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥ ـ ٢٦].

٥ ـ ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه؛ إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار مَن أُمِروا بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

٦ ـ تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

٧ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ؛ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتـي إلا مرة واحدة، مثـل: قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكررًا حسـب ما تدعـو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هـذا المتكرِّر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقِصَر، واللين والشدة، وذِكْر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

ومن الحِكْمة في هذا التكرار:

١ ـ بيان أهمية تلك القصة؛ لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢ ـ توكيد تلك القصة؛ لتثبت في قلوب الناس.

٣ ـ مراعاة الزمن وحال المخاطَبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبًا فيما أتى من القصص في السور المكية، والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤ ـ بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥ ـ ظهور صِدْق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقُض.



تمهيـــد

قد قصَّ الله علينا في كتابه قصصًا طيبة مـــن أخبار أنبيائه، ووصفها بأنها أحسن القصص، وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها أصدقها وأبلغها وأنفعها للعبـــاد؛ فمن أهم منافع هـــذه القصص أن بها يتـــم ويكمل الإيمان بالأنبياء صلى الله عليهم وســـلم، فإننا وإن كنا مؤمنيـــن بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمـــال، فالإيمان التفصيلي المســـتفاد مـــن قصصهم، وما وصفهم الله به مـــن الصدق الكامـــل والأوصـــاف الكاملة التـــي هي أعلى الأوصاف، وما لهم من الفضل والفواضل والإحسان على جميع نوع الإنسان، بل وصل إحسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكلَّفين في الاعتناء بها والقيام بحقها، فهـــذا الإيمان التفصيلي بالأنبياء يصل بـــه العبد إلى الإيمان الكامل، وهو من موادِّ زيادة الإيمان.

فمن ذلك: أن في قصصهم تقرير الإيمان بالله وتوحيده، وإخلاص العمل له، والإيمان باليوم الآخر، وبيان حُسن التوحيد ووجوبه، وقُبح الشرك، وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

وفي قصصهم أيضًا: عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين في مقام التوحيد والقيام بالعبودية، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التام، وفي

مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات، واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى، لا يطلبون من الخلق أجرًا، ولا جزاءً، ولا شكورًا إلا الأمور النافعة للخلق.

وفيها أيضًا: عبرة لاتفاقهم على دين واحد وأصول واحدة، ودعوة إلى كل خُلُق جميل، وعمل صالح وإصلاح، وزَجْرهم عن كل ما يُضادُّ ذلك.

وفيها أيضًا: من الفوائد الفقهية والأحكام الشرعية والأسرار الحكمية شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها.

وفيها أيضًا: من الوعظ والتذكير، والترغيب والترهيب، والفَرَج بعد الشدة، وتيسير الأمور بعد تعسُّرها، وحُسن العواقب المشاهَدة في هذه الدار، وحُسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق، ما فيه زادٌ للمتقين، وسرور للعابدين، وسَلْوة للمَحزونين، ومواعظ للمؤمنين، فليس المقصود من قصصهم أن تكون فقط سَمَرًا، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيرًا وعِبَرًا.



قصة آدم أبي البشر عليه الصلاة والسلام

لما اقتضت الحكمة الشاملة والعلم المحيط من الله والرحمة السابغة خَلْقَ آدم أبي البشر الذين فضَّلهم الله على كثير ممن خلق تفضيلًا؛ أعلم الملائكة وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يخلُف من كان قبلهم من المخلوقات التي لا يعلمها إلا هو. ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وهذا منهم تعظيم لربهم، وإجلال له عن أنه ربما يخلق مخلوقًا يشبه أخلاق المخلوقات الأُوَل، أو أن الله تعالى أخبرهم بخَلْق آدم، وبما يكون من مجرمي ذريته، قال الله لملائكته: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فإنه محيط علمه بكل شيء، وبما يترتَّب على هذا المخلوق من المصالح والمنافع التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

فعرَّفهم تعالى بنفسه بكمال علمه، وأنه يجب الاعتراف لله بسعة العلم، والحكمة التي من جملتها أنه لا يخلق شيئًا عبثًا، ولا لغير حكمة، ثم بَيَّن لهم على وجه التفصيل، فخَلَقه بيده تشريفًا له على جميع المخلوقات، وقبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحَزْنها[1]، وطَيِّبها وخبيثها، ليكون النسل على هذه الطبائع، فكان ترابًا أولًا، ثم ألقى عليه الماء فصار طينًا، ثم

(١) الـحَزْن من الأرض: الشَّدِيد الوعر.

لما طالت مدة بقاء الماء على الطين تغيَّر ذلك الطين، فصار حَمَأً مسنونًا[١]؛ طِينًا أسود، ثم أَيْبَسَه بعدما صوَّره، فصار كالفخار الذي له صلصلة، وفي هذه الأطوار هو جسد بلا روح، فلما تكامَل خَلْق جسده نفخ فيه الروح، فانقلب ذلك الجسد الذي كان جمادًا حيوانًا له عظام ولحم، وأعصاب وعروق، وروح هي حقيقة الإنسان، وأعدَّه الله لكل علم وخير، ثم أتمَّ عليه النعمة، فعلَّمه أسماء الأشياء كلها.

والعلم التامُّ يستدعي الكمال التام، وكمال الأخلاق، فأراد الله أن يُرِي الملائكة كمال هذا المخلوق، فعرض هذه المسميات على الملائكة، وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

في مضمون كلامكم الأول الذي مقتضاه أنَّ تَرْكَ خَلْقِهِ أَوْلَى، هذا بحسب ما بَدَا لهم في تلك الحال، فعجزت الملائكة عليهم السلام عن معرفة أسماء هذه المسميات، وقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، قال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] شاهدت الملائكة من كمال هذا المخلوق وعِلْمه ما لم يكن لهم في حساب، وعرفوا بذلك على وجه التفصيل والمشاهدة كمالَ حكمة الله، وعظَّموا آدم غاية التعظيم، فأراد الله أن يُظْهِر هذا التعظيم والاحترام لآدم من الملائكة ظاهرًا وباطنًا، فقال للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] احترامًا له وتوقيرًا وتبجيلًا، وعبادةً منكم لربكم، وطاعةً ومحبَّةً وذُلًّا؛ فبادَروا كلهم أجمعون، فسجدوا، وكان إبليس بينهم، وقد وَجَّه إليه الأمر بالسجود معهم، وكان من غير عنصر الملائكة؛ كان من الجن المخلوقين من نار السَّمُوم[٢]، وكان مُبْطِنًا للكفر بالله، والحسد لهذا الإنسان الذي فَضَّله الله هذا التفضيل؛ فحمله كِبْرُه

(١) أي: طينًا أسود متغيِّرًا.

(٢) السموم: نار تكون بين السماء والأرض، وهي النَّار التي تكون منها الصَّواعق.

وكفره على الامتناع عن السجود لآدم كفرًا بالله واستكبارًا، ولم يَكْفِه الامتناع حتى باح بالاعتراض على ربه، والقَدْح في حِكْمته، فقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ فإنه باطلٌ من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمرِ الله له بالسجود، والقياس إذا عارَض النصَّ، فإنه قياسٌ باطل؛ لأنَّ المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأتِ فيه نصٌّ يقارِب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعًا لها، فأمَّا قياس يعارضها، ويلزم من اعتباره إلغاءُ النصوص؛ فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أنَّ قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ بمجرَّدها كافية لنقص إبليس الخبيث؛ فإنَّه برهن على نَقْصِه بإعجابه بنفسه وتكبُّره، والقول على الله بلا علم، وأيُّ نقص أعظم من هذا؟!

ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب؛ فإنَّ مادة الطين فيها الخشوعُ والسكونُ والرزانةُ، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الخِفَّة والطَّيْش والإحراق.

فقال الله له: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، فكان هذا الكفر والاستكبار والإباء منه وشدة النفار هو السبب الوحيد أن يكون مطرودًا ملعونًا، فقال الله له: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] فلم يخضع الخبيث لربه، ولم يَتُبْ إليه، بل بارَزَه بالعداوة، وصَمَّم التصميم التام على عداوة آدم وذريته، ووَطَّن نفسه لَمَّا علم أنه حتم عليه الشقاء الأبدي أن يدعو الذرية بقوله وفعله وجنوده إلى أن

يكونوا من حزبه الذين كُتِبَتْ لهم دار البَوار[1]، فقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، فيتفرَّغ لإعطاء العداوات حقَّها في آدم وذريته.

ولما كانت حكمة الله اقتضت أن يكون الآدمي مركَّبًا من طبائع متباينة، وأخلاق طيبة أو خبيثة، وكان لا بد من تمييز هذه الأخلاق وتصفيتها بتقدير أسبابها من الابتلاء والامتحان الذي من أعظمه تمكينُ هذا العدو من دعوتهم إلى كل شرٍّ، أجابه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧ ـ ٣٨]، فقال لربه مُعْلِنًا معصيته، وعداوته آدم وذريته: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧]، قال إبليس هذه المقالة ظنًّا منه؛ لأنه عرف ما جُبِل عليه الآدمي.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، فمكَّنه الله من الأمر الذي يريده إبليس في آدم وذريته، فقال الله له: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۞ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٣ ـ ٦٤] أي: إن قدرت فاجعلهم منحرفين في تربية أولادهم إلى التربية الضارَّة؛ في صرف أموالهم المصارف الضارَّة، وفي الكسب الضارِّ، وأيضًا شارِكْ منهم مَن إذا تناول طعامًا أو شرابًا أو نكاحًا ولم يذكر اسم الله على ذلك في الأموال الأولاد، وعِدْهُم، أي: مُرْهُمْ أن يُكَذِّبوا بالبعث والجزاء، وأن لا يُقْدِموا على خير، وخَوِّفْهم من أوليائك، وخَوِّفْهم عند الإنفاق النافع بالفحشاء والبخل، وهذا من الله لحِكَم عظيمة وأسرار، وإنك أيها العدو المبين لا تُبْقِ من مقدورك في إغوائهم شيئًا، فالخبيث منهم يظهر خبثه، ويتَّضح شرُّه، والله لا يعبأ به، ولا يبالي به.

---

(١) أي: دار الهلاك.

وأما خواصُّ الذرية من الأنبياء، وأتباعهم من الصدِّيقين والأصفياء، وطبقات الأولياء والمؤمنين، فإن الله تعالى لم يجعل لهذا العدو عليهم تسلُّطًا، بل أقام عليهم سورًا منيعًا، وهو حمايته وكفايته، وزَوَّدَهم بسلاح لا يمكن لعدوهم مقاومته بكمال الإيمان بالله، وقوة توكُّلهم عليه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، ومع ذلك فأعانهم على مقاومة هذا العدو المبين بأمور كثيرة؛ أنزل عليهم كُتُبَه المحتوية على العلوم النافعة، والمواعظ المؤثِّرة، والترغيب في فِعْل الخيرات، والترهيب من فعل الشرور، وأرسل إليهم الرسل مبشرين مَن آمَن بالله وأطاعه بالثواب العاجل، ومنذرين مَن كَفَر وكذَّب وتولى بالعقوبات المتنوعة، وضَمِن لمن اتبع هُداه الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله أن لا يَضِلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وأنه لا خوف عليه، ولا حزن يعتريه؛ وأرشدهم في كتبه، وعلى ألسنة رُسُلِه إلى الأمور التي بها يحتمون من هذا العدو المبين، وبَيَّنَ لهم ما يدعو إليه هذا الشيطان، وطُرُقَه التي يصطاد بها الخليقة.

وكما بيَّنها لهم ووضَّحها فقد أرشدهم إلى الطرق التي ينجون بها من شرِّه وفتنته، وأعانهم على ذلك إعانةً قدرية خارجة عن قدرتهم؛ لأنهم لما بذلوا المجهود، واستعانوا بالمعبود، سهل لهم كل طريق يوصل إلى المقصود.

ثم إن الله تعالى أتمَّ نعمته على آدم، فخلق منه زوجته حواء من جنسه وعلى شكله؛ ليَسْكُن إليها، وتتم المقاصد المتعددة من الزواج والالتئام، وتَنْبَثَّ[1] الذرية بذلك، وقال له ولزوجته: إن الشيطان عدو لكما، فاحذراه غاية الحذر، فلا يُخْرِجَنَّكما من الجنة التي أسكنكما الله إياها، وأباحَ لكُما أن تأكلَا من جميع ثمارها، وأن تتمتَّعَا بجميع لذَّاتها، إلا شجرة معينة في هذه الجنة،

---

(١) أي: تنتشر.



فحرَّمها عليهما، فقال: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩]، وقال الله لآدم في تمتيعه بهذه الجنة: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩]، فمكثا في الجنة ما شـاء الله على هذا الوصف الـذي ذكـره الله، وعَدُوُّهما يراقبهمـا ويراصدهما، وينظر الفرصة فيهما، فلما رأى سـرور آدم بهذه الجنة، ورغبتَه العظيمة في دوامها، جاءه بطريق لطيف في صورة الصديق الناصـح، فقال: يا آدم، هل أدُلُّك على شجرة إذا أكلت منها خلدت في هذه الجنة، ودام لك الملك الذي لا يَبْلَى؟

فلم يَزَلْ يوسوس ويُزَيِّن ويُسَوِّل، ويَعِد ويُمَنِّي، ويُلقي عليهما من النصائح الظاهرة، وهي أكبر الغش حتى غرَّهما، فأكلَا من الشجرة التي نهاهما الله عنها وحرَّمها عليهما، فلما أكلَا منها بدت لهما سـوآتهما بعدما كانا مسـتورَين، وطفقًا يخصفان على أنفسهما من أوراق تلك الجنة، أي: يلزقان على أبدانهما العارية؛ ليكون بدل اللباس، وسُقِط في أيديهما[1]، وظهرت في الحال عقوبة معصيتهما، وناداهما ربهمـا: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعـراف: ٢٢]، فأوقـع الله في قلبَيْهمـا التوبة التامـة، والإنابة الصادقة، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٣٧] وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعـراف: ٢٣] فتـاب الله عليهما، ومحا الذنب الذي أصابَا، ولكن الأمر الذي حذَّرهما الله منه ـ وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولَا منهـا ـ تحتَّم ومضى، فخرجَا منها إلى الأرض التي حُشِـيَ خيرها بِشَرِّها، وسرورُها بكَدَرِها.

وأخبرهما الله أنه لا بد أن يبتليهما وذريتهما، وأن مَن آمن وعمل صالحًا كانت عاقبته خيرًا من حالتـه الأولى، ومن كذَّب وتولى فآخر أمره الشـقاء

(١) أي: نَدِمَا على ما فَرَط منهما.

الأبـــدي والعذاب الســـرمدي، وحـــذَّر الله الذرية منه فقـــال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وأبدلهم الله بذلك اللباس الذي نزعه الشـــيطان من الأبوَين بلباس يواري السوآت، ويحصل به الجمال الظاهر في الحياة، ولباس أعلى من ذلك، وهو لباس التقوى، الذي هو لباس القلب والروح بالإيمان والإخـــلاص والإنابة، والتحلِّي بـــكل خُلُق جميل، والتخلي عن كل خُلُق رذيل، ثم بَثَّ الله من آدم وزوجه رجالًا كثيرًا ونســـاءً، ونَشَرَهم في الأرض، واستخلفهم فيها؛ لينظر كيف يعملون.



فوائد مستنبَطة من هذه القصة

فمنها: أن هذه القصة العظيمة ذكرها الله في كتابه في مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك، وهي من أعظم القصص التي اتَّفقت عليها الرسل، ونزلت بها الكتب السماوية، واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأوَّلين والآخرين، حتى نبغت في هذه الأزمان المتأخِّرة فرقة خبيثة زنادقة أنكروا جميع ما جاءت به الرسل، وأنكروا وجود الباري، ولم يُثْبِتُوا من العلوم إلا العلوم الطبيعية التي وصلت إليها معارفهم القاصرة.

فبناءً على هذا المذهب الذي هو أبعد المذاهب عن الحقيقة شرعًا وعقلًا أنكروا آدم وحواء، وما ذكره الله ورسوله عنهما، وزعموا أن هذا الإنسان كان حيوانًا قردًا، أو شبيهًا بالقرد، حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة، وهؤلاء اغترُّوا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة، خصوصًا ما جاءتهم به الرسل، وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]، وهؤلاء أمْرُهم ظاهر لجميع المسلمين، ولجميع المُثْبِتين وجودَ الباري، يعلمون أنهم أضلُّ الطوائف، ولكن تسرَّب على بعض المسلمين من هذا المذهب الدهري[١] بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول؛ إذ فسَّرت طائفة من العصريين سجود الملائكة لآدم أن معناه تسخير هذا العالم للآدميين، وأن المواد الأرضية والمعدنية ونحوها قد سخَّرها الله للآدمي، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة، ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمَدٌّ من ذلك الرأي الأَفِن[٢]، وأنه تحريف لكتاب

---

(١) المذهب الدهري: هو مذهب قائل ببقاء الدهر ولا يؤمن بالحياة الأخرى.

(٢) أي: الأحمق.

الله، لا فرق بينه وبين تحريف الباطنية والقرامطة[١]، وأنه إذا أُوِّلَت هذه القصة إلى هذا التأويل توجَّه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن، وانقلب القرآن ـ بعدما كان تبيانًا لكل شـيء وهدى ورحمة ـ رموزًا يمكن كل عدو للإسلام أن يفعل بها هذا الفعل، فيبطل بذلك القرآن، وتعود هدايته إضلالًا، ورحمته نقمة، سبحانك هذا بهتان عظيم.

والمؤمن في هـذا الموضع يكفيه لإبطـال هذا القـول الخبيث أن يتلو ما قَصَّه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة؛ فيعلم أن هذا منافٍ لما قصد الله ورسوله غاية المنافاة، وإنْ زخرفه أصحابُه، ولَوَوْا له العبارات، ونسبوه إلى بعض مَن يُحْسِن بهم الظن، فالمؤمن لا يترك إيمانه، ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغرَّرة، أو المغرور أصحابها.

ومنها: أنَّ مَنْ مَـنَّ الله عليه بالعلم عليه أن يعتـرف بنعمة الله عليه، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسـل: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، وأن يتوقى التكلُّـم بما لا يعلم؛ فـإن العلم أعظم الـمِنَن، وشُـكْر هـذه النعمة الاعترافُ لله بهـا، والثناء عليه بتعليمهـا، وتعليم الجُهَّـال، والوقوف على ما علمه العبد، والسكوت عما لم يعلمه.

ومنها: أن الله جعل هذه القصة لنا معتبَرًا، وأن الحسـد والكِبْر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكِبْر إبليس وحسده لآدم صيَّره إلى ما ترى، وحرص آدم وزوجه حملهما على تناوُل الشجرة، ولولا تدارُك رحمة الله لهما لأَوْدَت بهما إلى الهـلاك، ولكن رحمة الله تُكمل الناقص، وتجبر الكسـير، وتنجي الهالك، وترفع الساقط.

---

(١) الباطنية: هم القائلون بأن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب كثيرة: الباطنية، والقرامطة، والمزدكية، وغيرها.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا وقع فــي ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلبٍ خالص، وإنابة صادقة، فما قَصَّ الله علينا صفةَ توبتهمــا إلا لنقتدي بهما، فنفــوز بالســعادة، وننجو من الهَلَكــة، وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعُّدنا، وعزمه الأكيد على إغوائنا بكل طريق؛ إلا لنستعِدَّ لهذا العدو الذي تظاهَر بهذه العداوة البليغة المتأصِّلة، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه؛ من تجنُّب طرقه وخطواته، وفِعْل الأســباب التي يُخْشَــى منهــا الوقوع في شــباكه، ومِن عمــل الحصون مــن الأوراد الصحيحة، والأذكار القلبية، والتعوذات المتنوعة، ومن السلاح الــمُهْلِك له؛ من صدق الإيمان، وقوة التوكُّل على الله، ومراغمته في أعمال الخير، ومقاومة وساوســه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلــب كل وقت بما يضادُّها، ويُبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة.

ومنها: أن فيها دلالة لمذهب أهل الســنة والجماعــة المثبِتين لله ما أثبته لنفسه من الأسماء الحســنى والصفات كلها، لا فرق بين صفات الذات، ولا بين صفات الأفعال.

ومنها: إثبات اليدَين لله كما هو في قصة آدم صريحًا: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فله يدان حقيقةً، وكما أن ذاته لا تشــبهها الذوات فصفاته تعالى لا تشــبهها الصفات.

ومنها: إثبات الكلام لله تعالى؛ وأنه لم يَزَلْ متكلِّمًا؛ يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم.

ومنهــا: أن العبــد إذا خَفِيَــتْ عليه حكمــة الله في بعــض المخلوقات والمأمورات فالوجب عليه التسليم، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة.

ومنها: اعتناء الله بشــأن الملائكة، وإحســانه بهــم؛ بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه.

ومنها: فضيلة العلم من وجوه:

ـ أن الله تعرَّف لملائكته بعلمه وحكمته.

ـ أن الله عرَّفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ـ أن الله أمرهم بالسجود لآدم؛ إكرامًا له لما بَانَ فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتُحْنِـوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

ومنها: الاعتبار بحال أبوَيِ الإنـس والجن، وبيان فضل آدم، وأفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العِبَر.



قصة ابنَيْ آدم



﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١]

أي: قُصَّ على الناس، وأَخْبِرْهُم بالقضية التي جرت على ابنَيْ آدم بالحقِّ، تلاوةً يعتبر بها المعتبِرون، صدقًا لا كذبًا، وجِدًّا لا لَعِبًا، والظاهر أن ابنَيْ آدم هما ابناه لصُلْبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين، أي: اتْلُ عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان الذي أدَّاهما إلى الحال المذكورة.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: أخرج كلٌّ منهما شيئًا من ماله لقصد التقرُّب إلى الله، ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ بأن علم ذلك بخبرٍ من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم؛ أنَّ علامة تقبُّل الله لقربان أن تنزِلَ نارٌ من السماء فتحرقه.

﴿قَالَ﴾ الابنُ الذي لم يُتقبَّل منه للآخر حسدًا وبغيًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فقال له الآخر ـ مترقِّقًا له في ذلك ـ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فأيُّ ذنبٍ لي وجناية توجِبُ لك أن تقتلني إلا أني اتَّقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبةٌ عليَّ وعليك، وعلى كلِّ أحد؟! وأصحُّ الأقوال في تفسير المتقين هنا؛ أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملُهم خالصًا لوجه الله، متَّبعين فيه لسنَّة رسول الله ﷺ.

ثم قال له مخبرًا أنَّه لا يريد أن يتعرَّض لقتله، لا ابتداءً ولا مدافعةً، فقال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، وليس ذلك جُبْنًا منِّي ولا عجزًا، وإنَّما ذلك لأني ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والخائف لله لا يُقْدِم على الذُّنوب، خصوصًا الذنوب الكبار، **وفي هذا** تخويفٌ لمن يريد القتل، وأنَّه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾، أي: ترجع ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾، أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلًا أو تقتلني فإني أُوثِر أن تقتلني، فتبوء بالوِزْرَيْن، ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، دلَّ هذا على أن القتل من كبائر الذُّنوب، وأنَّه موجِبٌ لدخول النار.

فلم يرتدِع ذلك الجاني ولم ينزجِر، ولم يَزَلْ يعزم نفسه ويجزمها، حتى طوَّعت له قتلَ أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه، ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سنَّ هذه السنة لكلِّ قاتل، «ومن سنَّ سُنةً سيئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة»[١]، ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تُقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطرٌ من دمها؛ لأنه أوَّلُ من سنَّ القتل»[٢]، فلما قتل أخاه لم يدرِ كيف يصنع به؛

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

لأنه أول ميــت مات من بنــي آدم، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يثيرُها ليدفن غُرابًا آخر ميتًا. ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، أي: بدنه؛ لأنَّ بدن الميــت يكون عــورةً، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.



قصة نوح عليه السلام



مكث البشر بعد آدم قرونًا طويلة وهم أمة واحدة على الهدى، ثم اختلفوا، وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة، فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون، فحزنوا عليهم، فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوِّروا تماثيلهم(١)؛ ليتسلَّوْا بها وليتذكَّروا بها أحوالهم، فكان هذا مبتدأ الشر، فلما هلك الذين صوَّرُوهم لهذا المعنى جاء مَن بعدهم وقد اضمحل العلم، فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء وَدًّا وسُواعًا ويَغُوثَ ويَعُوق ونَسْرًا؛ قد كان أوَّلوكم يدعونهم ويستشفعون بهم، وبهم يُسْقَوْن الغيث وتزول الأمراض، فلم يَزَلْ بهم حتى انهمكوا في عبادتهم على رغم نُصْح الناصحين، ثم بعث الله فيهم نوحًا عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ورغَّبهم في خير الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٢ ـ ٤] فلما بادأهم بالأمر بالإخلاص لله، وتسفيه آرائهم، وتخويفهم بعقوبات الدنيا والآخرة، قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، وطلبوا منه أن يطرد مَن كان معه من المؤمنين؛

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).



استكبارًا منهم، واستنكافًا عن الحق وعلى الخلق، فبيَّن لهم أنه ليس به ضلال، وإنما به تزول الضلالة عن الخلق، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة، وأن المؤمنين لا يحل طردهم، بل حقهم الإكرام والاحترام، وأنه لا يدعي لهم طورًا يزاحم فيه الرب، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١]، فلم يَزَلْ يدعوهم ليلًا ونهارًا، وسِرًّا وجَهْرًا، فلم يَزِدْهُم دعاؤه إلا فرارًا ونفورًا، وإعراضًا، وتواصيًا منهم على الإقامة على ما هم عليه من عبادة غير الله والتمسك بها، فقال نوح: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢١ - ٢٣]، فلما رأى أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه، وأنه كلما جاء قرن كان أخبث مما قبله، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧]، فأجاب الله دعوته، وأمره أن يصنع الفُلْك برعاية منه وحُسْن نظر، وتعليم من الله له هذه الصنعة التي امتنَّ الله بها على العباد، وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التي حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية في جميع الأوقات ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، وأخبره الله بتحتُّم إغراقهم، وأنه لا يخاطب ربه فيهم فإنهم ظالمون، وجعل يصنع الفلك، وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه، فقال لهم: إن تسخروا منا اليوم فإنا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم. وأوحى الله إليه أنه إذا جاء ذلك الوقت وفار التنُّور[1]، أي: جعلت الأرض كلها تتفجَّر عيونًا من كل جانب حتى المواضع البعيدة عن النار عادةً، وأمره أن يحمل من البهائم من كلٍّ زوجَين اثنين؛ ذكر وأنثى، ليبقى نسلها؛ لأنه يتعذَّر حَمْلُها كلها، والحكمة تقتضي إبقاء هذه الحيوانات التي خلقها الله مسخَّرة لمصالح البشر،

---

(١) التَّنُّور: قيل: هو وجه الأرض، وقيل: مكان النار الذي يُخْبَز فيه.

ويحمل معه جميع مَن آمن مِن رجال ونساء، والحال أنه ما آمن معه إلا قليل، وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك، فلما أركب جميع من أُمِر بهم قال لهم: سموا الله كلما جَرَتْ وكلما رَسَتْ؛ لأن الأسباب مهما عظمت فهي من لطف الله، ولا تمام لها إلا بالله.

فحينئذ فجَّر الله الأرض عيونًا، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض، وساحت على الأماكن المنخفضة، ثم ارتفعت شيئًا فشيئًا على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة، والسفينة تجري بهم في موج كالجبال تضرب يمينًا وشمالًا، وفي تلك الحال المزعجة رأى نوحٌ ابنه الكافر الذي كان على دين قومه وقد اعتزل أباه حتى في هذه الحال، فرآه مثل سائر قومه قد فرَّ هاربًا من المياه الجارفة، فناداه نوح مترفقًا فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، فتمادى به الغرور في تلك الحال التي تنقشع فيها الغياهب إلا عن القلوب المحجوبة، فقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣]، لم يخطر ببالهم أن المياه سترتفع فوق رؤوس الجبال، فقال له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم الله، ورحمته في تلك الحال متعيِّنة في ركوب السفينة مع نوح.

﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾ [هود: ٤٣] فكان ذلك الابن من الـمُغْرَقين.

فأغرق الله جميع الكافرين، ونَجَّى نوحًا ومن معه أجمعين، وكان في ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق، وأن مَن خالَفَه فإنه مُبْطِل، ودليل على الجزاء في الدنيا لأهل الإيمان بالنجاة والكرامة، ولأهل الكفر بالهلاك والإهانة.

فلما حصل هذا المقصود العظيم أمر الله السماء أن تُقْلِع عن الماء، والأرض أن تبلع ما فيها، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود: ٤٤] أي: نقص شيئًا فشيئًا،

واستوت السـفينة بعد غَيْض[1] الماء على الجُودِيِّ، وهو جبل شامخ معروف في نواحي الموصل.

وهذا دليل علـى أن جميع الجبال قد غمرتها الميـاه وجاوزها الطوفان، وحزن نوح على ابنه، فقال مناديًا ربه مترققًا متضرعًا يا رب: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥] أن أحمل معي أهلي وأنت أرحم الراحمين، فقال له ربه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] أي: الموعود بنجاتهم؛ لأن الله قيَّد ذلك بقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦] أي: هذا الدعاء لابنك الذي على دين قومه بالنجاة.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وهذا عتاب منه لنـوح، وتعليم له، وموعظة عن مثل هذا الدعـاء الذي إنما حمله عليه الشـفقة الأبوية، وإنما الواجـب في الدعاء أن يكـون الحامل له العلم والإخلاص في طلب رضا الله تعالى، فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٧ ـ ٤٨] فهبط، وبارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين؛ فكان أولاده يافث ملأ المشرق من الذرية، وحام ملأ المغرب من النسل، وسام ملأ ما بين ذلك، ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومكث بعد هلاكهم ما شـاء الله، وكان من أولي العزم من المرسـلين، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشـفاعة يوم القيامة، وهو أول الرسـل إلى الناس، وهو الأب الثاني للبشر، صلى الله عليه وسلم تسليمًا.



(١) أي: نَقْصه وذهابه.

يستفاد من هذه القصة أمور

منها: أن جميع الرسل من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محمد ﷺ متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك، فنوحٌ وغيره أول ما يقولون لقومهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويكرِّرون هذا الأصل بطرق كثيرة.

ومنها: آداب الدعوة وتمامها، فإن نوحًا دعا قومه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، بكل وقت، وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة، وأنه رغَّبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب، وبالتمتيع بالأموال والبنين، وإدرار الأرزاق إذا آمنوا، وبالثواب الآجل؛ وحذَّرهم من ضد ذلك، وصبر على هذا صبرًا عظيمًا، كغيره من الرسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب، مُحَصِّل للمطلوب، وأقام الآيات، وبيَّن البراهين.

ومنها: أن الشُّبَه التي قدح فيها أعداء الرسل برسالتهم من الأدلة على إبطال قول المكذبين، فإن الأقوال التي قالوها ولم يكن عندهم غيرها ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل، فقول قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] تأمَّل جُمَلَها تجدها تمويهات دالة على أنهم مبطلون مكابرون للحقيقة.

فقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧] فهل في كون الحق جاء على يد بشر شيء من الشبهة تدل على أنه ليس بحق؟

ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أي مصدر يكون باطلًا، وهذا قَدْحٌ منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر، ومعلوم أن هذا

يُبطِل العلوم كلها، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدها بعضهم من بعض وهي متفاوتة؟ فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقَّاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحي إلهي.

وكذلك قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] أي: نحن وأنتم بشر، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، فمنَّ الله على الرسل، وخصَّهم بالوحي والرسالة، مع أن إنكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القَدْح في نعمة الله، فإن رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر؛ ليتمكن العباد من الأخذ عنهم، وتتيسَّر عليهم هذه النعمة، ويُسهِّل الله لهم طرقها، فهؤلاء المكذِّبون كفروا بأصل النعمة، وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءتهم به.

وكذلك قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يُعْرَف أنه حق بنفسه لا بمن تَبِعَه، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كِبْر وتِيهٍ، والكِبْر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق ومِن اتِّباعه.

وأيضًا قولهم: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، إن أرادوا الفقر فالفقر ليس من العيوب، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق فهذا كذب معلوم بالبديهة، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة، فهل الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، والانقياد للحق، والسلامة من كل خصلة ذميمة، هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل؟ أم الرذيلة بضده من تَرْك أَفْرَض الفروض؛ توحيد الله، وشكره وحده، وامتلاء القلب من التكبُّر على الحق وعلى الخلق؟ هذا واللهِ أرذلُ الرذائل، ولكن القوم مباهتون، فما نقموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] أي: مبادرةً منهم إلى الإيمان بك يا نوح، لم يشاوروا ولم يتأنَّوْا ويتروَّوْا، لو فُرِض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق، فإن الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطمأنينة ما لا يحتاج إلى مشاورة أحد باتِّباعه، وإنما التي تحتاج إلى مشاورة هي الأمور الخفية، التي لا تُعْلَم حقيقتها ولا منفعتها، أما الإيمان الذي هو أجلى من الشمس في نورها، وأحلى من كل شيء، فما يتأخَّر عنه إلا كل متكبِّر جبَّار أمثال هؤلاء الطغاة البُغاة.

وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧]، هل في هذا الكلام شيء من الإنصاف بوجه؛ لأنهم يُخبرون عن أنفسهم، وكلامهم يحتمل أنه الذي في قلوبهم، ويحتمل أنهم يقولون ما لا يعتقدون، وعلى كلا الأمرَين فالحق يجب قبوله، سواء أقاله الفاضل أو المفضول، الحق أعلى من كل شيء.

وكذلك قولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، معلوم أن الظن أَكْذَبُ الحديث، ثم لو قالوا: بل نَعْلَمُكم كاذبين، فهذه كل مُبْطِل يقدر أن يقولها، ولكن بأي شيء استدللتم أنهم كاذبون؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى، فكيف وقد قابَلها الرسل بالأدلة والبراهين المتنوعة التي لا تُبقِي ريبًا لأحد في بطلانها.

ومنها: أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله القاصرة، وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق؛ كالدعوة، والتعليم، وتوابع ذلك، ولذلك يُبْدُون ذلك ويُعيدونه على أسماع قومهم، كل منهم يقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، ولهذا كان من أَجَلِّ الفضائل لأتْباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

ومنها: أن القدح في نيات المؤمنين وفيما منَّ الله عليهم به من الفضائل، والتألِّي على الله أنه لا يؤتيهم من فضله من مواريث أعداء الرسل، فلهذا قال نوح لقومه حين تألَّوْا على الله، وتوسَّـلوا في ذَمِّ المؤمنيـن به بذلك، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١].

ومنها: أنه ينبغي الاستعانة بالله، وأن يُذْكَر اسـمه عند الركوب والنزول، وفي جميع التقلُّبـات والحركات، وحَمْد الله، والإكثار مـن ذِكْره عند النِّعَم، لا سـيما النجاة من الكُرُبات والمشـقَّات، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]، وقـال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وأنه ينبغي أيضًا الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة؛ كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة كالمساكن والدُّور؛ لقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وفي ذلك كله من اسـتصحاب ذِكْر الله، ومن القوة على الحركات والسكنات، ومن قوة الثقة بالله، ومن نزول بركة الله التي هي خيرُ ما صَحِبَت العبدَ في أحواله كلها ما لا غنى للعبد عنه طرفة عين.

ومنها: أن تقوى الله والقيام بواجبات الإيمان من جملة الأسباب التي تُنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان ـ وإن كان لذلك أيضًا أسـباب أُخَر ـ، وهي السبب الوحيد الذي ليس هناك سبب سواه في نَيْل خير الآخرة، والسلامة من عقابها.

ومنها: أن النجاة من العقوبـات العامة الدنيوية هـي للمؤمنين، وهم الرُّسُـل وأتباعهم، وأما العقوبات الدنيوية العامة فإنها تختصُّ بالمجرمين،

ويتبعهم توابعهم من ذريةٍ وحيوان، وإن لم يكن لها ذنوب؛ لأن الوقائع التي أوقع الله بأصناف المكذِّبين شملت الأطفال والبهائم، وأما ما يُذْكَر في بعض الإسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم فهذا ليس له أصل، وهو منافٍ للأمر المعلوم، وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].





قصة هود عليه السلام



بعث الله هودًا عليه الصلاة والسلام إلى قومه عاد الأولى المقيمين بالأحقاف(١) ـ من رمال حضرموت ـ لما كثر شَرُّهم، وتجبَّروا على عباد الله، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، مع شركهم بالله وتكذيبهم لرسل الله، فأرسله الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن الشرك والتجبُّر على العباد، ويدعوهم بكل وسيلة، ويُذَكِّرهم ما أنعم الله عليهم به من خير الدنيا، والبَسْطة في الرزق والقوة، فرَدُّوا دعوته، وتكبَّروا عن إجابته، وقالوا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وهم كاذبون في هذا الزعم، فإنه ما من نبي إلا أعطاه الله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر، ولو لم يكن من آيات الرسل إلا أن نفس الدِّين الذي جاءوا به أكبر دليل أنه من عند الله؛ لإحكامه، وانتظامه للمصالح في كل زمان بحسبه، وصِدْق أخباره، وأمره بكل خير، ونهيه عن كل شر، وأن كل رسول يُصَدِّق مَن قبله ويشهد له، ويُصَدِّقه مَن بعده ويشهد له.

ومن آيات هود الخاصة أنه متفرِّد وحده في دعوته، وتسفيه أحلامهم، وتضليلهم، والقَدْح في آلهتهم، وهم أهل البطش والقوة والجبروت، وقد

(١) الأحقاف: جمع حِقْف، وهو الرمل المائل، والمراد هنا: وادٍ بين عُمان وأرض مهرة [عن ابن عباس]. وقيل: رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت.

خوَّفوه بآلهتهم إن لم يَنْتَهِ أن تمسَّه بجنون أو سوء، فتحدَّاهم علنًا، وقال لهم جهارًا: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، فلم يَصِلُوا إليه بسوء.

فأي آية أعظم من هذا التحدي لهؤلاء الحريصين على إبطال دعوته بكل طريق؟ فلما انتهى طغيانهـم تولَّى عنهم وحذَّرهم نـزول العذاب، فجاءهم العذاب معترضًا في الأفق، وكان الوقت وقت شدة عظيمة، وحاجة شديدة إلى المطر، فلما استبشروا وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] قال الله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، بقولكـم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥] تَمُرُّ عليه، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فبعدما كانت الدنيا لهـم ضاحكة، والعز بليغًا، ومطالب الحياة متوفِّرة، وقد خضع لهم مَن حولهم من الأقطار والقبائل، أرسل الله إليهم ريحًا صرصرًا[1] في أيام نَحِسات؛ لنذيقهم عذاب الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون، ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، ونجَّـى الله هودًا ومن معه من المؤمنين، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ [الشعراء: ١٣٩] على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم، ونصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشـهاد، وآية على إبطال الشرك، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها، وآية على البعث والنشور.

---

(١) أي: باردة ذات صوت.

فوائد من هذه القصة

فيها: ما تقدَّم في قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل.

ومنها: أن الله بحكمته يَقُصُّ علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها؛ لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير، والله تعالى صرَّف فيه التذكيرات تصريفًا نافعًا.

ولا ريب أن الأقطار النائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله إليهم رسلًا، ولهم معهم نظير ما للمذكورين من إجابة وردٍّ وإكرام وعقوبة، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولًا، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا، وما نتناقله جيلًا بعد جيل، بل نشاهد آثارهم، ونمر بديارهم كل وقت، ونفهم لغاتهم، وطبائعهم أقرب إلى طبائعنا، لا ريب أنَّ نفع هذا عظيم، وأنه أولى من تذكيرنا بأُمَم لم نسمع لهم بذِكْر ولا خبر، ولا نعرف لغاتهم، ولا تتصل إلينا أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به، فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم، وأنسب لأحوالهم، وأدخل في مداركهم، وأنفع لهم من غيره؛ أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقًّا، لكن الحق يتفاوت، والمذكِّر والمعلِّم إذا سلك هذا الطريق، واجتهد في إيصال العلم والخبر إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها، ولا ينفرون منها، أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم؛ نَفَعَ وانتفع، وأشار الباري إلى هذا في آخر قصة عاد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، أي: نوَّعناها بكل فن ونوع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، أي: ليكون أقرب لحصول الفائدة.

ومنها: أن اتخاذ المباني الفخمة للفخر والخُيَلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الأمم الطاغية، كما قال الله في

قصة عــاد وإنكار هود عليهم، قــال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩].

وبالجملة فالبنايات للقصور والحصون والدُّور وغيرها من الأبنية:

إما **أن تُتَّخَذ مساكن للحاجة إليها**، والحاجات تتنوَّع وتختلف، فهذا النوع من الأمور المباحة، وقد يُتوسَّل به بالنية الصالحة إلى الخير.

وإما **أن تكون البنايات حصونًا واقية لشــرور الأعداء**، وثغورًا تُحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين، ويَقِيهم الشر، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله، وهو داخِلٌ في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء.

وإما **أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله**، وتبذير الأموال التي يتعيَّن صَرْفُها في طرق نافعة، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرهم.

ومنها: أن العقول والأذهان والذكاء وما يَتْبَع ذلك من القوة المادية، وما ترتَّب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت وبلغت مبلغًا هائلًا، فإنها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الإيمان بالله ورسله.

وأما الجاحد لآيات الله المكذِّب لرســل الله، فإنه وإن استُدْرِج في الحياة وأُمْهِل فإن عاقبته وخيمة، وسمعه وبصره وعقله لا يُغني عنه شيئًا إذا جاء أمر الله، كما قال الله عن عــاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وفي الآية الأخــرى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].



قصة صالح عليه السلام



كانت ثمود ـ وهي عاد الثانية ـ يسكنون في الحِجْر[1] وما حولها، وكانوا أهل مواشٍ كثيـرة، وأهل حَـرْثٍ وزروع، وتواصلت عليهـم النِّعَم، فكانوا يتخذون من السهول قصورًا مزخرفة، ومن الجبال بيوتًا منحوتة مُتْقَنَة، فبَطِرُوا النِّعَم وكفروها، وعبدوا غير الله، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحًا من قبيلتهم، يعرفون نسبه وحَسَبه، وفضله وكماله، وصدقه وأمانته، فدعاهم إلى الله، وإلى إخلاص الدين له، وتَرْك ما كانوا يعبدون من دونه، وذَكَّرَهم بنعم الله، وبأيامه بالأمم المجاورة لهم، فلم يتبعه إلا القليل.

وحين ذَكَّرَهم وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد الله اشـمأزوا ونفروا واستكبروا، وقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، أي: قد كنا قد تخايَلنا فيك أن تفْضُلَنا جميعًا؛ لكمالك وكمال أخلاقك، وآدابك الطيبة.

وهذا اعتراف منهم له بهذه الأمور قبل أن يقول ما قال، فما نَزَّلَه عن هذه المرتبة عندهم إلا أنـه دعاهم إلى عبـادة الخالق، مِن عبـادة العبيد، وإلى السـعادة الأبدية، وما ذنبه إلا أنه خالَفَ آباءهم الضالِّيـن، وهم كانوا أضلَّ

---

(١) الحِجْر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام.

منهم، ثم أقام لهم بينة عظيمة وبرهانًا ونعمة على جميع القبيلة بأَسْرها، وقال: هذه ناقة الله ـ التي لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها وشرفها ومنافعها لكم ـ آيةٌ على صدقي، وعلى سعة رحمة ربكم، فذَرُوها تأكل في أرض الله، على الله رِزْقُها، ولكم نفعها، تَرِد الماء يومًا فترد القبيلة بأَسْرها على ضرعها، كلٌّ يصدر عن ضرعها قد ملأ آنيته، ثم تَرِدُون أنتم في اليوم الثاني، فمكثت على هذا ما شاء الله.

وكان في مدينتهم تسعةُ رهطٍ من شياطينهم قد قاوَموا ما جاء به صالح أشد المقاومة، يَصُدُّون عن سبيل الله، ويُفْسِدون في الأرض ولا يُصْلِحون، وكان صالح قد حذَّرهم من عَقْر الناقة؛ لما رأى من كِبْرهم ورَدِّهم الحق، فأول ما فعل أولئك الملأ الأشرار أن عقدوا مجلسًا عامًّا ليتفقوا على عقر الناقة، فاتفقوا، فانتدب لذلك أشقى القبيلة، ولهذا قال الله تعالى:

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢]، أي: بعد اتفاقهم ونَدْبهم إياه بعثوه لذلك، فانبعث واستعدَّ، وتكفَّل لهم بعقرها، وهم جميعهم راضون، بل آمِرون، فعقرها، فكان هذا العقر مُؤْذِنًا بهلاك القبيلة بأسرها.

فلما شعر صالح بالأمر، ورأى منظرًا فظيعًا، علم أن العذاب قد تحتَّم لا محالة؛ لأن الجريمة قد تفاقمت، ولم يَبْقَ حالة يُرْجَى فيها لهم تقويم، فقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾، ونَبَّه بهذا الكلام دانِيَهم وقاصيهم، ففي أثناء هذه المدة اتَّفق هؤلاء الرهط التسعة على أمرٍ أغلظ من عَقْر الناقة؛ على قَتْل نبيهم صالح، وتعاهَدوا وتعاقدوا، وحلفوا الأيمان المغلَّظة، وكتموا أمرهم خشيةً من منع أهل بيته؛ لأنه في بيت عِزٍّ وشرف، وقالوا: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾، ثم إذا ظُنَّ بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائه أننا ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، فدَبَّرُوا هذا المكر العظيم، ولكنهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح، فحين كمنوا في أصل جبل لينظروا

الفرصة في صالح بدأ الله بعقوبتهم، فكانوا سلفًا مقدَّمًا لقومهم إلى نار جهنم، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم[1]، وقُتِلوا أشنع قتلة، ثم لما تَمَّت ثلاثة هذه الأيام جاءتهم صيحة من فوقهم، ورَجْفة من أسفل منهم، فأصبحوا خامدين، ونجَّى الله صالحًا ومن معه من المؤمنين، وتولى عنهم وقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].



(١) الشَّدْخ: التهشيم والتحطيم.

فوائد تتعلق بهذه القصة

منها: أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، وأن مَن كذَّب واحدًا منهم فقد كذَّب الجميع؛ لأنه يكـذِّب الحق الذي جاء به كل واحد منهـم، ولهذا يقول في كل قصة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ومنها: أن عقوبات الله للأمم الطاغية عند تَناهي طغيانها وتفاقُم جرائمها، فكُفرهم وتكذيبهم مُوجِب للهلاك، ولكن تحتَّم الإهلاك عند تَناهِي إجرامهم؛ لأن الله تعالى بالمرصاد، فيُمهِل ثم يُمْهِل، حتى إذا أخذهم أخْذ عزيز مقتدر.

ومنها: أن العقائد الباطلة الراسـخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق، والحال أنها ليست في العير ولا في النفير، ولا لها مقام في الحجج الصحيحة الدالَّة على الحقائق، فلهذا أكبر ما رَدَّ به قومُ صالح لدعوته أن قالوا: أتنهانا أن نعبـد ما يعبد آباؤنا؟ وقالت جميع الأمم المكذِّبة رادِّين لدعوة الرسـل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وهذا سـبيل لا يزال معمورًا بالسـالكين من أهل الباطل، نَهَجَتْه[١] الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل الله، ومن المعلوم أن طريق الرسل هي طريق الهدى والحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!



(١) أي: أَبَانَتْه وأَوْضَحَتْه.

قصة إبراهيم خليل الرحمٰن عَلَيْهِ السَّلَامُ



قد ذكر الله في كتابه سيرة وأخبارًا كثيرةً من سيرة إبراهيم، فيها لنا الأسوة بالأنبياء عمومًا، وبه على وجه الخصوص؛ فإن الله أمر نبينا ـ وأمرنا ـ باتباع مِلَّتِه، وهي ما كان عليه من عقائد وأخلاق وأعمال قاصرة ومتعدية، فقد آتاه الله رُشْدَه، وعلَّمه الحكمة منذ كان صغيرًا، وأراه ملكوت السماوات والأرض، ولهذا كان أعظم الناس يقينًا وعلمًا وقوةً في دين الله ورحمته بالعباد، وكان قد بعثه الله إلى قوم مشركين يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وهم فلاسفة الصابئة[1] الذين هم من أخبث الطوائف، وأعظمهم ضررًا على الخَلْق، فدعاهم بطرق شتى، فأول ذلك دعاهم بطريقة لا يمكن لصاحب عقل أن ينفر منها، ولما كانوا يعبدون السبع السيَّارات التي منها الشمس والقمر، وقد بنوا لها البيوت، وسَمَّوْها الهياكل، قال لهم ناظرًا ومناظرًا: هَلُمَّ يا قوم ننظر هل يستحق منها شيء الإلهية والربوبية؟ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]، والمناظرة تُخالِف غيرها في أمور كثيرة:

منها: أن المُناظِر يقول الشيء الذي لا يعتقده ليبني عليه حُجَّته، وليقيم الحجة على خصمه، كما قال في تكسيره الأصنام لما قالوا له:

---

(١) الصابئة: قيل: هم عبَدَةُ الْمَلاَئِكَة، وَقيل: عَبَدَة الكَوَاكبِ، وهم يزعمون كذبًا أنهم على دين نوح.

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة، وقد حصلت.

فهنا يسهل علينا فَهْم معنى قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي: إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يُلزمهم بالحجة: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي: غاب، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] فإنَّ من كان له حال وجود وعدم، أو حال حضور وغَيْبة، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل، فلا يكون إلهًا، ثم انتقل إلى القمر، فلما رآه بازغًا: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، يُرِيهم صلوات الله وسلامه عليه، وقد صَوَّر نفسه بصورة الموافق لهم، لكن ليس على وجه التقليد، بل يقصد إقامة البرهان على إلهية النجوم والقمر، فالآن وقد أَفَلَتْ، وتبيَّن بالبرهان العقلي مع السمعي بطلان إلهيتها، فأنا إلى الآن لم يستقرَّ لي قرار على رب وإله عظيم، فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا أكبر من النجوم ومن القمر، فإن جرى عليها ما جرى عليهما كانت مثلهما، فلما أفلت وقد تقرَّر عند الجميع فيما سبق أن عبادة من يَأْفُل من أبطل الباطل، فحينئذ ألزمهم بهذا الإلزام، ووَجَّهَ عليهم الحجة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩] أي: ظاهري وباطني، ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، هذا برهان عقلي واضح أن الخالق للعالم العلوي والسفلي هو الذي يتعيَّن أن يُقصَد بالتوحيد والإخلاص، وأن هذه الأفلاك والكواكب وغيرها مخلوقات مُدْبِرات، ليس لها من الأوصاف ما تستحق العبادة لأجلها؛ فجعلوا يُخوِّفونه آلهتَهم أن تَمَسَّهُ بسوء، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات



الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن آلهتهم تنفع مَن عبَدَها وتَضُرُّ مَن تركها أو قدح فيها، فقال لهم مبيِّنًا لهم أنه ليس عليه شيء من الخوف، وإنما الخوف الحقيقي عليكم، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] أجاب الله هذا الاستفهام جوابًا يَعُمُّ هذه القصة وغيرها في كل وقت، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: بِشِرْك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فرفع الله خليله إبراهيم بالعلم وإقامة الحجة، وعجزوا عن نصر باطلهم؛ ولكنهم صَمَّمُوا على الإقامة على ما هم عليه، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير وإقامة الحجج، فلم يَزَل يدعوهم إلى الله، وينهاهم عما كانوا يعبدون نهيًا عامًّا وخاصًّا، وأخصُّ مَن دعاه أبوه آزر؛ فإنه دعاه بعدة طرق نافعة، ولكن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]، فمن جملة مقالاته لأبيه قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٣]، انظر إلى حُسْن هذا الخطاب الجاذب للقلوب؛ لم يقل لأبيه: إنك جاهل؛ لئلا ينفر من الكلام الخشن، بل قال له هذا القول: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٣ ـ ٤٥]، فانتقل بدعوته من أسلوب لآخر لعله ينجع فيه أو يُفيد، ولكنه مع ذلك قال له أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، هذا وإبراهيم لم يغضب، ولم يقابل أباه ببعض ما قال، بل قابَل هذه الإساءة الكبرى بالإحسان، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، أي: لا أتكلَّم معك إلا بكلام طيب لا غلظة فيه ولا خشونة، ومع ذلك فلستُ بآيِسٍ من هدايتك:

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، أي: بَرًّا رحيمًا، قد عوَّدني لُطفه، وأجراني على عوائده الجميلة، ولم يَزَل لدعائي مجيبًا.

فلم يَزَل إبراهيم مع قومه في دعوة وجدال، وقد أفحمهم، وكسر جميع حُجَجِهم وشُبَهِهم، فأراد عليه السلام أن يقاومهم بأعظم الحُجَج، وأن يصمد لبطشهم وجبروتهم، وقدرتهم وقوتهم، غير هائب ولا وَجِل[١]، فلما خرجوا ذات يوم لعيد من أعيادهم وخرج معهم، ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ لأنه خشي إن تَخَلَّف لغير هذه الوسيلة لم يدرك مطلوبه؛ لأنه تظاهَر بعداوتها، والنهي الأكيد عنها، وجهاد أهلها، فلما برزوا جميعًا إلى الصحراء كرَّ راجعًا إلى بيت أصنامهم، فجعلها جُذاذًا[٢] كلها إلا صنمًا كبيرًا أبقى عليه؛ ليُلْزِمهم بالحجة، فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صبابةً ومحبةً، فرأوا فيها أفظع منظر رآه أهلها، فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦٠]، أي: يعيبها ويذكرها بأوصاف النقص والسوء: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] فلما تحقَّقوا أنه الذي كسرها: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]، أي: بحضرة الخَلْق العظيم، ووبَّخوه أشد التوبيخ، ثم نكلوا به، وهذا الذي أراد إبراهيم؛ ليظهر الحق بمرأى الخلق ومسمعهم، فلما جُمِع الناس وحضروا، وأحضروا إبراهيم، قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٣] مشيرًا إلى الصنم الذي سَلِم من تكسيره، وهم في هذه بين أمرين: إما أن يعترفوا بالحق، وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن جمادًا معروفًا أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكن أن يفعل هذا الفعل، وإما أن يقولوا: نعم هو الذي فعلها وأنت سالم ناجٍ مِن تَبِعَتها، وقد علم أنهم لا يقولون

---

(١) الوَجَل: استشعار الخوف.

(٢) أي: فُتَاتًا.

الاحتمال الأخير، قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، وهذا تعليق بالأمر الذي يعترفون أنه محال، فحينئذ ظهر الحق وبان، واعترفوا هم بالحق، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، أي: ما كان اعترافهم ببطلان إلهيتها إلا وقتًا قصيرًا حيث ظهرت الحجة مباشرة التي لا يمكن مكابرتها، ولكن ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التي رسخت في قلوبهم، وصارت صفات ملازمة، إن وُجِد ما ينافيها فإنه عارِض يعرض ثم يزول: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، فحينئذ وبَّخهم بعد إقامة الحجة التي اعترف بها الخصوم على رؤوس الأشهاد، فقال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧]، فلو كان لكم عقول صحيحة لم تُقيموا على عبادة ما لا ينفع ولا يضر، ولا يدفع عن نفسه مَن يريده بسوء، فلما أعيتهم المقاومة بالبراهين والحُجَج عَدَلُوا إلى استعمال قوتهم وبطشهم وجبروتهم في عقوبة إبراهيم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾، فأوقدوا نارًا عظيمة جدًّا فألقوه بها، فقال وهو في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال الله للنار: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فلم تضره بشيء، ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ لينصروا آلهتهم، ويُقِيموا لها في قلوبهم وقلوب أتباعهم الخضوع والتعظيم، فكان مكرهم وبالًا عليهم، وكان انتصارهم لآلهتهم نصرًا عظيمًا عند الحاضرين والغائبين والموجودين والحادثين عليهم.

وانتصر الخليل على الخواص والعوام والرؤساء والمرؤوسين، حتى إن ملكهم حاجَّ إبراهيم في رَبِّه بغيًا وطغيانًا، ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فألزمه الخليل بطَرْد

دليله بالتصرف المطلق، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم خرج من بين أظهرهم مهاجـرًا وزوجتَه وابنَ أخيه لوطًا إلى الديار الشامية، وفي أثناء مدة إقامته بالشام ذهب إلى مصر بزوجته سارة، وكانت أحسن امرأة على الإطلاق، فلما رآها ملك مصر ـ وكان جبارًا عنيدًا ـ لم يملك نفسه حتى أرادها على نفسها، فدعت الله عليه، فكاد أن يموت، ثم أُطْلِق، ثم عاد ثانية، وكلما أرادها دعت عليه فصُرِع، ثم دعت له فأُطْلِق، فكفاهما الله شَرَّه[1]، ووهب لها هاجر جارية قبطية، وكانت سارة عاقرًا منذ كانت شابة، فوهبت هذه الجارية لإبراهيم ليتسرَّرها[2] لعل الله يرزقه منها ولدًا، فأتت هاجر بإسماعيل على كِبَرِ إبراهيم، ففرح به فرحًا شديدًا، ولكن سارة رضي الله عنها أدركتها الغيرة، فحلفت أن لا يساكنها بها، وذلك لما يريده الله، وهذا من جملة الأسباب لذهابه بها إلى موضع البيت الحرام، وإلا فهو متقرِّر عنده ذلك عليه السلام.

فذهب بها وبابنها إسماعيل إلى مكة، وهي في ذلك الوقت ليس فيها سكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره، وزوَّدهما بسقاء فيه ماء، وجِراب فيه تمر، ووضعهما عند دَوْحة[3] قريبة من محل بئر زمزم، ثم قفَّى[4] عنهما، فلما كان في الثَّنِيَّة[5] بحيث يُشْرِف عليهما دعا الله تعالى فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] إلى آخر الدعاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

(٢) تَسَرَّر الجارية وتَسَرَّاها: اتَّخذها سُرِّيَّة.

(٣) أي: شجرة عظيمة.

(٤) أي: ذهب مُوَلِّيًا.

(٥) الثنية: كلُّ منفرج بين جبلَين.

ثم استسـلمت لأمر الله، وجعلت تأكل من ذلك التمر، وتشرب من ذلك الماء حتى نَفِدَا، فعطشت ثم عطش ولدها، فجعل يتلوَّى من العطش، ثم ذهبت في تلك الحال لعلها ترى أحدًا، أو تجـد مُغِيثًا، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا، وتطلَّعت فلم تَرَ أحدًا، ثم ذهبت إلى المـروة فصعدت عليه فتطلَّعت، فلم تَرَ أحدًا، ثم جعلت تتردَّد في ذلك الموضع وهي مكروبة مضطرة مستغيثة بالله لها ولابنها، وهي تمشـي وتلتفت إليه خشـيةَ السـباع عليه، فإذا هبطت الوادي سعت حتى تصعد من جانبه الآخر؛ لئلا يخفى على بصرها ابنُها.

والفرج مع الكرب، والعُسْـر يتبعه اليُسْـر، فلما تمت سبع مرات تسمَّعت حِسَّ الملَك، فبحث في الموضـع الذي فيه زمزم فنبع الماء، فاشـتد فرح أم إسـماعيل به، فشـربت منه وأرضعت ولدها، وحمدت الله علـى هذه النعمة الكبرى، وحَوَّطَت على الماء لئلا يسيح، قال النبي ﷺ: «رحم الله أم إسماعيل، لو تركت ماء زمزم ـ أي لم تُحَوِّطْه ـ لكانت زمزم عينًا مَعِينًا»[1]، ثم عثرت بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جُرْهُم، فنزلوا عندها وتمت عليها النعمة.

وشبَّ إسماعيل شابًّا حسنًا، وأعجب القبيلة بأخلاقه وعُلُوِّ هِمَّته وكماله، فلما بلغ تزوَّج منهم امرأة، ففي أثناء هذه المدة ماتت أمه رضي الله عنها، وجاء إبراهيم بغَيْبة إسماعيل يتصيَّد، فدخل على امرأته فسـألها عن زوجها وعن عيشهم، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيَّد، وأن عيشـهم عيش الشدة، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السـلام، وقولي له يُغَيِّر عتبـة بابه، ورجع من فوره لحكمة أرادها الله، فلما جاء إسـماعيل كأنه آنَسَ شيئًا، فسأل امرأته، فأخبرته أنه جاءهم شـيخ بهذا الوصف، وأنه سـأل عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرتُه أننا في شدة، وأنه يقرأ عليك السـلام، ويقول لك: غَيِّرْ عتبة بابك، فقال: ذاك أبي، وأنتِ العتبة، الحَقِي بأهلك. ثم تزوَّج إسماعيل غيرها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٨).

ثم جاء إبراهيم مرة أخرى وإسماعيل أيضًا في الصيد، فدخل على امرأته، فسألها عن إسماعيل فأخبرته، وسألها عن عيشهم فأخبرته أنهم في نعمة وخير، وكانت امرأة طيبة شاكرة لله وشاكرة لزوجها، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأَقْرِئي عليه السلام، وقولي له يُثَبِّتْ عتبة بابه، ثم رجع أيضًا من فَوْرِهِ قبل مواجهة إسماعيل لحكمة أرادها الله تعالى، فلما رجع إسماعيل من صيده قال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: جاءنا شيخ بهذا الوصف، فقال: هل قال لكم من شيء؟ فقالت: سألنا عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرته أنَّا في نعمة، وأثنيت على الله، فقال: فما قال؟ قالت: هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تُثَبِّت عتبة بابك، فقال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أُمْسِكَك.

ثم عاد إبراهيم المرة الثالثة فوجد إسماعيل يَبْرِي نَبْلًا عند زمزم، فلما رآه قام إليه فصَنَعَا كما يصنع الوالد الشفيق والولد الشفيق، فقال: يا إسماعيل، إن الله أمرني أن أبني هنا بيتًا يكون معبدًا للخلق إلى يوم القيامة، قال: سأعينك على ذلك، فجعلَا يرفعان القواعد من البيت[1]؛ إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

فلما تَمَّ بنيانه، وتَمَّ للخليل هذا الأثر الجليل؛ أمره الله أن يدعو الناس، ويُؤَذِّن فيهم بحَجِّ هذا البيت، فجعل يدعو الناس وهم يَفِدُون إلى هذا البيت من كل فَجٍّ عميق؛ ليشهدوا منافع دنياهم وأُخراهم، ويسعدوا، ويزول عنهم شقاؤهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

وفي هذه الأثنـاء حين تمكَّن حُبُّ إسـماعيل من قلبـه، وأراد الله أن يمتحن إبراهيم لتقديم محبة ربه وخُلَّتِه التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة، فأمره في المنـام أن يذبح إسـماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي مـن الله، فقال لإسـماعيل: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ [الصافـات: ١٠٢ ـ ١٠٣]، أي: خضعَا لأمر الله، وانقادَا لأمره، ووطَّنَا أنفسـهما علـى هذا الأمر المزعج الذي لا تكاد النفوس تصبر على عُشْر مِعْشَاره، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، نزل الفَرَج من الرحمٰن الرحيـم، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥]، فحصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشـاقة المزعجة، وحصلت المقدمات والجزم المصمِّم، وتمَّ لهما الأجر والثواب، وحصل لهما الشـرف والقرب والزلفى من الله، وما ذلك من ألطاف الرب بعزيز، قـال تعالـى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٥ ـ ١٠٧]، وأي ذِبْحٍ أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التي لا يُشْـبِهها عبادة، وصار سُـنَّة في عقبه إلى يوم القيامة يُتقرَّب به إلى الله، ويدرك به ثوابه ورضاه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١٠٩].

ثم إن الله أتم النعمة على إبراهيم، ورَحِم زوجته سارة على الكِبَر والعُقْم واليأس بالبشـارة بالابن الجليل، وهو إسـحاق، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾، فحين أرسل الله لوطًا إلى قومه، وتمرَّدوا عليه وحتَّم الله عقوبتهم، وكان لوط تلميذًا لإبراهيم، ولإبراهيم عليه حقوق كثيرة، فمرَّت الملائكة الذين أُرْسِلُوا لإهلاك قوم لوط بإبراهيم بصورة آدميين، فلما دخلوا عليه وسلموا ردَّ عليهم السلام، وبادَرهم بالضيافة، وكان الله قد أعطاه الرزق الواسع، والكرم العظيم، وكان بيته مأوى للأضياف، فبالحال راغَ إلى أهله بسرعة وخُفْية منهم، فجاء

بعِجْل سمين محنوذ؛ مشوي على الرَّضْف[1] فقرَّبه إليهم، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]، ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]؛ إذ ظن أنهم لصوص: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وكانت سارة قائمة في خدمتهم، وبشَّره بغلام عليم، فصرخت سارة وصكَّت وجهها متعجبة ومستبشرة ومتردِّدة ومتحيِّرة، وقالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقبل ذلك كنت عقيمًا، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فبَشَّرَاهما بإسحاق، وأنه يعيش ويُولَد له يعقوب ويدركانه، ولهذا حمد اللهَ إبراهيمُ على تمام نعمته، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

---

(١) الرَّضْف: الحجارة الـمُحْمَاة بالشمس أو بالنار.

فوائد من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

أولًا: ليُعلَم أن جميع ما قصَّه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام فإننا مأمورون به أمـرًا خاصًّا، قال تعالـى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحـج: ٧٨] أي: الزموها. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ [الممتحنة: ٤] الآية، فما هو عليه في التوحيد والأصول والعقائد والأخـلاق وجميع ما قصَّ علينا من نبئه فإن اتِّباعنا إياه من ديننـا؛ ولهذا لما كان هذا أمرًا عامًّا لأحواله كلها اسـتثنى الله حالة من أحوالـه فقـال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنـة: ٤] أي: فلا تقتدوا به في هذه الحال بالاستغفار للمشركين، فإن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

ومنها: أنَّ من الحكمة قصَّ الله على عبـاده نبأ الأخيار والفجّار؛ ليعتبروا بحالهم، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليـل عليه الصلاة والسلام؛ حيث ابتدأ الله قصَّتـه بما يدلُّ على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: أن الله اتخذه خليلًا، والخُلَّة أعلى درجات المحبة، وهذه المرتبة لم تحصل لأحد من الخلق إلا للخليلَين: إبراهيم، ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

ومنها: ما أكرمـه الله به من الكرامـات المتنوعة، جعل فـي ذريته النبوة والكتاب، وأخرج من صُلبه أُمَّتَيْن هما أفضل الأمم: العرب وبنو إسـرائيل، واختاره الله لبناء بيته الذي هو أشرف بيت، وأول بيت وُضِع للناس، ووهب له الأولاد بعد الكِبَر واليأس، وملأ بذِكْره ما بين الخافِقَين[1]، وامتلأت قلوب الخلق من محبته، وألسنتُهم من الثناء عليه.

---

(١) الخافقان: هُمَا طَرَفَا السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. وَقِيلَ: المَغْرب وَالْمَشْرِقُ.

ومنها: أن الله رفعه بالعلم واليقين وقوة الحُجَج، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ومِن شوقه إلى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سأل ربه: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومنها: أن مَن عَزَمَ على فِعْل الطاعات، وبذل مقدوره في أسبابها، ثم حصل مانع يمنع من إكمالها، أن أَجْره قد وجب على الله، كما قال الله ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن يصل إلى مُهَاجَره(١)، وكما ذكره الله في قصة الذبح، وأن الله أَتَمَّ الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلمَا لله وأَذْعَنا لأمره، ثم رفع عنهما المشقة، وأوجب لهما الأجر الدنيوي والأخروي.

ومنها: ما في قَصصه من آداب المناظرة: طُرقها ومسالكها النافعة، وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التي يعترف بها أهل العقول، وإلجاؤه الخصمَ الأَلَدَّ إلى الاعتراف ببطلان مذهبه، وإقامة الحجة على المعاندين، وإرشاد المسترشدين.

ومنها: أن مِن نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين، وأن عليه في ذلك أن يحمد الله، ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل عليه السلام في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] إلى آخر الدعاء.

وقال جلَّ ذِكْره في الثناء عمومًا على من يدعو الله بصلاح ذريته: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]،

---

(١) المُهاجَر: هو المكان الذي يُهاجَر إليه.

«فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له»(١).

ومنها: أن المشـاعر ومواضع الأنسـاك من جملة الحِكَم فيهـا أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم، وإيمانٌ بالله ورسـله، وحثٌّ على الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدينية، وكلُ أحوال الرسـل دينيةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

ومنها: الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس، ومن جميع المعاصي القولية والفعلية؛ تعظيمًـا لله، وإعانةً وتنشـيطًا للمتعبدين فيـه، ومثله بقية المسـاجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

ومنها: أن أفضل الوصايا على الإطلاق ما وصَّى به إبراهيم بنيه ويعقوب؛ وهو الوصية بملازمة القيام بالدين، وتقوى الله، والاجتماع على ذلك، وهي وصيته تعالى للأولين والآخرين، إذ بها السعادة الأبدية، والسلامة من شرور الدنيا والآخرة.

ومنها: أن العامل كما عليه أن يُتْقِن عمله، ويجتهد في إيقاعه على أكمل الوجوه، فعليه مع ذلك أن يكون بين الخـوف والرجاء، وأن يتضرع إلى ربه في قبوله وتكميـل نقصه، والعفو عما وقع فيه من خلـل أو نقص، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل.

ومنها: أن الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله، وكذلك السـعي في تحصيلهما الدينَ هو الأصل، والمقصـود الذي خُلِق له الخَلْـق، والدنيا وسـيلة ومعونة عليه، لدعـاء الخليل لأهـل البيت الحرام

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

بالأمرين، وتعليله الدعاء بالأمور الدنيوية أنه وسيلة إلى الشكر، فقال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ومنها: ما اشتملت عليه قصة إبراهيم من مشروعية الضيافة وآدابها، وأنَّها من سُنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمدًا ﷺ وأمته أن يتَّبعوا ملَّته، فإن الله أخبر عن ضيفه أنهم مُكْرَمون؛ يعني: أنهم كرماء على الله، وأيضًا إبراهيم أكرمهم بضيافته قولًا وفعلًا، فإكرام الضيف من الإيمان، وأنه خدمهم بنفسه، وبادَر بضيافتهم قبل كل شيء، وأتى بأطيب ماله: عِجْل حَنِيذ سمين، وقرَّبه إليهم، ولم يُحْوِجهم إلى الذهاب إلى عمل آخر، وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧].

ومنها: أنَّ إبراهيم عليه السلام قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف؛ لأنَّهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنَّما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام، فردَّ عليهم إبراهيم سلامًا أكمل من سلامهم وأتمَّ؛ لأنَّه أتى به جملةً اسميَّة دالَّة على الثُّبوت والاستقرار.

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البرِّ عاجله، ولهذا بادَرَ إبراهيم بإحضار قِرى[1] أضيافه.

ومنها: أنَّ الذَّبيحة الحاضرة التي قد أُعِدَّت لغير الضيف الحاضر إذا جُعِلت له ليس فيها أقل إهانةٍ، بل ذلك من الإكرام؛ كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أنَّ ضيفه مكرمون.

ومنها: الترغيب في أن يكون أهل الإنسان ومَن يتولى شؤون بيته حازمين مستعدِّين لكل ما يراد منهم من الشؤون والقيام بمهمات البيت، فإن إبراهيم في الحال بادَرَ إلى أهله فوجد طعام ضيوفه حاضرًا، لا يُحْوج إلا إلى تقديمه.

---

(١) القِرَى: الطعام الذي يُقَدَّم للأضياف.



ومنها: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا لديه وفي بيته مُعَدًّا، لا يحتاج إلى أن يأتي به من السوق أو الجيران، أو غير ذلك.

ومنها: أنَّه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجْعله في موضع ويقولُ لهم: «تفضَّلوا، أو ائتوا إليه»؛ لأنَّ هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حُسن ملاطفة الضيف في الكلام الليِّن، خصوصًا عند تقديم الطعام إليه؛ فإنَّ إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، ولم يقل: ﴿كلوا﴾! ونحوه من الألفاظ التي غيرُها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال؛ كقوله لأضيافه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أو: «ألا تتفضَّلون علينا وتُشرِّفوننا وتُحسنون إلينا...»، ونحو ذلك.

ومنها: مشروعية السلام، وأن المبتدئ فيه هو الداخل وهو الماشي، وأنه يجب رَدُّه، ومشروعية الوقوف على اسم مَن يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف؛ لقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، أي: لا أعرفكم فأُحِبُّ أن تُعرِّفوني بأنفسكم، وهذا ألطف من قوله: أنكرتكم، ونحوه.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام؛ حيث قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ولم يقل: «أنكرتكم»، وبين اللفظَين من الفرق ما لا يخفى.

ومنها: أنَّ مَن خاف من أحدٍ لسبب من الأسباب؛ فإنَّ عليه أن يُزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمِّن رَوْعَه[1]، ويسكِّن جأشه؛ كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ وأخبروه بتلك البشارة السارَّة بعد الخوف منهم.

---

(١) الرَّوْع: الفَزَع.

ومنها: أن إتيان الولد والبشارة به من سارة وهي عجوز عقيم؛ يُعَدُّ معجزة لإبراهيم، وكرامة لسارة، ففيه معجزة نبي وكرامة وَلِيٍّ، ونظيره بشارة الملائكة لمريم بعيسى، وبشـارتهم بيحيى لزكريا وزوجته، وكون زكريا جعل اللهُ آية وجود المبشَّر به أن لا يُكلِّم الناس ثلاثة أيام، وهو سَوِيٌّ لا آفة فيه إلا بالرمز والإشارة، وكل هذا وما أشبهه من آيات الله، وأعجب من هذا إيجاده آدم من تراب، فسبحان من هو على كل شيء قدير.

ومنها: شدَّة فرح سـارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صكِّ وجهها، وصَرَّتِها[1] غير المعهودة.

ومنها: ثناء الله على إبراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم، وقد قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، والجامـع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملآن من الخير والبر والكرم، سليم من الشُّبُهات القادحة في العلم واليقين، ومن الشـهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكِبْر ومن الرياء، والشقاق والنفاق، وسوء الأخلاق، وسليم من الغِـلِّ والحقد، مـلآن بالتوحيد والإيمـان، والتواضع للحـق وللخلق، والنصيحة للمسلمين، والرغبة في عبودية الله، وفي نفع عباد الله.

ومنها: ما ذكره في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافـات: ١٠٩]، يتبعها بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافـات: ١٠٥]، فوعـد الباري أن كل مُحْسِـن في عبادته مُحْسِـن إلى عباده؛ أن الله يجزيه الثناء الحسن، والدعاء من العالمين بحسب إحسانه، وهذا ثواب عاجل وآجل، وهو من البشرى في الحياة الدنيا، ومن علامات السعادة.

---

(١) أي: صيحتها.

قصة لوط عليه السلام



قصة لوط عليه السلام تبعٌ لقصة إبراهيم؛ لأنه تلميذه، وقد تعلَّم من إبراهيم، وكان له بمنزلة الابن، فنبَّأه الله بحياة الخليل، وأرسله إلى قرى سَدُوم من غَوْر[1] فلسطين، وكانوا مع شركهم بالله يَلُوطون بالذكور، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنعاء، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وحذَّرهم من هذه الفاحشة، فلم يزدادوا إلا عُتُوًّا وتماديًا فيما هم فيه، ولما أراد الله هلاكهم أرسل الملائكة لذلك، فمَرُّوا بطريقهم على إبراهيم وأخبروه بذلك، فجعل إبراهيم يجادل في إهلاكهم ـ وكان رحيمًا حليمًا ـ وقال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، فقيل: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]، ولما ذهب الملائكة إلى لوط بصورة أضياف آدميين شباب ساء لوطًا ذلك، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]؛ لعلمه بما عليه قومه من هذه الجراءة الشنيعة، ووقع ما خاف منه، فجاءه قومه يهرعون إليه يريدون فِعْل الفاحشة بأضياف لوط، فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]؛ لعلمه أنه لا حق لهم فيهن، كما عرض سليمان للمرأتين حين اختصمتا في الولد، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك، وهذا مثله، ولهذا

---

(١) الغَوْر: المُنْهَبِطُ من الأرض.

قال قومـه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، وأيضًا يريد بعض العـذر من أضيافه، وعلى هذا التأويـل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسـرين: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: ٧٨] يعني: زوجاتهم، يعني: لأن النبي أبٌ لأمته، فإن هذا يمنعه أمران:

أحدهما: قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: ٧٨] يشير إليهن إشارةَ الحاضر.

ثانيًا: هذا الإطلاق على زوجاتهم لا نظير له، وأيضًا النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به، لا للكفار، والمحذور الذي توهَّموه يزول بما ذكرنا، وأنه يعلم أنه لا حق لهم فيهن، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق.

فاشتد الأمر بلوط وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي: لدافعتكم، فلما رآهم جازمين علـى مرادهم الخبيث قال لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هـود: ٧٨] فاسْـتَلَجُّوا فـي طغيانهم وسُـكْرهم، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمٰن بأمرهم، وأنهم أُرْسِـلوا لإهلاكهم، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط، فطمس بهذه الصدمة أعينهم[1]، فكان هذا عذابًا معجَّلاً وأنموذجًا لمن باشَـرُوا مُراوَدة لوط على أضيافـه، وأمروا لوطًا أن يَسْـرِي بأول الليل بأهله، ويُلِحُّ في السير حتى يُخَلِّف ديارهم، وينجو من مَعَرَّة العذاب، فخرج بهم، فما أصبح الصباح حتى خلَّفوا ديارهم، وقلب الله عليهم ديارهم، فجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يعملون عملهم ﴿بِبَعِيدٍ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكـم (٤٠٨١)، واللفظ عنـده: «وَلَمَّا قَالَ لُـوطٌ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، بَسَـطَ حِينَئِذٍ جِبْرِيلُ جَنَاحَيْهِ فَفَقَأَ أَعْيُنَهُمْ، وَخَرَجُوا يَدُوسُ بَعْضُهُمْ فِي آثَارِ بَعْضٍ عُمْيَانًا، يَقُولُونَ: النَّجَا النَّجَا، فَإِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ أَسْحَرَ قَوْمٍ فِي الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَلَى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾».

فوائد من هذه القصة

وفي هذه القصة: أكبرُ دليلٍ على أن فاحشة اللِّواط من أشنع القبائح، وأنها توجب العقاب الشـديد، وأن من ابتُلِي بهذه الفاحشـة فمـع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح، فاستحسن ما كان قبيحًا، ونفر من الطَّيِّب، وذلك دليل على انحراف الأخلاق.

وفيها وفي قصة إبراهيم جوازُ التعريض؛ أما قصة إبراهيم ففي قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافـات: ٨٨ ـ ٨٩]، وأما لوط ففي قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هـود: ٧٨]، والتعريـض يكـون في الأقـوال، ويكون في الأفعال، وهو أن يقصد المتكلم أو العامـل لعمل أمرًا من الأمور التي لا بأس بها، ويُوهِم السامع والرائي أمرًا آخر؛ ليستجلب منفعة، أو يدفع مضرَّة.

ومنها: أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدَّد في أقواله وأفعاله، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين، ويُفَرِّج الكرب عن المكروبين، ويأمر بالخير، وينهى عن الشر، هذا هو الرشـيد حقيقة، فلهذا قال لوط: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]؟ أي: فيأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويدفع أهل الشر والبغي.

ومنها: أنَّ الله تعالــى إذا أراد أن يُهْلِك قرية ازداد شـرُّهم وطغيانهم، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقُّونه.

ومنها: الحثُّ على السـعي في الأعوان على أمور الخير ودفع الشر، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشـر، فإن الله يؤيد الديـن بالرجل الفاجر وبأقوام لا خَلَاق[1] لهم عند الله، ولهذا قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

---

(١) أي: حظ ونصيب.

وأكثر الأنبياء يبعثهم الله في أشراف قومهم، ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل، والتمكُّن من الدعوة ما لا يحصل لو لم يكن كذلك، واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وكذلك نبينا محمد ﷺ بُعِث في أشرف بيت في قريش وأعزه، وقد رماه قومه بالعداوة البليغة، وعقدوا المجالس المتعدِّدة في إبطال قوله ودينه، بل وفي كيفية الفتك به، ومن الأسباب التي أوقفتهم عند حَدِّهم خَوْفُهم من قبيلته، وانظر إلى حالته في تضييقهم عليه بالشِّعْب، وانحياز قبيلته معهم ـ مسلمهم وكافرهم ـ ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيم؛ إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرَّق دمه في القبائل[1]، فيعجز قومه عن الأخذ بثأره، ولكنهم يمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين.



(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٦٨).



قصة يوسف عليه السلام



﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۞ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٤ ـ ٦]

اعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسـوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسـطها، وذكر ما جرى فيها، فعُلِم بذلك أنها قصة تامَّة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يُذْكَر في الإسرائيليات التي لا يُعْرَف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب، فهو مسـتدرك على الله، ومُكَمِّل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحًا، فإن تضاعيف هذه السـورة قد ملئت في كثير من التفاسـير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قَصَّه الله تعالى بشيء كثير؛ فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قَصَّه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ يُنْقَل.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾، فكانت هذه الرؤيا مقدِّمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع

في الدنيا والآخرة، وهكــذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظــام قدَّم بين يدَيه مقدِّمة، توطئة له، وتسهيلًا لأمره، واســتعدادًا لما يَرِد على العبد من المشاقِّ، لطفًا بعبده، وإحســانًا إليه، فأوَّلها يعقوب بأن الشــمس: أمــه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويســجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدَّمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمــام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تَبَعًا له فيها، ولهذا قــال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أي: يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ في الدنيــا والآخرة، بأن يُؤتيــك في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، حيث أنعم الله عليهما بنِعَم عظيمة واسعة دينية ودنيوية، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عِلْمُه محيطٌ بالأشــياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلًّا ما تقتضيه حكمته وحمده؛ فإنه حكيمٌ يضع الأشياء مواضعها، ويُنزلها منازلها.

ولما بَانَ تعبيرها ليوســف قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾، أي: حسدًا من عند أنفسهم؛ بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ لا يَفْتُر عنه ليلًا ولا نهارًا، ولا سِرًّا ولا جهارًا؛ فالبُعد عن الأســباب التي يتســلَّط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمْرَ أبيه، ولم يُخْبِر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۞ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٧ ـ ٩].



يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ﴾ أي: عِبَر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لكل مَن سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعِبَر، وأما المُعْرِضون فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص والبينات، ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين؛ أي: شقيقه، وإلا فكُلُّهم إخوة، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف يفضِّلهما علينا بالمحبة والشفقة؟ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفي خطأٍ بَيِّن، حيث فضَّلهما علينا من غير مُوجِب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: غَيِّبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكَّن من رؤيته فيها؛ فإنكم إذا فعلتم أحد هذَين الأمرَين ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يتفرَّغ لكم، ويُقْبِل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلًا لا يتفرَّغ لكم، ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد هذا الصنيع ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرونه من بعد ذنبكم، فقدَّموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم؛ تسهيلًا لفعله، وإزالةً لشناعته، وتنشيطًا من بعضهم لبعض.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

أي: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾: من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، فإنَّ قَتْلَه أعظمُ إثمًا وأشنعُ، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصَّلوا إلى تبعيده بأن تُلْقُوه ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، وتتوعَّدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك آبِقٌ منكم، لأجل أن ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ الذين يريدون مكانًا بعيدًا، فيحتفظون به، وهذا القائل أحسنهم رأيًا في يوسف، وأبرُّهم وأتقاهم في هذه القضية؛ فإن بعض الشرِّ أهونُ من بعض، والضرر الخفيف يُدفَع به الضرر الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأي:

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤].

أي: قال إخوة يوسف متوصِّلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾، أي: لأيِّ شيءٍ يدخلك الخوف منَّا على يوسف من غير سبب ولا موجب، والحال إنَّا ﴿لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾، أي: مشفقون عليه، نَوَدُّ له ما نودُّ لأنفسنا، **وهذا يدل** على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبريَّة ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التُّهمة المانعة من عدم إرساله معهم ذكروا له من مصلحة يوسف وأُنْسِه الذي يحبُّه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ ﴾ أي: يتنزَّه في البريَّة ويستأنس، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده، فأجابهم بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: مجرَّد ذهابكم به يحزنني ويشقُّ عليَّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه ولو مدة يسيرة؛ فهذا مانِعٌ من إرساله، ومانعٌ ثانٍ وهو ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغيرٌ لا يمتنع من الذئب، ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ ﴾ أي: جماعة حريصون على حفظه؛ ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ أي: لا خير فينا ولا نفع يُرْجَى منَّا إن أكله الذئب وغلبنا عليه، فلما مهَّدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع؛ سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أُنْسه.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ

وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٦ ـ ١٨].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غَيَابة الجبِّ[1]، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفَّذُوا فيه قدرتهم، وألْقَوْه في الجبِّ، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحَرِجة: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبارٌ عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر. ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العزِّ والتمكين له في الأرض، ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ ليكون إتيانهم متأخِّرًا عن عادتهم، وبكاؤهم دليلًا لهم، وقرينة على صدقهم، فقالوا متعذِّرين بعذرٍ كاذب: ﴿ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ توفيرًا له وراحة، ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ في حال غيبتنا عنه واستباقنا، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا؛ لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقة الشديدة عليه، ولكن عدم تصديقك إيَّانا لا يمنعُنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي، وكلُّ هذا تأكيد لعذرهم، ومما أكَّدوا به قولهم أنهم ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ زعموا أنَّه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدِّقهم أبوهم بذلك، و﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي: زَيَّنَت لكم أنفسكم أمرًا قبيحًا في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصَّها عليه ما دلَّه على ما قال. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي:

---

(١) الغيابة: كل ما غُيِّب عنك، والجُبُّ: البئر.

أمَّا أنا فوظيفتي ســأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبرًا جميلًا سالِمًا من السخط والتَّشكِّي إلى الخَلْق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر، وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الشـكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل؛ لأنَّ النبيَّ إذا وعد وفى.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٢٠].

أي: مكث يوســف في الجُبِّ ما مكث، حتى جاءت ﴿سَيَّارَةٞ﴾ أي: قافلة تريد مصــر، ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ أي: فَرَطهم ومُقَدَّمهم الــذي يَعُسُّ لهم المياه، ويَسْــبِرها، ويســتعد لهم بتهيئة الحياض، ونحو ذلك، ﴿فَأَدۡلَىٰ﴾ ذلك الوارد ﴿دَلۡوَهُۥ﴾ فتعلَّق فيه يوسف عليه السلام وخرج، ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ أي: استبشر، وقال: هذا غــلامٌ نفيــسٌ، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ﴾، وكان إخوته قريبًا منه، فاشــتراه الســيارةُ منهم، ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ أي: قليل جدًّا، فسَّره بقوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنــه لم يكن لهم قصــدٌ إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولــم يكن لهم قصدٌ في أخْــذ ثمنه، والمعنى في هذا: أنَّ الســيارة لما وجدوه عزموا أن يُسِرُّوا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعمــوا أنَّه عبــدٌ أبَق منهم، فاشــتروه منهم بذلــك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

أي: لما ذهب به السيارةُ إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيزُ مصر، فلما اشتراه أعجب به، ووصّى به امرأته، وقال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعلَّ ذلك أنه لم يكن لهما ولدٌ، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما يسَّرنا له أن يشتريه عزيز مصر، ويُكرِمه هذا الإكرام؛ جعلنا هذا مقدِّمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إذا بقي لا شغل له ولا همَّ له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلُّمه علمًا كثيرًا من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: أمره تعالى نافذٌ لا يبطله مبطلٌ، ولا يغلبه مغالبٌ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلذلك يجري منهم، ويصدُرُ ما يصدُرُ في مغالبة أحكام الله القدريَّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، أي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: جعلناه نبيًّا رسولًا وعالِمًا ربانيًّا، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علمًا نافعًا. ودلَّ هذا على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۞ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۞ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٩].

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصَبْرُه عليها أعظمُ أجرًا؛ لأنه صبرُ اختيارٍ مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدَّم محبَّة الله عليها، وأما محنته بإخوته فصَبْرُه صبرُ اضطرار؛ بمنزلة الأمراض والمكاره التي تُصيب العبد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعًا أو كارهًا، وذلك أنَّ يوسف ﷺ بقي مكرَّمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك أن راودته ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحدٍ، ولا إحساس بشرٍ، وزادت المصيبة بأن ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وصار المحلُّ خاليًا، وهما آمنان من دخول أحدٍ عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: افعل الأمر المكروه وأَقْبِلْ إليَّ! ومع هذا فهو غريبٌ لا يحتشم مثلُه ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسيرٌ تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شابٌّ عزبٌ، وقد توعَّدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم، فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القويِّ فيه؛ لأنه قد همَّ فيها هَمًّا تركه لله، وقدَّم مراد الله على مراد النفس الأمَّارة بالسوء، ورأى من برهان ربه ـ وهو ما معه من العلم والإيمان الموجِب لترك كلِّ ما حرَّم الله ـ ما أوجب له البُعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يُسخِط الله ويُبعِد منه، ولأنه خيانةٌ في حقِّ سيِّدي

الذي أكرم مثواي؛ فلا يَلِيق بي أن أقابله في أهلــه بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يُفْلِح.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حقِّ سيِّده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظُّلم الذي لا يُفْلِح من تعاطاه، وكذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كلِّه أنَّ الله صرف عنه السـوء والفحشـاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلَصهـم الله واختارهم واختصَّهم لنفسه، وأَسْـدى عليهم من النِّعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خَلْقه.

ولما امتنـع من إجابة طلبها بعد المراودة الشـديدة ذهـب ليهرب عنها ويبادِر إلـى الخروج من البـاب ليتخلَّص ويهرب من الفتنـة، فبادرت إليه، وتعلَّقت بثوبه، فشـقَّت قميصه، فلمَّا وصلَا إلى الباب في تلك الحال أَلْفَيَا[١] سيِّدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمرًا شـقَّ عليه، فبادرتْ إلى الكذب، وأن المراودة قد كانت من يوسـف، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ولم تقلْ: "من فعل بأهلك سوءًا"؛ تبرئةً لها، وتبرئة له أيضًا من الفعل، وإنما النِّزاع عند الإرادة والمراودة، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أو يعذَّب عذابًا أليمًا. فبرَّأ نفســه مما رَمَتْه به، وقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ فحينئذ احتملت الحال صِدْقَ كلٍّ واحد منهما، ولم يعلـم أيهما، ولكنَّ الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدلُّ عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمنَّ الله تعالى في هــذه القضيــة بمعرفة الصــادق منهمــا، تبرئةً لنبيِّــه وصفيِّه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشــهد بقرينة من وُجِدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ لأن

---

(١) أي: وَجَدَا.

ذلك يدلُّ على أنه هو المقبِـل عليها المراودُ لها المعالِـج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشـقَّت قميصه مـن هذا الجانـب. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنَّ ذلك يـدلُّ على هروبه منهـا؛ وأنها هي التي طلبتْه، فشـقَّت قميصه من هذا الجانب، ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف بذلك صِدْق يوسـف وبراءته، وأنَّها هي الكاذبة، فقال لها سـيدها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وهل أعظم من هذا الكيد الذي برَّأت به نفسـها ممَّا أرادتْ وفعلتْ، ورَمَتْ به نبيَّ الله يوسـف عليه السلام، ثم إنَّ سيدها لما تحقَّق الأمرَ قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: اترك الكلام فيه وتناسَهُ ولا تذكره لأحدٍ؛ طلبًا للسـتر على أهله، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ أيتها المرأة ﴿لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾، فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣٥].

يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدَّث به النسوة، فجعلن يَلُمْنَها، ويقُلْن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: هذا أمرٌ مُسْتَقْبَحٌ! هي امرأةٌ كبيرةُ القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تَزَلْ تراوِدُ فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسـه، ومع هذا فإنَّ حبَّه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًـا. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصـل حبُّه إلى شـغاف قلبهـا، وهو باطنه

وسُــوَيْدَاؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حيث وُجِدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منهــا، وهي حالة تحطُّ قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهنَّ مَكْرًا، ليــس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنَّما أردْن أن يتوصَّلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فُتِنَتْ به امرأة العزيز لتَحنَق امرأةُ العزيز وتريهنَّ إياه ليَعْذِرْنَها، ولهذا ســمَّاه مكرًا، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ تدعوهنَّ إلى منزلها للضيافة، ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ أي: محــلًّا مُهَيَّأً بأنواع الفرش والوســائد، ومــا يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت بــه وأحضرته في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى ســكين، إمَّا أُترُجٌّ، أو غيره، ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام، ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ في حالة جماله وبهائه.

﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي: أَعْظَمْنَــه في صدورهــنَّ، ورأَيْنَ منظــرًا فائقًا لم يشاهِدن مثله، ﴿وَقَطَّعۡنَ﴾ من الدَّهش ﴿أَيۡدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: تنزيهًــا لله، ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾، وذلك أن يوسف أُعْطِي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آيةً للناظرين، وعبرةً للمتأملين.

فلما تقرَّر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية الإعجاب، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيءٌ كثيرٌ؛ أرادت أن تُرِيَهُنَّ جماله الباطن بالعفة التامة، فقالت معلنة لذلك ومُبَيِّنة لحبه الشــديد غير مبالية، ولأن اللَّوم انقطع عنها من النسوة: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ أي: امتنع، وهي مقيمة على مراودته، لم يَزِدها مرور الأوقات إلا قلقًا ومحبةً وشوقًا لوصاله وتوقًا، ولهذا قالــت لــه بحضرتهــنَّ: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واســتعان به على كيدهِنَّ، و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾، وهذا

يدلُّ على أن النسوة جعلن يُشِرْن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكِدْنه في ذلك، فاستحبَّ السجن والعذاب الدنيويَّ على لذَّةٍ حاضرة توجب العذاب الشديد، ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أي: أَمِل إليهنَّ؛ فإني ضعيفٌ عاجز إن لم تدفع عنِّي السوء، ﴿وَأَكُن﴾ إن صَبَوْتُ إليهنَّ ﴿مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فإن هذا جهلٌ؛ لأنه آثَرَ لذة قليلة منغَّصة على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومَن آثَرَ هذا على هذا فمَن أجهل منه؟! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذَّتين، ويؤثِرُ ما كان محمودَ العاقبة، ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ حين دعاه، ﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾ فلم تزل تراوِدُه وتستعين عليه بما تقدِر عليه من الوسائل حتى أيَّسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعي، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بنيَّته الصالحة، وبنيَّته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولُطفه، فهذا ما نجَّى الله به يوسف من هذه الفتنة الـمُلِمَّة والمحنة الشديدة، وأما أسيادُه فإنَّه لما اشتهر الخبر وبانَ، وصار الناس فيها بين عاذرٍ ولائم وقادح، ﴿بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر لهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالَّة على براءته، ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس؛ فإنَّ الشيء إذا شاع لم يزلْ يُذْكَر، ويُشاع مع وجود أسبابه، فإذا عُدِمت أسبابه نُسِي، فرأوا أنَّ هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۞ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۞ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۞ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ

وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١].

أي: ولما دخل يوسف السجن كان في جملة مَن دخل ﴿مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي: شابَّان، فرأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا، فقصَّها على يوسف ليعبرها، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾، وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ أي: بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأَحْسِنْ إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسَّلَا ليوسف بإحسانه، فقال لهما مجيبًا لطلبهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ أي: فلتطمئنَّ قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبَّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ولعلَّ يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بَدَتْ حاجتهما إليه؛ ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ التعبير الذي سأعبِّره لكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ أي: هذا من علم الله علَّمَنيه وأحسن إليَّ به، وذلك ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، والتَّرْك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه يكون لمن لم يدخل فيه أصلًا، فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملَّة إبراهيم، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ثم فسَّر تلك الملة بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي: ما ينبغي ولا يَلِيق بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، بل نُفْرِد الله بالتوحيد، ونُخْلِص له الدين والعبادة، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: هذا من أفضل مِنَنِه وإحسانه وفضله علينا، وعلى مَن هداه الله كما هدانا؛

فإنه لا أفضل مِن منَّة الله على العباد بالإسلام والدين القويم؛ فمَن قَبِله وانقاد له فهو حظُّه، وقد حصل له أكبر النِّعَم وأجلُّ الفضائل، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، فلذلك تأتيهم المنَّة والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه، وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى، فإن الفتَيَيْنِ لما تقرَّر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسنٌ معلِّمٌ؛ ذكر لهما أنَّ هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله وإحسانه، حيث مَنَّ عليَّ بترك الشرك وباتباع ملة آبائه، فبهذا وصلتُ إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسْلُكا ما سلكتُ، ثم صرح لهما بالدعوة، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: أَأَرْبابٌ عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرِّقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال، ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء من ذلك، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

ومن المعلوم أن مَن هذا شأنه ووَصْفُه خيرٌ من الآلهة المتفرقة التي هي مجرَّد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها، ولهذا قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: كسوتموها أسماءً، وسمَّيتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم يُنْزِل الله بها سلطانًا لم يكن طريقٌ ولا وسيلةٌ ولا دليلٌ لها؛ لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويُشرِّع الشرائع، ويسنُّ الأحكام، وهو الذي أمركم، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم الموصِل إلى كل خير، وما سواه من الأديان فإنها غير مستقيمة، بل معوجَّة تُوصِل إلى



كل شر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأَبْيَنُها، ولكن لعـدم العلم مـن أكثر النـاس بذلك حصـل منهـم ما حصل من الشـرك، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا صاحِبَيِ السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيُحتمَل أنهما اسـتجابَا وانقادَا، فتمَّت عليهمـا النعمة، ويُحتمل أنَّهمـا لم يزالَا على شركهما، فقامت عليهما بذلك الحجة، ثم إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ شـرع يعبر رؤياهما بعدما وعدهما ذلك، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾، وهو الذي رأى أنه يعصِرُ خمرًا، فإنه يخرج من السجن، ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو: الذي رأى أنَّه يحمل فوق رأسـه خبزًا تأكل الطيـر منه، ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فإنه عبَّر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخِّ، وأنه لا يُقبَر ويُسْـتَر عن الطيور، بل يُصْلَب ويُجْعَـل في محلٍّ تتمكَّن الطيور من أكله، ثم أخبرهمـا بأنَّ هذا التأويل الذي تأوَّلـه لهما أنه لا بدَّ من وقوعه، فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

أي: ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر له شأني وقصَّتي، لعله يَرِقُّ لي، فيُخرجني ممـا أنا فيه، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فأنسـى الشـيطان ذلك الناجي ذِكْرَ الله تعالى، وذِكْرَ ما يُقـرِّب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذِكْر يوسف الذي يستحقُّ أن يُجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتمَّ الله أمره وقضـاءه، ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، والبِضْع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سـبع سـنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج

يوسف من السجن؛ قدَّر لذلك سببًا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدْره، وهو رؤيا الملك.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۞ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۞ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٩].

لما أراد الله تعالى أن يُخرِج يوسف من السجن أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، التي تأويلها يتناول جميع الأمة؛ ليكون تأويلها على يد يوسف، فيُظْهِر من فضله، ويُبيِّن من علمه ما يكون له رفعةً في الدارَين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها؛ لارتباط مصالحها به، وذلك أنه رأى رؤيا هَالَتْه[1]، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾، أي: سبعًا من البقرات ﴿عِجَافٌ﴾، وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوَّتُهن يأكلن السبع السمان التي كنَّ نهايةً في القوة، ورأيتُ سَبْع ﴿سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ يأكلهن سبعُ سنبلاتٍ يابساتٍ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾؛ لأنَّ تعبير الجميع واحدٌ، وتأويلهنَّ شيءٌ واحدٌ، ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فتحيَّروا، ولم يعرفوا لها وجهًا، و﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها

---

(١) أي: أفزعته.

تأويلٌ، وهذا جَزْمٌ منهم بما لا يعلمون، وتعذُّرٌ منهم بما ليس بعُذْر، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيـا، وأمَّا الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنَّا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغـاث[(١)] أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهـم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها! وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحِجَى[(٢)]، وهذا أيضًا من لُطْف الله بيوسـف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداءً قبـل أن يعرِضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها؛ لم يكن لها ذلـك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجـواب، وكان الملك مهتمًّا لها غايةً، فعبَّرها يوسـفُ؛ وقعت عندهم موقعًا عظيمًا.

وهذا نظيرُ إظهار الله فَضْلَ آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سـألهم فلم يعلموا، ثم سـأل آدم، فعلَّمهم أسماء كل شـيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يُظْهِر فضل أفضل خَلْقِـه محمد ﷺ في القيامة أن يُلْهِـم الله الخَلْق أن يتشـفَّعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذِرون عنها، ثم يأتـون محمدًا ﷺ فيقـول: «أنا لهـا، أنا لها»، فيشـفع في جميع الخلق[(٣)]، وينال ذلك المقـام المحمود الذي يَغْبِطه بـه الأولون والآخرون، فسـبحان من خَفِيَت ألطافُه، ودقَّت في إيصاله البِرَّ والإحسـان إلى خواصِّ أصفيائه وأوليائه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من الفتَيَيْـنِ، وهو: الذي رأى أنه يعصِرُ خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسـف أن يذكُره عند ربـه، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وتذكَّر يوسف، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصَّاه به، وعَلِم أنه كفيلٌ بتعبير

---

(١) أي: أخلاط.
(٢) أي: العقول.
(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

هذه الرؤيا بعد مدَّة من السنين، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها، فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنِّفْه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فإنهم متشوِّفون لتعبيرها، وقد أهمَّتْهم، فعبَّر يوسف السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بأنهنَّ سبع سنين مُخْصِبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات بأنهن سنين مُجْدِبات، ولعلَّ وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيًّا عليه، وأنه إذا حصل الخصبُ قويت الزروع والحروث، وحسُن منظرها، وكثُرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تُحرَث عليها الأرض، وتُسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلاتُ هي أعظم الأقوات وأفضلها؛ عبَّرها بذلك؛ لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدُّون به من التدبير في سِنِي الخصب إلى سِنِي الجَدْب، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: متتابعاتٍ، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ من تلك الزروع، ﴿فَذَرُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾؛ لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: دبِّروا أيضًا أَكْلَكُم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلًا؛ ليَكْثُر ما تدَّخرون ويعظُم نفعُه ووقعه، ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: مُجْدِباتٌ جدًّا ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكلن جميع ما ادَّخرتموه ولو كان كثيرًا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهنَّ، ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: فيه تَكْثُر الأمطار والسيول، وتكثُر الغلاتُ، وتزيد على أقواتهم، حتَّى إنهم يعصِرون العنب ونحوه زيادةً على أكلهم، ولعلَّ



استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مُصَرَّح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد أنَّ العام الذي يليها يزول به شدَّتُها، ومن المعلوم أنَّه لا يزول الجدْب المستمرُّ سبع سنين متوالياتٍ إلا بعام مُخْصِبٍ جدًّا، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا؛ عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشدَّ الفرح.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٠ ـ ٥٧].

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ لمن عنده ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يُخرجوه من السجن ويُحضِروه إليه، فلمَّا جاء يوسفَ الرسولُ وأمره بالحضور عند الملك امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتَّى تتبيَّن براءتُه التامَّة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، فقال للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني به: الملك، ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي: اسأله ما شأنهن وقصتهن؛ فإنَّ أمرهن ظاهرٌ متَّضح، ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾، فأحضرهنَّ الملك، وقال: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ أي: شأنكُن ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فهل رأيتُن منه ما يَرِيب؟! فبرَّأنه و﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السببُ الذي تُبنَى عليه التُّهمة، ولم يَبْقَ إلا ما عند امرأة العزيز، فقالت

﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: تمحَّص وتبَيَّن بعدما كنَّا نُدْخِل معه من السوء والتُّهمة ما أوجب السجن ليوسف، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في أقواله وبراءته، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف، ﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يحتمل أن مرادها بذلك زوجها؛ أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف أني لم أخُنْه بالغيب، أي: لم يَجْر منِّي إلا مجرَّد المراودة، ولم أُفسِدْ عليه فراشه، ويُحتمل أنَّ المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا التي راودتُه، وأنه صادقٌ؛ أني لم أَخُنْه في حال غَيْبَته عني، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فإنَّ كلَّ خائن لا بدَّ أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بدَّ أن يَتبيَّن أمره. ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يَجْرِ منها ذنب في شأن يوسف استدركت فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ أي: من المراودة والهمِّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: لَكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب؛ فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ فنجَّاه من نفسه الأمَّارة، حتى صارت نفسه مطمئنةً إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الرَّدى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: هو غفور لمن تجرَّأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿رَّحِيمٞ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصوابُ؛ أنَّ هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف؛ فإنَّ السياق في كلامها ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضُرْ، فلما تحقَّق الملك والناس براءةَ يوسف التامة أرسل إليه الملِك، وقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾ أي: أجعله خصيصة لي ومقرَّبًا لديَّ. فأتوه به مكرَّمًا محترَمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعُه عنده، فقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا﴾ أي: عندنا ﴿مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي: متمكِّن، أمينٌ على الأسرار، فقال يوسف طلبًا للمصلحة العامة:



﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: على خزائن جبايات الأرض وغِلالها، وكيلًا حافظًا مدبرًا، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ أي: حفيظ للذي أتولَّاه فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابطٌ للداخل والخارج، عليمٌ بكيفيَّة التدبير والإعطاء والمنع والتصرُّف في جميع أنواع التصرُّفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبةٌ منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه، فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولَّاه إيَّاها.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: بهذه الأسباب والمقدِّمات المذكورة، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ في عيش رغدٍ، ونعمة واسعةٍ، وجاه عريض، ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدَّرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا، فإن الله لا يُضيعُ أجر المحسنين، ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين، فله في الدُّنيا حسنةٌ وفي الآخرة حسنةٌ، ولهذا قال: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ من أجر الدُّنيا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لِمَن جَمَع بين التقوى والإيمان؛ فبالتَّقوى تُترك الأمور المحرَّمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التامِّ يحصُلُ تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعُهُ أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبَّات.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۞ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۞ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۞ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۞ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۞ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۞ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ

رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۞ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۞ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۞ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٨].

أي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض دبَّرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة زروعًا هائلةً، واتَّخذ لها المحلَّات الكبار، وجبَى من الأطعمة شيئًا كثيرًا وحفظه، وضبطه ضبطًا تامًّا، فلما دخلت السنون المجدِبة، وسرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوبُ بنيه لأجل المِيرَة[١] إلى مصر، ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: لم يعرفوه، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: كَالَ لهم كما كان يَكِيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يَكِيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيهم، وهو بنيامين، فقال لهم: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، ثم رغَّبهم في الإتيان به، فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام، ثم رهَّبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأنَّ ذلك يحملهم على الإتيان به، فقالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾، دلَّ هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولَعًا به لا يصبِر عنه، وكان يتسلَّى به بعد يوسف، فلذلك

---

(١) الميرة. يقال: مارَ أهلَه ويَميرُهم مَيْرًا، وهو مَائِرٌ أهلَه؛ إذا حمل إليهم أقواتَهم من غير بلده.

احتاج إلى مـراودةٍ في بَعْثِه معهـم، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لمـا أمرتنا به، ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ الذين في خدمته: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أي: الثمن الذي اشتروا به من الـمِيرة، ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأجل التحرُّج من أخْذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغِّبهم في إحسـانه إليهم بالكيل لهم كيلًا وافيًا، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يُحِسُّون بها، ولا يشـعرون لما يأتي؛ فإنَّ الإحسان يوجب للإنسـان تمـام الوفـاء للمُحْسِـن، ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي: إن لم تُرْسِـلْ معنا أخانـا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي: ليكون ذلك سببًا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكـره، ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب ﷺ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: قـد تقدَّم منكم التزام، أكثـر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تَفُوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أَثِق بـالله تعالـى، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويردُّه عليَّ، وكأنَّه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم. ثم إنهم لمـا ﴿فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا دليلٌ على أنه قد كان معلومًا عندهم أن يوسف قد ردَّها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملِّكهم إياها، فقالوا لأبيهم ترغيبًا في إرسال أخيهم معهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي: أيُّ شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفَّى لنا الكيل، وردَّ علينا بضاعتنا على هذا الوجه الحسـن، المتضمِّن للإخـلاص ومكارم الأخلاق؟! ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخينا صار سـببًا لكيْله لنا، فمِرْنا أهلنا، وأتينا لهم بما هم مضطـرُّون إليه من القوت، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرسـاله معنا؛ فإنه يكيل لكل واحـد حِمْل بعير، ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سـهل لا ينالك ضررٌ؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد

تبيَّنت. فقال لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهدًا ثقيلًا وتحلفون بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمرٌ لا قِبَل لكم به، ولا تقدرون دفعه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ على ما قال وأراد؛ ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: تكفينا شهادتُه علينا وحفظه وكفالته.

ثم لما أرسله معهم وصَّاهم إذا هم قدموا مصر أن لا يدْخلوا ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لكثرتهم وبهاء مَنْظَرِهم؛ لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب، وإلا فما ﴿أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فالمقدَّر لا بدَّ أن يكون، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بدَّ أن يقع، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيَّتكم به من السبب، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن بالتوكُّل يحصُل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب، ﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و﴿دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ﴾ ذلك الفعل ﴿يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوعُ طمأنينةٍ، وقضاءٍ لما في خاطره، وليس هذا قصورًا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: لَصاحب علم عظيم، ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إيَّاه، لا بحوله وقوَّته أَدْرَكَه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثيرٌ.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۞ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۞ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۞ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا

جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ۞ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ۞ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۞ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۞ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٩ ـ ٧٩].

أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: شقيقه، وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به، وضمَّه إليه، واختصَّه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحـال، و﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فإنَّ العاقبة خيرٌ لنا، ثم أخبـره بما يريد أن يصنع ويتحيَّل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر، ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: كال لكل واحدٍ من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ وهو: الإناء الذي يُشرَب به، ويُكال فيه، ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ﴾ أَوْعَوْا متاعهم[1]، فلما انطلقوا ذاهبين ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾، ولعل هذا المـؤذِّن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوة يوسف، ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ لإبعاد التُّهمة؛ فإنَّ السارق ليس له همٌّ إلا البُعْد والانطلاق عمَّن سـرق منه؛ لتَسْـلَم له سـرقته، وهؤلاء جاؤوا مُقْبِلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رُمُوا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ ولم يقولوا: "ما الذي سرقنا؟"؛ لجزمهم بأنهم بُرآء مـن السـرقة، ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: أجرة له

---

(١) أي: جعلوا متاعهم في أوعيتهم.

على وجدانه، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذِّن المتفقِّد، ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؛ فإنَّ السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنَّهم ليسوا مفسدين ولا سارقين؛ لأنَّهم عرفوا أنهم سَبَرُوا من أحوالهم ما يدلُّهم على عفَّتهم وورعهم، وأنَّ هذا الأمر لا يقع منهم بعلم مَن اتَّهموهم، وهذا أبلغ في نفي التُّهمة من أن لو قالوا: "تالله لم نُفسِد في الأرض ولم نسرقْ"، ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: جزاء هذا الفعل، ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ بأنْ كان معكم؟ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ﴾ أي: الموجود في رَحْله، ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ بأن يتملَّكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم؛ أنَّ السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكًا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿فَبَدَأَ﴾ المفتِّش ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، وذلك لتزول الريبة التي يظنُّ أنها فُعِلَت بالقصد، فلما لم يجِد في أوعيتهم شيئًا ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل: «وجدها»، أو: «سرقها أخوه» مراعاةً للحقيقة الواقعة، فحينئذ تمَّ ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: يسَّرنا له هذا الكَيْد الذي توصَّل به إلى أمرٍ غير مذموم، ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لأنَّه ليس من دينه أن يُتملَّك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو رُدَّت الحكومة إلى دين الملك لم يتمكَّنْ يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنَّه جعل الحكم منهم؛ ليتمَّ له ما أراد، قال تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصِلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، فكل عالم فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ هذا الأخ فليس هذا غريبًا منه، ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يعنون:

يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأنَّ هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسَا شقيقَين لنا، وفي هذا من الغَضِّ عليهما ما فيه، ولهذا أسرَّها ﴿يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كَظَم الغيظ، وأسَرَّ الأمر في نفسه، و﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أشَرَّ منه، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ مِنَّا مِن وَصْفِنا بالسرقة، يعلم الله أنا برآء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملُّق لعله يسمح لهم بأخيهم، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشقُّ عليه فراقه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فأَحْسِنْ إلينا وإلى أبينا بذلك، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: هذا ظلمٌ منا، لو أخذنا البريء بذنب مَن وجدْنا متاعنا عنده، ولم يقلْ: «من سرق»، كلُّ هذا تحرُّز من الكذب، ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إن أخذنا غير مَن وُجِد في رَحْله ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ حيثُ وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۞ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۞ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۞ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

[يوسف: ٨٠ ـ ٨٣].

أي: فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم، ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾، أي: اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجَوْنَ

فيما بينهم، فقال: ﴿كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في حفظه، وأنكم تأتوني به إلا أن يُحاط بكم، ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾، فاجتمع عليكم الأمران؛ تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق؛ فليس لي وجهٌ أُواجه به أبي، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: سأُقيم في هذه الأرض ولا أزال بها، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾، أي: يقدِّرُ لي المجيء وحدي، أو مع أخي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ثم وصَّاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ أي: وأخذ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أنَّا ما شهِدنا بشيء لم نعلمْه، وإنما شهِدنا بما علمنا؛ لأنَّنا رأينا الصُّواع استُخرِج من رحله، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾، أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولَمَا أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظنَّ أن الأمر سيبلغ ما بلغ، ﴿وَسْـَٔلِ﴾ إن شككت في قولنا ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، فقد اطَّلعوا على ما أخبرناك به، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ لم نكذب، ولم نغيِّر ولم نبدِّل، بل هذا الواقع، فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر اشتد حزنه وتضاعف كَمَدُه، واتَّهمهم أيضًا في هذه القضية، كما اتَّهمهم في الأولى، و﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبُه تسخُّط ولا جزعٌ، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لَمَّا رأى أن الأمر اشتدَّ، والكربة انتهت، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾، أي: يوسف وبنيامين، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفريجه ومِنَّته، واضطراري إلى إحسانه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، الذي جعل لكل شيء قدرًا، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانيَّة.



﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٤ ـ ٨٦].

أي: وتولَّى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضَّت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكَمَد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضَّت عيناه من ذلك، ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكَّرتْه هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى المصيبةَ الأولى، فقال له أولاده متعجِّبين من حاله: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، أي: فانيًا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾، أي: لا تترك ذِكْرَه مع قدرتك على ذِكْرِه أبدًا، فقال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى﴾، أي: ما أبثُّ من الكلام، ﴿وَحُزْنِىٓ﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من أنَّه سيردُّهم عليَّ، ويُقِرُّ عيني بالاجتماع بهم.

﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٧ ـ ٩٢].

أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي: احرصـوا واجتهدوا علـى التفتيش عنهمـا، ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾، فإن الرجاء يوجِبُ للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجِبُ له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رَجَا العبادُ فضلُ الله وإحسـانه ورحمته وروحه، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، فإنهـم ـ لكفرهم ـ يسـتبعدون رحمته، ورحمته بعيدةٌ منهم، فلا تتشبَّهوا بالكافرين، ودلَّ هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله ورَوْحـه، فذهبوا ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ ﴾، أي: على يوسـف، ﴿قَالُواْ﴾ متضرِّعين إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ ﴾، أي: قد اضْطُرِرْنا نحن وأهلنا ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ ﴾، أي: مدفوعـة مرغوب عنها لقلَّتها، وعـدم وقوعها الموقع ﴿ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ ﴾، أي: مع عدم وفاء العرض، ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ بالزيادة عن الواجب، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بثواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أَشُدَّه، رَقَّ لهم يوسف رِقَّةً شديدةً، وعرَّفهم بنفسه، وعاتَبَهم فقال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾، أما يوسف فظاهرٌ فِعْلُهم فيه، وأما أخوه فلعلَّه ـ والله أعلم ـ قولهم: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾، أو أن الحادث الذي فرَّق بينه وبين أبيه هم السبب فيه، والأصل الموجِب له، ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾، وهذا نوع اعتذار لهـم بجهلهم، أو توبيخٌ لهم إذْ فعلوا فِعْلَ الجاهلين، مع أنَّه لا ينبغي ولا يَلِيـق منهم، فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسـف، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين في الدُّنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ ﴾، أي: يتَّقـي فِعْـلَ ما حَـرَّم الله، ويصبـر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾،

فإنَّ هذا من الإحسان، والله لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسن عملًا، ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾، أي: فضَّلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصْنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكَّنك مما تريد، ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجُرم الحاصل منهم على يوسف، فقال لهم يوسف عليه السلام كرمًا وجودًا: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾، أي: لا أُثرِّبُ عليكم ولا ألومكم، ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، فسمح لهم سماحًا تامًّا من غير تعيير لهم على ذِكْر الذَّنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتَّى إلا مِن خواصِّ الخلق وخيار المصطفَيْن.

﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۞ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۞ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۞ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يوسف: ٩٣ ـ ٩٨].

أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾؛ لأنَّ كلَّ داءٍ يداوَى بضده؛ فهذا القميص ـ لَمَّا كان فيه أثر ريح يوسف الذي أوْدع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم ـ أراد أن يَشُمَّه فترجِع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصرُه، ولله في ذلك حِكَمٌ وأسرارٌ لا يطَّلع عليها العباد، وقد اطَّلع يوسف من ذلك على هذا الأمر، ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم؛ ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنْكُ الرزق. ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ عن أرض مصر مقبلةً إلى أرض فلسطين شمَّ يعقوبُ ريحَ القميص،

فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، أي: تسخرون منِّي، وتزعُمون أنَّ هذا الكلام صدر منِّي من غير شعور؛ لأنَّه رأى منهم من التعجُّب من حاله ما أوجب له هـذا القول، فوقـع ما ظنَّه بهم، فقالـوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾، أي: لا تزال تائهًا في بحرٍ لُجِّيٍّ، لا تـدري ما تقول، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوسـف وإخوته وأبيهـم، ﴿أَلْقَىٰهُ﴾، أي: القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾، أي: رجع على حاله الأولى بصيرًا، بعد أن ابيضَّت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره مـن أولاده وأهله الذين كانوا يفنِّدون رأيه، ويتعجَّبون منه منتصرًا عليهم، مُتبجِّحًا بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، حيث كنـتُ مترجِّيًا للقاء يوسـف، مترقِّبًا لزوال الهمِّ والغمِّ والحزن، فأقرُّوا بذنبهم، ونجعوا بذلك، و﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، حيث فعلنـا معك ما فعلنـا. فقال مجيبًـا لطَلِبَتهم، ومسـرعًا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمَّدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخَّر الاستغفار لهم إلى وقت السَّحَر الفاضل؛ ليكون أتمَّ للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١].

﴿فَلَمَّا﴾ تجهَّز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسُكْناها، فلما وصلوا إليه، و﴿دَخَلُوا۟

عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾، أي: ضمَّهما إليه، واختصَّهما بقُربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا، ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارَّة، وزال عنهم النَّصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي: على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾، أي: أبوه، وأمه وإخوته، سجودًا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، حين رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين؛ فهذا وقوعُها الذي آلَتْ إليه ووصلت، ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ فلم يجْعلها أضغاث أحلام، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ إحسانًا جسيمًا، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾، وهذا من لُطْفه وحُسْن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذْكُرْ حاله في الجُبِّ؛ لتمام عَفْوِه عن إخوته، وأنَّه لا يذكر ذلك الذنب، وأنَّ إتيانكم من البادية من إحسان الله إليَّ، فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسنَ بكم»، بل قال: ﴿أَحۡسَنَ بِيٓ﴾، جعل الإحسان عائدًا إليه، فتبارك من يختصُّ برحمته من يشاء من عباده، ويَهَبُ لهم مِن لَدُنْه رحمةً، إنه هو الوهاب، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾، فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي»، بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودَحَرَه، وجمعنا بعد تلك الفُرقة الشاقة، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُ﴾ يوصِلُ بِرّه وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويُوصِلُه إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطِنها، وسرائر العباد وضمائرهم، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضِعَها، وسَوْقِهِ الأمور إلى أوقاتها المقدَّرة لها، لما أتمَّ الله ليوسف ما أتمَّ من التمكين في الأرض والملك، وأقرَّ عينه

بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطـاه الله إيَّاه، قال مُقِرًّا بنعمة الله شـاكرًا لها، داعيًا بالثبات على الإسلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، وذلك أنَّه كان على خزائن الأرض وتدبيرهـا، ووزيرًا كبيرًا للملك، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي: من تأويـل أحاديث الكتب المنزَّلـة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من العلـم، ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾، أي: أَدِمْ عليَّ الإسـلام، وثَبِّتْني عليه حتى توفَّاني عليه، ولم يكن هذا دعاءً باستعجال الموت، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.



فوائد مستنبَطة من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

فهذه فوائد مستنبَطة من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾، وقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾، وقال في آخرها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، والعبرة ما يُعتبَر به، ويعبر منه إلى معانٍ وأحكام نافعة، وتوجيهات إلى الخيرات، وتحذير من المهلكات.

فمن ذلك: أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأَبْيَنها؛ وفيها آيات وعِبَر منوَّعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد؛ لما فيها من أنواع التنقُّلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومِنَّة، ومِن ذلٍّ إلى عزٍّ، ومن رقٍّ إلى ملك، ومن فُرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن وتَرَحٍ إلى سرور وفرح، ومن رخاء إلى جَدْب، ومن جدبٍ إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكارٍ إلى إقرار، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصة العظيمة، فتبارك مَن قَصَّها فأحسنها، ووضَّحها وبيَّنها.

ومنها: أن فيها أصولًا لعلم تعبير الرؤيا؛ فإنَّ علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله مَن يشاء من عباده، منهم مَن بناه على حُسْن الفهم، والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويات، أو ما يناسبها بحسب حال الرائي، وبحسب الوقت والحال المتعلقة بالرؤيا.

وقد أثنى الله على يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعلمه بتأويل الأحاديث؛ تأويل أحاديث الأحكام الشرعية، والأحاديث المتعلقة بتعبير الرؤيا، والفرق بين الأحلام التي هي أضغاث أحلام لا تأويل لها، مثل ما يراه من يفكر ويطيل تأمُّله لبعض الأمور، فإنه كثيرًا ما يرى في منامه من جنس ما يُفكِّر به في يقظته، فهذا النوع الغالب عليه أنه أضغاث أحلام لا تعبير له، وكذلك نوع آخر

ما يُلْقِيه الشيطان على روح النائم من المَرائي الكاذبة والمعاني المتخبِّطة، فهذه أيضًا لا تعبير لها، ولا ينبغي للعاقل أن يشغل بها فكره، بل ينبغي له أن يُلْهَى عنها.

وأما الرؤيا الصحيحة فهي إلهامات يُلهمها الله للروح عند تجرُّدها عن البدن وقت النوم، أو أمثال مضروبة يضربها الملَك للإنسان ليفهم بها ما يناسبها، وقد يرى الشيء على حقيقته ويكون تعبيره هو ما رآه في منامه؛ فيوسف عليه السلام أعطاه الله من العلم ما يميِّز به بين المرائي الصحيحة والباطلة، والحق والباطل منها، **وهذه القصة** فيها الدلالة على تعبير الرؤيا من وجوه؛ أحدها: رؤيا يوسف التي قَصَّها على أبيه يعقوب عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ففَسَّرَها يعقوب عليه السلام بغاياتها، وما تؤول إليه، وبوسائلها التي تتقدَّم عليها، ففسَّر الشمس والقمر بأبي يوسف وأمه، والكواكب الأحد عشر بإخوته، وأن الحال سيكون مآلها أن الجميع لَيَسْجدون ليوسف ويخضعون له، ولهذا لما حصل الاجتماع ودخل أبوه وأمه وإخوته مصر ورفع أبوَيْه على العرش خرَّ الجميع له سُجَّدًا، وقال يوسف متذكِّرًا ذلك التعبير والتفسير: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وهذا أمر عظيم اتَّصَل بيوسف في الحال أن يكون مُعَظَّمًا تعظيمًا بليغًا عند أبوَيْه وإخوته، وكذلك عند الناس.

وهذه الغاية تستدعي وسائل ومقدِّمات لا تحصل إلا بها، وهو العلم الكثير العظيم، والعمل الصالح، والإخلاص، والاجتباء من الله، والقيام بحق الله وحقوق الخلق، فلهذا قال سبحانه في ذِكْر السبب الموصِل لهذه الغاية الجليلة: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، يعني: لا بد أن يُتِمَّ الله عليك نعمته بتعليم العلوم النافعة، والأعمال الصالحة،

والاجتباء من الله، وحصول الأخلاق الجميلة والمقامات الجليلة، فيُبَشِّره بحصول هذه الأمور، ثم بالوصول إلى الرفعة في الدنيا والآخرة.

فإنَّ رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين **وجهُ المناسبة فيها**: أنَّ هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمالٌ، وبهم يُهْتَدَى في الظُّلمات كما يُهْتَدَى بهذه الأنوار، ولأنَّ الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع؛ فمن المناسب أن يكون الأصلُ أعظمَ نورًا وجِرْمًا لما هو فرعٌ عنه، فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أنَّ الشمس لفظٌ مؤنثٌ، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكَّرات؛ فكانت لأبيه وإخوته.

ومن المناسبة أنَّ الساجد معظِّمٌ مُحترِم للمسجود له، والمسجودُ له معظَّم مُحترَمٌ؛ فلذلك دَلَّ ذلك على أن يوسف يكون معظَّمًا محترمًا عند أبويه وإخوته، ومِن لازم ذلك أن يكون مجتبًى مُفَضَّلًا في العلم والفضائل الموجِبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾.

وفي ضمن هذا التعبير من يعقوب ليوسف **بشارةٌ له**، وتسهيل لما سيناله من المشقات والكروب مع إخوته وفي السجن، فإن مَن عَلِمَ أن المكاره والمشقَّات تُفْضِي إلى الخير والراحات تَسلَّى، وهانت عليه مشقَّتُها، وسهلت عليه وطأتها، وحصل بذلك من اللطف والرَّوْح شيء عظيم، وهذا من جملة اللطف الذي أشار إليه يوسف في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وهذا من مقتضى حكمة الله أن المراتب العاليات لا تُنال إلا بالوسائل الجليلة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

ومن فوائد هذا التعبير لرؤيا يوسف بشارة عظيمة ليعقوب وأم يوسف وإخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير؛ فيعقوب عليه السلام من أكابر الأنبياء

وأفاضل الأصفياء، وأُمُّه لها من الخير والصلاح والرفعة في الدنيا والآخرة، حيث شُبِّهَت بالشمس أو بالقمر؛ على اختلاف القولَين، وإخوة يوسف وإن كان قد جرى منهم في حق أبيهم وأخيهم من الأذية والعقوق والقطيعة ما جرى، ولكنَّ أباهم وأخاهم عَفَوَا عنهم، واستغفرَا الله تعالى أرحم الراحمين، فالشمس والقمر والنجوم تضمَّنت النور والارتفاع، ولكنها متفاوتة في نورها بحسب التفاوت بين الأبوَيْن وبين الإخوة.

فالحاصل أن هذه الرؤيا تضمَّنت ما حصل ليوسف عليه السلام من خير الدنيا والآخرة، والمقامات العظيمة، والوسائل والـمِنَن التي أوردتها هذه الأمور، وما حصل لأبوَيْه وإخوته من مشاركته في خير الدنيا والآخرة، والله تعالى أعلم.

وأما رؤيا الفَتَيَيْن حيث: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦]، فتلطَّفُوا ليوسف أن ينبئهما بتأويل رؤياهما لما شاهدَا من إحسانه للأشياء، وإحسانه إلى الخلق، ففسَّر رؤيا مَن رأى أنه يعصر خمرًا أنه ينجو من سجنه، ويعود إلى مرتبته وخدمته لسيده، فيعصر له العنب الذي يُؤَوَّل إلى الخمر، وفسَّر رؤيا الآخر بأنه يُقتَل ثم يُصْلَب، فتأكل الطير من رأسه.

فالأول: رؤياه جاءت على وجه الحقيقة، والآخر رؤياه جاءت على وجه المثال، وأنه يُقْتَل، ومع قتله يُصْلَب ولا يُدْفَن حتى تأكل الطيور من رأسه، وهذا من الفهم العجيب، والغوص إلى المعاني الدقيقة.

وذلك أن العادة أن المقتول يُدْفَن في الحال، ولا تتمكَّن السباع والطيور من الأكل منه، ففهم أن هذا سيُقْتَل ولا يُدْفَن سريعًا حتى يصل إلى هذه الحال، وفي هذا من فضيحته وخزيه وسوء مصيره الدنيوي ما تَقْشَعِرُّ منه الجلود، وحيث علم أن هذه الرؤيا صحيحة لا بد من وقوعها، قال لهما: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، وهذا من كمال علمه للتعبير الذي

لا يُعَبَّر عن ظنٍّ وتَوَهُّم، وإنما يعبَّر عن علم ويقين، وأما المناسبة في ذلك أن الطيور لا تقرب الحي، وإنما تتناول الميت إذا لم يكن عنده أحد، وهذا إنما يكون بعد قتله وصلبه.

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين: أنَّه أوَّل رؤيا الذي رأى أنَّه يعصِرُ خمرًا؛ أنَّ الذي يعصر الخمر في العادة يكون خادمًا لغيره، والعصرُ يُقْصَد لغيره؛ فلذلك أوَّله بما يؤول إليه؛ أنَّه يسقي ربَّه، وذلك متضمِّن لخروجه من السجن.

وأوَّل الذي رأى أنه يحمِل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه بأنَّ جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المـخِّ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سـيبرز للطيور، بمحلٍّ تتمكَّن من الأكل من رأســه، فرأى من حاله أنَّه سيُقتَل، ويُصلَب بعد موته، فيُبْرَز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأما رؤيا الملك، فإنه رأى سبع بقراتٍ سِمان يأكلهن سبع بقراتٍ عجاف، وسبع سنبلات خضر يأكلهن ويستولي عليهن سبع سنبلات يابسات ضعيفات، فهالته، وجَمَـعَ لها كل من يظن فيـه المعرفة، فلم يكن عنـد أحد منهم علم بتعبيرها، وقالوا: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

وبعد هذا تفطَّن الذي خرج من الســجن لحالة يوسف، وما هو عليه من العلم العظيم والعلم بالتعبير، وتفطَّن لوصيته التي أنســاه الشـيطان ذِكْر ربه لحكمة قد فصح أمرها، وأنه لا يخرج من الســجن إلا بعد اشتهاره، وتميُّزه العظيم على الناس كلهم بتعبير رؤيا الملك، فطلب هذا الرجل من الملك أن يُرْسِـله إلى يوسـف، وأنه كفيل بمعرفة تفسـيرها، فلما جاء يوسف قال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ [يوسـف: ٤٦]، فإن الملك والناس معه أرسـلوني إليك لتفسيرها لهم، وهم بانتظار ذلك متشوِّقين إليه غاية التشوق، ولهذا قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦] ما ألهم الملك وأزعجه ولاعَه.

ففي الحال فسَّـرها يوسـف عليه السلام، وزادهم مع التفسير حُسْـن العمل بها وحُسْن التدبير، **فأخبرهم** أن البقر السِّمان والسنابل السبع الخضرات هي سنون رخاء وخصب متواليات، تتقدَّم على السـنين المجدبـات، وأن البقر العجاف والسنابل اليابسات سنون جَدْب تليها، وأن بعد هذه السنين المجدبات عامًا فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون، وأنه ينبغي لهم في السنين المخصبات أن ينتهزوا الفرصة، ويَعُدُّوا العدة للسنين الشديدات، فيزرعون زروعًا هائلة أزيد بكثير من المعتاد، ولهذا: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧].

ومن المعلوم أن جميع السـنين يزرع الناس، لكنه أراد منهم أن يزرعوا زروعًا كثيرة، ويبذلـوا قواهم في كل ما يَقْدِرون عليـه، وأنهم يحتاطون في الغلات إذا حصلت بالتحصين والاقتصاد، فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، أي: احفظوا الحاصلات من الزرع حِفْظًا تَسْلَم به من الفساد والسـوس بأن تبقى في سنابلها، ويقتصدون في هذه المدة مدة الرخاء فلا يُسْرِفوا في الإنفاق، بل يأكلون القليل ويحفظون الكثير.

وإن بعد هذه السنين المخصبات سيأتي سبعُ سنين مجدبات شديدات تشـمل الديار المصرية وما حولها، وإنها تأكل ما قُدِّم لهـا مما حُفِظ في سـنين الخصب إلا قليلًا مما تُحْصِنون، **ووجه المناسـبة** أنه كما تقدَّم أن الرؤيا تعبَّر بحال رائيها والمناسبات المتعلقة بها؛ كالرائي لها الملك الذي تتعلق به أركان الرعية وأمورها، ولهذا كانت رؤياه ليسـت خاصة له، بل تشمل الناس والرعية.

ووجه المناسبة في تفسير البقرات والسـنابل بالسنين ظاهر في البقر من وجهين:

أحدهما: أنها هـي التي في الغالـب يُحْرَث عليهـا الأرض، والحروث والزروع وتوابعها تبعٌ للسنين في خصبها وجدبها.

والوجه الثاني: البقر من المواشي التي سِمَنها وعَجَفها تَبَعٌ للسنين أيضًا، فإذا أخصبت سـمنت، وإذا أجدبت عَجِفت وهَزِلَتْ، وكذلك السـنابل تزهو الزروع وتكمل وتنمو مع كثرة الماء والسـنين المخصباتِ، وتضعف وتيبس مع السنين المجدبات، فكانت رؤياه في البقرة والسنابل من أوصاف السنين وآثارها، ومِن ذِكْر الوسائل والغايات، فالحرث للأراضي وسيلة، ونمو الزرع وحصول السمن في المواشي هو الغاية من ذلك والمقصود.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]، أي: يحصل للناس فيـه غيث مُغِيث تُعِيـد الأراضي خصبهـا، ويزول عنها جدبها، وذلك مأخوذ من تقييد السـنين المجدبات بالسـبع، فدلَّ هذا القيد على أنه يلي هذه السبع ما يُزيل شدتها ويرفع جدبها، ومعلوم أن توالي سبع سنين مجدبات لا يُبقي في الأرض من آثار الخضر والنبات والزروع ونحوها لا قليلًا ولا كثيرًا، ولا يرفع هذا الجدب العظيم إلا غيث عظيم، وهذا ظاهر جدًّا، أخذه من رؤيا الملك.

ومن العجب أن جميع التفاسير التي وقفت عليها لم تذكر هذا المعنى مع وضوحه، بل قالوا: لعل يوسف عليه السلام جاءه وحي خاص في هذا العام الذي فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، والأمر لا يحتاج إلى ما ذكروه، بل هو ولله الحمد ظاهر مـن مفهوم العـدد، وأيضًا ظاهر من السـياق، فإنه جعل هـذا التعبير والتفسير توضيحًا لرؤيا الملك.

ثم اعلـم أن رؤيا الملـك وتعبير يوسـف لها، وتدبيره ذلـك التدبير العجيب من رحمة الله العظيمة على يوسـف، وعلى الملك، وعلى الناس، فلولا هذه الرؤيـا وهذا التعبيـر والتدبيـر لهجمت على الناس السـنون المجدبات قبل أن يُعِـدُّوا لها عدتهـا، فيقع الضرر الكبيـر على الأقطار المصرية وعلى ما جاورها.

فصار ذلك رحمة بهم وبغيرهم من الخلق، ألا ترى كيف شمل الجدب البلاد المصرية، وشمل البلاد الشامية وفلسطين وغيرها، حتى احتاجوا إلى الاكتيال من مصر، واحتاج يوسف أن يُقَدِّر للجميع، ويوزِّع عليهم توزيعًا عادلًا، فيه الرفق بالجميع والإبقاء عليهم، وكان هذا العلم العظيم من يوسف هو السبب الأعظم في خروجه من السجن، وتقريب الملك له من اختصاصه به، وتمكينه من ﴿ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وهذا من إحسانه، والله لا يضيع أجر المحسنين، ومع هذا الفضل، وفضل الله أعظم من ذلك، يصيب برحمته من يشاء ممن يختاره، ويختصه ويجمع له خير الدنيا والآخرة.

ومنها: ما فيها من الأدلَّة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قصَّ على قومه هذه القصة الطويلة وهو لم يقرأ كتب الأولين، ولا دَارَس أحدًا يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً، وهو أمِّيٌّ لا يخطُّ ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة حيث قَصَّها على الوجه المطابق، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، كما ذكر الله هذا المعنى في قصة موسى وغيره من الأنبياء؛ لأن **الغيوب نوعان:** أمور سابقة قد اندرس علمها، نبَّأه الله بها، وأمور مستقبلة قد نبَّأه الله بها قبل أن تقع فوقعت، ولا تزال تقع شيئًا بعد شيء مطابِقةً لما أخبر به ﷺ في كتاب الله وفي سنة رسوله، وكلها براهين على رسالته.

ومنها: أنه ينبغي البُعْد عن أسباب الشر، وكتمان ما تُخْشَى مضرَّته، والحث على التحرُّز منه؛ لقول يعقوب ليوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾، وما فيها من التأكيد عليهم في حفظه حين أرسله معهم، ثم عند إرسال أخيه بنيامين بعد ذلك أخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، فالإنسان مأمور بالاحتراز، فإن نفع فذاك، وإلا لم يَلُم العبد نفسه.

ومنها: أنه يجوز ذِكْر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنَّ نعمة الله على العبد نعمةٌ على مَن يتعلَّق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنَّه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوبُ في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، ولما تمَّت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العزِّ والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أنَّ العدل مطلوبٌ في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رَعِيَّتَه، ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبَّة والإيثار وغيره، وأنَّ في الإخلال بذلك يختلُّ عليه الأمر، وتفْسُد الأحوال، ولهذا لما قدَّم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: أنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده، وينبغي له إذا كان يحب أحدهم أكثر من غيره أن يُخْفِي ذلك مهما أمكنه، وألَّا يُفَضِّله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلى صلاح الأولاد وبِرِّهم به، واتفاقهم فيما بينهم، ولهذا لما ظهر لإخوة يوسف من محبة يعقوب الشديدة ليوسف وعدم صبره عنه وانشغاله به عنهم سعوا في أمرٍ وخيم، وهو التفريق بينه وبين أبيه، وهذا صريح جدًّا؛ أن السبب الذي حملهم على ما فعلوا بيوسف من التفريق بينه وبين أبيه هو تمييزه بالمحبة، ومع هذا فلا يحل هذا الأمر الشنيع، وهم يعلمون أنه لا يحل لهم، ولكنهم قالوا: افعلوا هذا الجرم العظيم وتوبوا إلى الله بعده، وهذا لا يحل أن يواقع العبد الذنب بأي حالة يكون ولو أضمر أنه سيتوب منه، فالذنب يجب اجتنابه، فإذا وقع وجبت التوبة منه.

ولعل من حكمة الله ورحمته بيعقوب ما قدَّره عليه من الفُرقة التي أحدثت له من الحزن والمصيبة ما أحدثت رفعةً لمقاماته في الدنيا والآخرة، وليكون للنعمة عند حصول الاجتماع لها الموقع الأكبر والشكر الكثير، والثناء على الله بها، وليصل ولده يوسف إلى ما وصل إليه من المقامات الجليلة.

ومنها: أن آيات الله إنَّما ينتفع بها السائل المستهدي الذي قصده معرفة الحق واتباعه؛ لقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أما الغافلون المعرِضون أو المعارضون المعاندون فإنه يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، فالنظر في آيات الله المتلوَّة وآيات الله الكونية ينفع من قصده الحق، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وكم في القرآن تقييد الانتفاع بهذا القيد، كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأنَّ الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتمُّ لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوَّروا على أبيهم في القميص والدَّم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاءً يبكون، ولا تستبعد أنَّه قد كَثُر البحث فيها في تلك المدَّة، بل لعلَّ ذلك اتَّصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤمُ الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أنه لا ينبغي أن يغترَّ بمجرد صورة القرائن، ولما أتت إلى شُرَيح امرأة مع خصمها أرسلت عينيها بالبكاء، فقال لشريح بعضُ الحاضرين: ما أظن البائسة إلا مظلومة، فقال شريح: ألم تسمع قصة إخوة يوسف إذ أتوا

﴿أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾، هل كانوا مظلومين أو ظالميــن؟! فكم حصل بمثل هذه التمويهات من الاغترار وقلب الحقائق، لهــذا كان الأذكياء يجعلون كل احتمال على بالهم، وينظرون إلى الأمور من جميع جهاتها ونواحيها.

ومنها: أنَّ العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإنَّ أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أســباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والســماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدُّعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا ســمح العبــد عن حقِّه فالله خير الراحمين، ولهــذا ـ في أصح الأقــوال ـ أنهم كانــوا أنبياء؛ لقولــه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدلُّ على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيِّرة، والكواكب فيها النور والهداية، الذي من صفات الأنبياء، فإنْ لم يكونوا أنبياء فإنَّهم علماء هداة.

ومنها: ما منَّ الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعَفْوه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به، وتمَّم ذلك بــأن لا يُثرِّب عليهم ولا يُعَيِّرَهــم به، ثم بِرُّه العظيم بأبوَيه، وإحســانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشرِّ أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررَين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإنَّ إخوة يوســف لما اتَّفقوا على قتل يوســف أو إلقائه أرضًا، وقال قائــل منهــم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾؛ كان قوله أحسن منهم وأخفَّ، وبسببه خفَّ عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أنَّ الشيء إذا تداولته الأيدي، وصار من جملة الأموال، ولم يُعْلَم أنه كان على غير وجه الشــرع؛ أنَّه لا إثم على مَن باشــره ببيع أو شراء، أو

خدمةٍ أو انتفاع، أو استعمال؛ فإنَّ يوسف عليه السلام باعه إخوتُه بيعًا حرامًا لا يجوز، ثم ذهبتْ به السيَّارة إلى مصر، فباعوه بها، وبقي عند سيِّده غلامًا رقيقًا، وسمَّاه الله سيدًا، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: أن الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى العباد سبب يُنال به العلم، وتُنال به خيرات الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]، فجعل الله الإحسان سببًا لنَيْل هذه المراتب العالية.

ومنها: أن النظر إلى الغايات المحبوبة يهوِّن المشاق المعترضة في وسائلها، فمتى علم العبد عاقبة الأمر وما يئول إليه من خير الدنيا والآخرة هانت عليه المشقة، وتسلَّى بالغاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، فأوحى إلى يوسف في هذه الحال المزعجة أن الأمر سيكون إلى خير وسعة، وبعد هذه الإهانة الصادرة من إخوتك لك ستكون لك الأثرة عليهم والعاقبة الحميدة، وفي هذا من اللطف والتسلية وتخفيف البلاء ما هو من أعظم نِعَم الله على العبد، ولهذا المعنى الجليل يذكِّر الله عباده عند المشاق والأمور المزعجة ما يترتب على ذلك من الثواب والخير والطمع في فضله، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يُخشى منهنَّ الفتنة، والحذر أيضًا من المحبَّة التي يُخشى ضررها؛ فإنَّ امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحُّدها بيوسف، وحبِّها الشديد له، الذي ما تركها حتَّى راودتْه تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسُجِن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أنَّ الهمَّ الذي همَّ به يوسـف بالمرأة ثم تركه لله مما يقرِّبه إلى الله زلفى؛ لأنَّ الهـمَّ داعٍ من دواعي النفس الأمَّارة بالسـوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابَل بينه وبين محبَّة الله وخشيته غلبتْ محبَّة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، ومن السبعة الذين يُظْلِهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنـي أخاف الله»[1]، وإنَّما الهـمُّ الذي يُلام عليه العبد هو الهمُّ الذي يساكنه، ويصير عزمًا ربَّما اقترن به الفعل.

ومنها: أنَّ مَن دخل الإيمانُ قلبـه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره؛ فإنَّ الله يدفع عنه ببرهـان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السـوء والفحشـاء وأسباب المعاصي ما هو جزاءٌ لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، على قراءة مَن قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح فإنَّه من إخلاص الله إياه، وهو متضمِّن لإخلاصه هو بنفسـه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلَّصه من الشرور، وعصمه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلًا فيه فتنة وأسباب معصية أن يفرَّ منه ويهرب غاية ما يمكِنُه؛ ليتمكَّن من التخلُّص من المعصية؛ لأنَّ يوسـف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها فرَّ هاربًا يطلُبُ الباب ليتخلَّص من شرِّها.

ومنها: أنَّ القرائن يُعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصَم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار فما يصلُح للرجل فإنَّه للرجل، وما يصلُح للمرأة فهو لها، هذا إذ لم يكن بيِّنة، وكذا لو تنازَع نجارٌ وحـدادٌ في آلة حرفتهما من غير بيِّنة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب؛ فإنَّ شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قَدِّ القميص، واستدلَّ بقدِّه من دُبُره على صِدْق يوسف وكذبها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

ومما يدلُّ على هذه القاعدة أنَّه استدلَّ بوجود الصُّواع في رَحْل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بيِّنة شهادةٍ ولا إقرار، فعلى هذا إذا وُجِد المسروق في يد السارق، خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة؛ فإنَّه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيَّأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيِّد حاملًا؛ فإنَّه يُقام بذلك الحدُّ ما لم يقمْ مانعٌ منه، ولهذا سمَّى الله هذا الحكم شاهدًا، فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

ومنها: تكميل يوسف صلوات الله عليه لمراتب الصبر، **الصبر الاضطراري**: وهو صبر على أذية إخوته، وما ترتَّب عليها من بُعْدِه عن أبويه، وصبره في السجن بضع سنين، **والصبر الاختياري**: هو صبر على مراودة سيدته امرأة العزيز مع وجود الدواعي القوية من جمالها وعلو منصبها، وكونها هي التي راودته عن نفسه وغلَّقت الأبواب، وهو في غاية ريعان الشباب، وليس عنده من قرابته ومعارفه الأصليين أحد، ومع هذه الأمور ومع قوة الشهوة مَنَعَهُ الإيمان الصادق، والإخلاص الكامل من مواقعة المحظور، وهذا هو المراد بقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، فهو برهان الإيمان الذي يغلب جميع القوى النفسية، فكان هو مقدَّم السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهو «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»، ثم بعد ذلك راودته المرأة، واستعانت بالنسوة اللاتي قطَّعن أيديهن، فلم تُحَدِّثه نفسه، ولم يَزَل الإيمان ملازمًا له في أحواله، حتى قال بعدما توعَّدته بقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٢، ٣٣]، فاختار السجن على مواقعة المحظور، ومع ذلك فلم يَتَّكِل على نفسه، بل استغاث بربه أن يصرف عنه شرهن، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]، وكما أنه كمَّل مراتب الصبر، فقد كمَّل مراتب العدل والإحسان للرعية حين

تولى خزائن البلاد المصرية، وكمل مراتب العفو والكرم حين قال له إخوته: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ۝ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١ - ٩٢]، فارتقى ﷺ إلى أعلى مقامات الفضل والخير والصدق والكمال، ونشر الله له الثناءَين الكاملين في العالمين.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن؛ فإنَّ جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتْهن حين لُمْنَها على ذلك أن قطَّعن أيديهنَّ، وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وأما جماله الباطن فهو العفَّة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، وقالت بعد ذلك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وقالت النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية؛ فهكذا ينبغي للعبد إذا ابْتُلِيَ بين أمرَين؛ إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية؛ أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجِب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبدُ أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكرهُ أن يُلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله عند خوف الوقوع في فتن المعاصي والذنوب، ويحتمِي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرَّأ من حوله وقوته، مع الصبر والاجتهاد في البُعد عنها، كما فعل يوسف عليه السلام ودعا ربه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وأن العبد لا حول ولا قوة ولا عصمة له إلا بالله، فالعبد مأمور بفعل المأمور، وتَرْك المحظور، والصبر على المقدور، مع الاستعانة بالملك الشكور.

ومنها: أنَّ العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأنَّ الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضارًّا لصاحبه.

ومنها: أن الجهل كما يطلق على عدم العلم فإنه يطلق على عدم الحلم، وعلى ارتكاب الذنب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وأما قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] ليس المعنى في ذلك عدم العلم، وإنما هو عدم العمل به واقتحام الذنوب، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، وكل من عصى الله فهو جاهل باعتبار عدم العمل بالعلم؛ لأن العلم الحقيقي ما زال به الجهلُ وأوجب العملَ.

ومنها: أنَّه كما على العبد عبوديَّة لله في الرخاء، فعليه عبودية له في الشدَّة؛ فيوسف عليه السلام لم يَزَلْ يدعو إلى الله، فلما دخل السجن استمرَّ على ذلك، ودعا الفتيَيْن إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنَّه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنَّا فيه الظنَّ الحسن، وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وأتياه لأن يعْبُر لهما رؤياهما، فرآهما متشوِّقَيْن لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعْبُر رؤياهما؛ ليكون أنجحَ لمقصوده، وأقربَ لحصول مطلوبه، وبيَّن لهما أولًا أنَّ الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم إيمانه وتوحيده، وتَرْكه مِلَّة مَن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاءٌ لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبيَّن فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنَّه يبدأ بالأهمِّ فالأهمِّ، وأنَّه إذا سُئِل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد؛ أنَّه ينبغي له أن يعلِّمه ما يحتاجُ إليه قبل أن يجيب سؤاله؛

فإنَّ هذا علامةٌ على نُصح المعلِّم وفطنته، وحُسْن إرشاده وتعليمه؛ فإنَّ يوسف لما سـألـه الفتيان عن الرؤيا قدَّم لهمـا قبل تعبيرها دعوتهمـا إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: الإرشـاد إلى طريق نافع من طريق الجـدال والمقابلة بين الحق والباطل، وهو بيان ما في الحق من الخير والمنافع العاجلة والآجلة، وما في الباطل من ضد ذلك، قال تعالى في دعوة يوسف للتوحيد: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسـف: ٣٩]، فذكر ما في الشرك من القُبْح وسـوء الحال واتباع الظنون الباطلة، وأن كل طائفة من المشركين لهم معبود؛ إما نار، أو صنـم، أو قبر، أو ملك، أو ميـت، أو غير ذلك من المعبودات المتفرقة، التي لا تملك لنفسها ولا لأهلها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وكل طائفة تضلِّل الأخرى، وكلهم ضالُّون هالكون فيها، هذه الأرباب والمعبودات خير أم الله الواحد القهار؟

فذكر له ثلاثة أوصاف عامة عظيمة؛ أنه الله الذي له الأسـماء والصفات العليا، ومنه النعم كلها، وبذلك استحق أن يكون الله المألوه إلهَ أهلِ الأرض وأهل السماء، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وأنه الواحد المتفرِّد بكل صفة كمال، المتوحِّد بنعوت الجلال والجمال، الذي لا شـريك له في شـيء من الأفعال، وأنه القهار لكل شـيء، فجميع العالم العلوي والسفلي كلهم مقهورون بقدرته، خاضعون لعظمته، مُتذلِّلون لعزته وجبروته، فَمَنْ هذه صفاته العظيمة هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

ومنها: أن الدين المستقيم الذي عليه جميع الرسل وأتباعهم هو عبادة الله وحده لا شـريك له؛ لقولـه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، فهو الدين المستقيم المقيم للعقائد والأخلاق والأعمال، الذي لا تستقيم أمور الدين والدنيا إلا به.

ومنها: وجـوب الاعتراف بنعم الله الدينيـة والدنيوية؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: ٣٨]، فهو الذي مَنَّ بالعافية والرزق وتوابع ذلك، وهو الذي مَنَّ بنعمة الإسلام والإيمان والطاعة وتوابع ذلك، فعلى العبد أن يعترف بها بقلبه ويتحدث بها، ويستعين بها على طاعة المنعم.

ومنها: أن مَن وقع في مكروه وشدَّة لا بأس أن يستعين بمن له قدرةٌ على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأنَّ هذا لا يكون شكوى للمخلوق؛ فإنَّ هذا من الأمور العاديَّة التي جرى العُرْف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظنَّ أنَّه ناجٍ من الفتيَيْن: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكَّد على المعلِّم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأنْ لا يجعل تعليمه وسيلةً لمعاوضة أحدٍ في مال أو جاه أو نَفْع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلَّفه به المعلِّم؛ فإنَّ يوسف عليه السلام قد قال، ووصَّى أحد الفتيَيْن أنْ يذكُره عند ربه، فلم يذكُره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلًا مستفتيًا عن تلك الرؤيا، فلم يعنِّفه يوسف، ولا وبَّخه؛ لتركه ذِكْرَه، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًّا من كل وجه، ولم يعاتبه أو يعنِّفه أو يعامله بسوء خُلُق، فبحُسْن الخُلُق تحصل للعبد الحياة الطيبة العاجلة والآجلة.

ومنها: أنه ينبغي للمسئول أن يدلَّ السائل على أمرٍ ينفعه مما يتعلَّق بسؤاله، ويرشِده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه؛ فإنَّ هذا من كمال نُصْحه وفطنته وحُسْن إرشاده؛ فإنَّ يوسف عليه السلام لم يقتصِرْ على تعبير رؤيا الملك، بل دَلَّهم ـ مع ذلك ـ على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزَّرْع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفعِ التُّهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يُحمَد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن

مع طول مُكْثِهِ حتى تتبيَّن لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطَّعن أيديهنَّ، حيث بان لكل أحد براءته التامة التي لا شبهة فيها، فلم يخرج من السجن لمواجهة الملك إلا في حالة براءته وهيبته ورفعته، وتعظيمٍ منهم لعلمه وفضله ونزاهته عليه الصلاة والسلام.

ومنها: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]، دليل على أن هذا وصف النفس من حيث هي، وأنها لا تخرج عن هذا الوصف إلا برحمة من الله وعناية منه؛ لأن النفس ظالمة جاهلة، والظلم والجهل لا يأتي منهما إلا كلُّ شر، فإن رحم الله العبد ومَنَّ عليه بالعلم النافع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله خرجت نفسه من هذا الوصف، وصارت مطمئنة إلى طاعة الله وذِكْره، ولم تأمر صاحبها إلا بالخير، ويكون مآلها إلى فضل الله وثوابه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، فعلى العبد أن يسعى في إصلاح نفسه وإخراجها من هذا الوصف المذموم، وهو أنها أمارة بالسوء، وذلك بالاجتهاد، وتخلُّقها بأحسن الأخلاق، وسؤال الله على الدوام، وأن يكثر من الدعاء المأثور: «اللهم اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيِّئ الأعمال والأخلاق، لا يصرف عني سيئها إلا أنت»[١].

ومنها: فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحُسْن جمال يوسف؛ فإنَّ يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العزُّ والرِّفعة والتمكين في الأرض؛ فإنَّ كلَّ خيرٍ في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

ومنها: فضيلـة العلم من وجـوه كثيرة، وبيان أنه سـبب الرفعـة في الدنيا والآخرة، وسبب صلاح الدين والدنيا، فيوسـف عليه السلام لم يَنَلْ ما نال إلا بالعلم، ولهذا قال لــه أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسـف: ٦]، وامتن عليه وَقْـتَ مُكْثِه عند عزيز مصر بالتجربة والعلم، وحاز مقام الإحسـان بالعلم، وخرج من السـجن في حال العز والكرامة بالعلـم، وتمكَّن عند ملك مصر، واستخلصه لنفسه حين كلَّمه وعرف ما عنده من العلم، ودَبَّرَ أحوال الخلق في الممالك المصرية بإصلاح دنياهم، وحُسْـن تدبيره في حفظ خزائن الأرض وتصريفها وتوزيعها بالعلم، وعند نهاية أمره توسَّـل إلى ربه أن يتولاه في الدنيا بالعلـم، حيـث قـال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ففضائل العلم وثمراته الجليلة العاجلة والآجلة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

ومنها: فضـل الإيمان الكامـل واليقين، والطمأنينة بـالله وبذِكْره، حيث اتَّصف بها يوسف عليه السلام أوجبت له الثبات في أموره كلها، والاشتغال فيما هو بصَدَدِهِ من وظائفه الحاضرة، وهو في أحوالـه وتنقُّلاته مطمئن القلب ثابت النفس، ليس عنده قلق لبُعْده عن أبيه وأحبابه، مع ما يعلمه من شـدة الشوق والحب المفرِط بينه وبين والديه، خصوصًا أباه، وهو يعلم المكان الذي هو فيه، ويتمكن من مراسلته، ولكن اقتضت حكمة الله ألَّا يحصل اللقاء إلا في تلك الحال التي اشتدت مشقتها وعظمت شدتها، فأعانه الله وأيَّده بروح منه، وهذا من أَجَلِّ ثمرات الإيمان.

ومنها: أنَّ علم التعبير من العلوم الشرعيَّة، وأنَّه يثاب الإنسان على تعلُّمه وتعليمه، وأنَّ تعبير الرؤيا داخلٌ في الفتوى؛ لقوله للفتيَيْن: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وقال الملك: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبِرَ الإنسان عمَّا في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحةٌ، ولم يقصد به العبدُ الرياء، وسَلِم من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، وكذلك لا تُذمُّ الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدِرُ عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنَّه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءةً من غيره، وإنَّما الذي يُذَمُّ إذا لم يكن فيه كفايةٌ، أو كان موجودًا غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يُرِدْ بها إقامة أمر الله؛ فبهذه الأمور يُنهَى عن طلبها، والتعرُّض لها.

ومنها: أن الولايات الكبار والصغار لا بد لمتولِّيها أن يكون كفؤًا في قوته وأمانته، وعلمه بأمور الولاية؛ لأن الملك لما كَلَّم يوسف ورأى من علمه وخبرته بالأمور، وحُسْن نظره استخلصه لنفسه، وقال: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤]، وقال يوسف: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]، فعلَّل ذلك بكمال حفظه لما تحت يده وتصرفه، وكمال علمه بوجوه المستخرَج والمنصرِف، وحُسْن التدبير، وليس في هذا طلب الولاية ابتداءً، كما قاله كثير من أهل العلم، بل إنه لما رأى الملك استخلصه ومكَّنه من الأمور، وأن الأمور كلها تحت طوعه وتدبيره، طلب من الملك تولِّي خزائن الأرض فقط لأنها أهمُّ، ولأنه يعلم أن ولايته لها أنفع للمَلِك وللخَلْق، وهذا من كمال نُصْحِه وصِدْق نظره.

ومنها: أن الله واسعُ الجود والكرم، يجودُ على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأنَّ خير الآخرة له سببان: الإيمان، والتقوى، وأنه خيرٌ من ثواب الدنيا ومُلكها، وأنَّ العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوِّقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسلِّيها بثواب الله الأخرويِّ، وفضله العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

ومنها: أن العقود تنعقد بما يــدل عليها من قول وفعل، لا فرق بين عقود التبرعات وعقود المعاوضات؛ لأن يوســف عليه السلام ملَّك إخوته بضاعتهم التي اشــتروا بهــا مِيرَتَهُــم من حيــث لا يشــعرون، ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥] الآية، وذلك من دون إيجاب وقبول قولي؛ لأن الفعل والرضا يدل على ذلك.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]، اســتدل به على ثلاثة أبواب من أبواب العلم: باب الجعالة، وباب الضمان، وباب الكفالة؛ لأن قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، من نوع الجعالة، وهو أن يجعل شيئًا معلومًا أو مقاربًا للمعلوم كحمل البعير؛ لأنه متعارَف لمن يعمل له عملًا معلومًا وعمــلًا مجهولًا، وهي جائزة لما فيهــا من مصلحة الجاعل والعامل، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، أي: ضامن وكفيل، وهي من عقود التوثقة بالحقوق التي يتم بها توسيع المعاملات وإصلاحها.

ومنها: أنَّ جباية الأرزاق إذا أريد بها التوســعة على الناس من غير ضررٍ يلحقهم لا بأس بها؛ لأنَّ يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد للســنين المجدبة، وأنَّ هذا غير مناقضٍ للتوكُّل على الله، بل يتوكَّل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حُسْن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثُرتْ عندهم الغلَّات جدًّا، حتــى صار أهلُ الأقطــار يقصدون مصر لطلــب الميرة منها؛ لعِلْمِهم بوفورها فيها، وحتى إنَّه كان لا يكِيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصَّة أو أقلَّ، لا يزيد كلَّ قادم على كَيْلِ بعيرٍ وحملِهِ.

ومنها: مشروعيَّة الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف، وقررتها هذه الشريعة؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

ومنها: أن من الحزم إذا أراد العبد فعلًا من الأفعال أن ينظر إليه من جميع نواحيه، ويُقَدِّر كل احتمال ممكن، وأن الاحتراز بسـوء الظن لا يضر إذا لم يحقَّق، بل يحترز من كل احتمال يُخْشَى ضرره.

ومنها: أنَّ سوء الظن مع وجود القرائن الدالَّة عليه غير ممنوع ولا محرَّم؛ فإنَّ يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشدَّ المعالجة، ثم قال لهم بعدما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾، وقال لهم فـي الأخ الآخر: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهـم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾، فهـم في الأخيـرة وإن لم يكونوا مفرِّطين؛ فقد جرى منهم ما أوجـب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن العمل بالشـريعة فيه إصلاح الأرض والبلاد واستقامة الأمور، والعمل بالمعاصي من سرقة وغيرها فيه فساد، ذلك لقولهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسـف: ٧٣]، وكـم في القرآن من التصريح أن العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل فساد للأرض، ومتابعة الرسل هو الصلاح المطلق؛ صلاح الدين والدنيا.

ومنها: الدلالة على الأصل الكبير الذي أعاده الله وأبداه في كتابه؛ أن لكل نفس ما كسـبت من الخير والثواب، وعليها ما اكتسـبت من الشر والعقاب، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى؛ لقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائزٌ، وإن كان لا يقع شـيءٌ إلا بقضاء وقَدَرٍ؛ فإنَّ الأسباب أيضًا من القضاء والقدر؛ بشرط أن يفعلها العبد وهو معتمد على

مُسَــبِّبها؛ لأمر يعقوب، حيث قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾، وأخبر تعالى أنهم امتثلوا أمر أبيهم، وأن هذا الأمر لم يُغْنِ شيئًا إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها؛ وهو شــفقة الوالد على أولاده، والشــريعة جاءت بإثبات الأسباب النافعة الدينية والدنيوية، والحث عليها، مع الاستعانة بالله، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «احرِص على ما ينفعك واستعن بالله»[1].

ومنها: جواز اســتعمال الحيل والمكايــد التي يتوصل بهــا إلى حق من الحقوق الواجبة والمستحبة أو الجائزة، وأنَّ العلم بالطُّرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يُحمَد عليه العبد، كما اســتعمل يوســف ذلك مع أخيه، حيث وضع الســقاية في رحل أخيه، ثم أذَّن مؤذن بعــد رحيلهم ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] إلى قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، فعمل مع أخيه هذا العمل ليتوصل به إلى بقائه عنده من غير شعور منهم، فلما تقرَّر عندهم أنه هو الذي أخذ الصواع اســتفتاهم عن حكم السارق في دينهم، فقالوا: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]، أي: جزاء السارق أن يتملَّكه المســروق منه، فحكموا على أنفسهم هذا الحكم الذي هو المقصود ليوســف، ولو أجرى عليه حكم ملك مصر لكان له حكم آخر، فيسَّر الله هذا العمل وهذا الحكم ليبقى أخوه عنده، فالحِيَل التي على هذا النوع لا حرج فيها، وإنمــا المحرَّم هو الحِيَل والمكايــد التي يتوصَّل بها إلى إحلال المحرَّمات أو إسقاط الواجبات.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهِــم غيره بأمرٍ لا يحبُّ أن يطَّلع عليه أن يستعمل المعاريض القوليَّة والفعليَّة المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف، حيث ألقى الصُّواع في رَحْل أخيه، ثم استخرجها منه مُوهِمًا أنَّه سارقٌ، وليس

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقـال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقلْ: «منْ سـرق متاعنا»، وكذلك لـم يقلْ: «إنا وجدنا متاعنا عنـده»؛ بل أتى بكلام عام يصْلُح لـه ولغيره، وليس في ذلك محذورٌ، وإنَّما فيه إيهامٌ أنَّه سارقٌ؛ ليحصُل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبيَّنت الحال.

ومنها: قوله تعالـى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ [يوسـف: ٧٩]، يدل على أنه لا تَزِر وازرة وِزْر أخرى، ويؤخذ منه مسألة دقيقة، وهو أن الإحسـان إنما يكون إحسانًا إذا لم يتضمَّن فِعْلَ مُحرَّمٍ، أو تَرْكَ واجبٍ، فإنهم طلبوا من يوسـف أن يُحْسِـن إليهم بتَرْك هذا الأخ أن يذهب إلى أبيه، ويأخذ أحدَهم بدله فامتنع، وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾، فالإحسـان إذا تضمَّن تَرْك العدل كان ظلمًا، ولهذا كان تخصيص بعض الأولاد على بعض، وبعض الزوجات على بعض، وإن كان إحسانًا إلى المخصَّص والمفضَّل لا يجوز؛ لأنه تَرْكٌ للعدل، وكذلك ما أشبه ذلك، والله أعلم.

ومنها: أن المشـاورة نافعة في كل شـيء حتى في تخفيف الشر، لهذا تشاوَر إخوة يوسـف ما يعملون به مِن قَتْلٍ أو طَرْح في الأرض، وقَرَّ رأيهم على رأي مَن أشـار عليهم بإلقائه في الجب ليلتقطه بعض السـيارة، ففيه شـاهد للقاعدة المشهورة «ارتكاب أخفِّ المفسـدتين أولى من أغلظهما»، ولما قَرَّ القرار على أَخْذ مَن وُجِدَ الصواع في رَحْله، وعالجوا يوسـف على أَخْذ بدله لأجل ما يعلمون من مشقة أبيهم فامتنع، خلصوا نجيًّا يتشاورون، فقرَّ رأيهم على رأي كبيرهم أن يبقى هو في مصر يلاحظ مسألة أخيه، وهم يذهبون ويخبرون أهلهم، ويخبرون أباهم بالقضية وتفصيلها، ولا شـك أن بقاءه في مصر أهون علـى يعقوب وأرجى لتحصيـل المطلوب، وفيه نوع

مواساة منه بأخوَيه يوسف وبنيامين، ولهذا قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

ومنها: أنَّه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علِمه وتحقَّقهُ؛ إما بمشاهدة أو خبرِ مَن يثق به، وتطمئنُّ إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

ومنها: أن وجود المسروق بيد السارق بينة وقرينة على أنه السارق، ولذلك حكم وحكموا على أخي يوسف بحكم السارق.

ومنها: الحثُّ على فعل الأسباب الجالبة للخيرات، والحافظة من الكريهات، وفي القصة مواضع تدل على هذا الأصل الكبير، وتمام ذلك أن يقوم بالأسباب مستعينًا بالله واثقًا به، وقد عمل يعقوب عليه السلام الأسباب التي يقدر عليها في استحفاظ أولاده ليوسف ثم لأخيه حين أرسله معهم، وقال مع ذلك: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وكذلك على العبد إذا هَمَّته المصائب وحلَّت بهِ النكبات؛ عليه أن يصبر، ويستعين بالله على ذلك، قال يعقوب عليه السلام حين عمل إخوة يوسف ما عملوا بيوسف وحلَّت به المصيبة الكبرى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وذلك أن الصبر على الطاعات، والصبر عن المحرَّمات، والصبر على المصيبات؛ لا يتم وينجح صاحبه إلا بالاستعانة بالله، وألَّا يتَّكِل العبد على نفسه، قال يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومنها: قوله تعالى عن يعقوب في أول ما صنع أبناؤه بأخيهم يوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وقوله: عندما اشتد به الأمر حين احتبس الابن الآخر: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، في هذا دليل على أن أصفياء الله إذا نزلت بهم الكوارث والمصيبات

قابَلوها في أول الأمر بالصبر والاستعانة بالمولى، وعندما ينتهي وتبلغ الشدة منتهاها يقابلونها بالصبر والطمع في الفرج والرجاء، فيوفِّقهم الله للقيام بعبوديته في الحالتَين، ثم إذا كشف عنهم البلاء قابَلوا ذلك بالشكر والثناء على الله، وزيادة المعرفة بلطفه؛ لقول يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيَّه يعقوب عليه السلام؛ حيث قضى بالفراق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعةً واحدةً هذه المدةَ الطويلة، ويحزِنُه ذلك أشدَّ الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدةً طويلة يغلب على الظن أنها تبلغ ثلاثين سنة فأكثر، من ذلك أنه بقي مدة في بيت العزيز قبل السجن في الإمكان أن تكون من سبع السنين إلى العشر، أو نحو ذلك على وجه الخرص والحزر، ثم مكث بضع سنين في السجن، والأكثر أنها سبع سنين، ثم بعد خروجه دخلت السبع السنين المخصبات، فهذه نحو إحدى وعشرين سنة، ثم دخلت السبع المجدبات، وتردَّد إخوة يوسف إليه مرات، والظاهر أن اللقاء كان في آخرها، فهذه تُقارِب الثلاثين ونحوها، وهو في هذه المدة لم يفارِقِ الحزنُ قلْبه وهو دائم البكاء، ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾، ثم ازداد به الأمر شدَّة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، وفَقَدَ بصره وهو صابرٌ لأمر الله، محتسبٌ الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شكَّ أنه وفى بما وَعَدَ به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فإن الشكوى إلى الله لا تُنافي الصبر، وإنما ينافي الصبر الشكوى إلى المخلوق.

ومنها: أن شفاء الأمراض كما تكون بالأدوية الحسية تكون بأسباب ربانية، بل يحصل بهذا النوع من أنواع الشفا ما لا يحصل بغيره، فيعقوب عليه السلام

قد ابيضَّت عيناه من الحزن، وذهب بصره، فجعل الله شفاءه وإبصاره بقميص يوسف حين ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرًا لما كان فيه من رائحة يوسف، الذي كان داءُ عينَيه من حزنه عليه، فصار شفاؤه الوحيد مع لُطف الله في قميص جسده. **ومن قال:** إن القميص من الجنة، فليس عنده بذلك دليل، والله قادر على أن يشفيه من دون سبب، ولكنه حكيم جعل الأمور تجري بأسباب ونظامات قد تهتدي العقول إلى معرفتها وقد لا تهتدي، ونظير ذلك أيوب عليه السلام وصل به المرض والضر إلى حالة تعذَّر منها الشفاء، وأعيت الأطباء، فحيث أراد الله شفاءه أمره أن يركض برجله الأرض، فأنبع له عينًا باردة، وأمره أن يشرب منها ويغتسل، فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من هذا الضرر، وعاد كأحسن ما أنت راءٍ، قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، فهو تعالى يشفي العباد بأدوية وأسباب حسية، وبأسباب ربانية معنوية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، كما أنه تعالى يُوجِد الأشياء بأسباب حسية معلومة، وبأسباب ربانية لا تهتدي العقول إليها، كما في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وآياته النفسية والكونية، وهو المحمود على هذا وعلى هذا.

ومنها: أنَّ الفرج مع الكرب؛ وأنَّ مع العسر يسرًا؛ فإنَّه لما طال الحزن على يعقوب واشتدَّ به إلى أنهى ما يكون، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، ثم قال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسَّهم الضرُّ حين دخلوا على يوسف وقفوا بين يدَيْه موقف المضطر، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾، أي: قليلة حقيرة لا تقع الموقع، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾، فحينئذٍ لما بلغ الضر منتهاه من كل وجه أذِن الله بالفرج، فحصل التلاقي في أشدِّ الأوقات إليه حاجة واضطرارًا،

فتمَّ بذلك الأجر وحصل السـرور، وعُلِمَ من ذلك أنَّ الله يبتلي أنبياءه وأولياءه وأصفياءه بالشدَّة والرَّخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر؛ ليمتحن صبرهم وشكرهم، وليستخرج منهم عبوديته في الحالين؛ بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الشـدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء، ويـزداد بذلك إيمانُهم ويقينُهم وعِرْفانُهم، كما ابتلى يعقوب ويوسف، وكذلك غيرهم من أنبيائه وأصفيائه.

ومنها: جـواز إخبار الإنسـان بما يجد، ومـا هو فيه من مـرضٍ أو فقرٍ ونحوهما، على غير وجه التسخُّط؛ لأنَّ إخوة يوسف قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، وأقرَّهم يوسف على ذلك ولم يُنْكِرْ عليهم.

ومنها: جواز سـؤال الخَلْق، خصوصًا الملوك عند الضرورة؛ لقول إخوة يوسـف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسـف: ٨٨]، فإنهم سألوا المحاباة في المعاملة والصدقة بدون عِـوَض، وإنما قلت: خصوصًـا الملوك؛ لأنهم لا يُسـأَلون من أموالهم الخاصة، وإنما يُسـأَلون من بيت المـال، الذي هو للمصالح العمومية، وأهم المصالح دفع ضرورة المضطرين.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأنَّ كلَّ خير فـي الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأنَّ عاقبة أهلهما أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وأن إخبار العبد من نفسـه بحصول التقوى والصبـر إذا كان صدقًا، وفي ذلـك مصلحة من باب التحدث بنعمة الله، قال الله تعالـى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وهي تشمل نعم الدنيا ونعم الدين، وأن الله يجمع للمتقين بين خيرَيِ الدنيا والآخرة كما في هذه الآية والآية السابقة، وهي قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧].

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمةٍ بعد شدَّة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى؛ ليُحْدِث لذلك شكرًا كلمَّا ذكرها؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

ومنها: ما منَّ الله به على يوسف من حسن عفوه عن إخوته، وأنه عفا عما مضى، ووعد في المستقبل ألَّا يُثرِّب عليهم، ولا يذكر منه شيئًا؛ لأنه يجرحهم ويُحزنهم، وقد أبدوا الندامة التامة، ولأجل هذا قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: من بعد أن نزغهم، بل أضاف الفعل إلى الشيطان الذي فرَّق بينه وبين إخوته، وهذا من كمال الفتوة وتمام المروءة.

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف؛ حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والـمِحَن؛ ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أنْ يتضرع إلى الله دائمًا في تثبيت إيمانه، ويُعْمِلَ الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حُسْنَ الخاتمة وتمام النِّعمة، ويتوسَّل بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يُتِمَّها عليه ويُحْسِن له العاقبة؛ لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وليس هذا من يوسف تمنيًا للموت كما ظنه بعضهم، بل هو دعاء لله أن يُحْسِن خاتمته ويتوفاه على الإسلام، كما يسأل العبد ربه ذلك كل وقت.

إذا قيل: كيف خَفِي موضع يوسف على يعقوب وما بينهما إلا مسافة قليلة مع طول المدة وقوة الداعي الـمُلِحِّ، وعِلْمه أنه على الوجود، وحرصه الشديد على لُقياه؟

فالجواب: ليس ذلك بغريب على قدرة الله، فإن الأسباب وإن قَوِيَت جدًّا لا خروج لها عن قضاء الله وقدره؛ فإن الله تعالى أراد ألَّا يحصل الاجتماع إلا في

الوقت الذي أجَّله، والحالة التي أرادها؛ لما له في ذلك من الحِكَم العظيمة، ومتى أراد الله شيئًا في وقت مخصوص قَدَّرَ من الأسباب الحسية أو المعنوية ما يمنع حصوله قبل ميقاته، كما يقدِّر من الأسباب ما يحصل به ما أراد، فالأسباب بيد العزيز الحكيم، وليس هذا بأغرب من قضية بني إسرائيل في التيه وهم أمة عظيمة، والتيه مسافة قصيرة وهم بين أظهُر قرى ومدن كثيرة، والمدة أربعون سنة لم يهتدوا طريقًا إلى مقصدهم، ولم يتيسَّر لهم مَن يرشدهم إلى قصدهم.

وكذلك أصحاب الكهف مكثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين وهم في غارٍ قريب من مدينةِ عظيمة، لم يَصِلْ إليهم أحد في هذه المدة الطويلة لأمر يريده الله.

فهذه الأمور وما أشبهها دليل على كمال قدرة الله وحكمته، مع أن يوسف عليه السلام بقي مدةً الله أعلم بها وهو في بيت العزيز، ثم مدة وهو في السجن، ثم ترقَّى إلى تدبير المُلك، ولم يخطر ببال أحد أن ينتقل من الرق والسجن إلى الملك العظيم.

ثم إنه وقت تولِّيه يغلب على الظن أنه اشتهر عند الناس باسم المنصب والوزير للملك، ولا يكاد أحد يعرف اسمه كما هو الغالب على الملوك وأشباههم، ولهذا تردَّد إخوتُه عليه فعرفهم، وهم لا يعرفونه؛ لما هو فيه من بهجة الولاية، وأيضًا قد فارَقوه وهو صغير، ولم يَرَوْه إلا بعدما كبر، ومعلوم أن أوصاف الإنسان تتغيَّر إذا وصل إلى سنِّ الكهولة، واللهُ أعلم.

هذا من جهة يعقوب وأولاده، أما من جهة يوسف فإنه قد علم وقصد التأخير ليبلغ الكتاب أجله، ولهذا تردَّد عليه إخوتُه وقد عرفهم، ولم يعرِّفهم بنفسه، ولم يستدعِ أبوَيْه وأهله إلا في نهاية الأمر.

هذا ما يسَّر الله من الفوائد والعِبَر في هذه القصة المباركة، ولا بدَّ أنْ يظهر للمتدبِّر المتفكِّر غير ذلك، فنسأله تعالى علمًا نافعًا وعملًا متقبَّلًا، إنه جوادٌ كريمٌ.



قصة شعيب عليه السلام



شعيب عليه السلام نبَّأه[١] الله، وأرسله إلى أهل مدين، وكانوا مع شِركهم يَبْخَسون المكاييل والموازين، ويَغُشُّون في المعاملات، ويَنْقُصون الناسَ أشياءهم، فدعاهم إلى توحيد الله، ونهاهم عن الشرك به، وأمرهم بالعدل في المعاملات، وزجرهم عن البَخْس في المعاملات، وذَكَّرهم الخير الذي أدَرَّهُ الله عليهم، والأرزاق المتنوعة، وأنهم ليسوا بحاجة إلى ظُلم الناس في أموالهم، وخَوَّفهم العذاب المحيط في الدنيا قبل الآخرة، فأجابوه ساخرين، ورَدُّوا عليه متهكِّمين، فقالوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، أي: فنحن جازِمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون، وجازمون على أننا نفعل في أموالنا ما نريد من أي معاملة تكون، فلا ندخل تحت أوامر الله وأوامر رسله، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨]، أي: أغناني الله، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، أي: ما نهيتكم عن المعاملات الخبيثة وظُلْم الناس فيها إلّا وأنا أول تاركٍ لها، مع أن الله أعطاني ووسَّع عليَّ، وأنا محتاج إلى المعاملة، ولكني متقيِّد بطاعة ربي، ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ في فعلي وأمري لكم ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾،

---

(١) أي: جعله نبيًّا.

أي: أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ثم خوَّفهم أخذات الأمم التي حولهم في الزمان والمكان، فقال: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، ثم عرض عليهم التوبة، ورغَّبهم فيها، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] فلم يُفِد فيهم، فقالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، وهذا لعنادهم وبُغْضِهم البليغ للحق، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩١ ـ ٩٢].

ثم لما رأى عُتُوَّهم قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۞ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٣ ـ ٩٤] ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، فأرسل الله عليهم حرًّا أخذ بأنفاسهم حتى كادوا يختنقون من شدته، ثم في أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظَلَّتْهم، فتنادَوْا إلى ظِلِّها غير الظليل، فلما اجتمعوا فيها التهبت عليهم نارًا، فأحرقتهم، وأصبحوا خامدين مُعَذَّبين مذمومين ملعونين في جميع الأوقات.



وفي قصة شعيب عليه السلام فوائد متعددة

منها: أن بَخْس المكاييل والموازين خصوصًا، وبَخْس الناس أشياءهم عمومًا؛ من أعظم الجرائم الموجِبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

ومنها: أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج؛ لهذا قال شعيب لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هود: ٨٤]، أي: بنعم كثيرة، فأيُّ أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرَّمة.

ومنها: قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٦] فيه الحثُّ على الرضا بما أعطى الله، والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلُّع إلى ما عند الناس.

ومنها: فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات، وتَرْك المنكرات، وللنصيحة لعباد الله، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ومن هنا تُعرَف حكمة الله ورحمته في أنه فرض علينا الصلوات، تتكرَّر في اليوم والليلة؛ لعِظَم وقعها، وشدة نفعها، وجميل آثارها، فللَّه على ذلك أتم الحمد.

ومنها: أن العبد في حركات بدنه وتصرفاته، وفي معاملاته المالية؛ داخل تحت حجر الشريعة، فما أُبيح له منها فعله، وما منعه الشرع تعيَّن عليه تَرْكُه، ومن يزعم أنه في ماله حرٌّ، له أن يفعل ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة، فهو

بمنزلة مَن يرى أن عمل بدنه كذلك، وأنه لا فـرق عنده بين الكفر والإيمان، والصدق والكذب، وفعل الخير والشـر، الكل مباح، ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الإباحيين الذين هم شرُّ الخليقة، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا؛ لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة، وأباح لهم سواها، فردُّوا عليه أنهم أحرارٌ في أموالهم، لهم أن يفعلـوا فيها ما يريدون، ونظير هذا قول من قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فمن سـوَّى بيـن ما أباحه وبين ما حرَّمه الله فقد انحرف في فطرته وعقله بعدما انحرف في دينه.

ومنها: أن الناصح للخَلْق الـذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس له أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين؛ لقول شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

ومنها: أن الأنبياء جميعهم بُعِثُوا بالإصلاح والصلاح، ونَهَوْا عن الشرور والفساد، فكل صلاح وإصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء، وخصوصًا إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ، فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل، ووضع للخلق الأصول النافعة التي يَجْرُون عليها في الأمور العادية والدنيوية، كما وضع لهم الأصول في الأمور الدينية، وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلـك، ولا على تكميله إلا بالله؛ لقول شـعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ومنها: أن الداعي إلـى الله يحتاج إلى الحلم، وحُسْـن الخُلُـق، ومقابلة المسـيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك، وأن لا يُحبِطه أذى الخَلْق، ولا يصده عن شيء من دعوته، وهذا الخُلُق كماله للرسل صلوات الله عليهم وسلم، فانظر إلى شعيب عليه السلام، وحُسْن خُلُقه مع قومه، ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السـيئة، ويقابلونه المقابلة الفعلية، وهو عليه السلام يحلـم عليهم ويصفح،

ويتكلم معهم كلامَ مَن لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الإحسان، ويُهَوِّن هذا الأمر أن هذا خُلُقٌ مَن ظَفِر به وحَازَه فقد فاز بالحظ العظيم، وأن لصاحبه عند الله المقامات العالية والنعيم المقيم، ويُهَوِّنه أنه يعالج أممًا قد طُبِعوا على أخلاقٍ إزالتُها وقَلْعُها أصعب مِن قَلْع الجبال الرواسي، ومرنوا على عقائد ومذاهب بذلوا فيها الأموال والأرواح، وقدَّموها على جميع المهمات عندهم، أفتظن مع هذا أن أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القول بأن هذه مذاهب باطلةٌ وأقوالٌ فاسدة، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء؟! كلا والله.

إن هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التي دعت إليها الرسل، يُذكِّرون بنِعَم الله، وأن الذي تفرَّد بالنعم يتعيَّن أن يُفْرَد بالعبادة، ويذكر لهم من تفاصيل النعم ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، ويُذكَّرون بما في مذاهبهم من الزيغ والفساد والاضطراب، والتناقض المزلزل للعقائد، الداعي إلى تَرْكها، ويذكرون بما بين أيديهم وما خَلْفَهم من أيام الله ووقائعه بالأمم المكذِّبة للرسل، المنكرة للتوحيد، ويُذكَّرون بما في الإيمان بالله وتوحيده ودينه من المحاسن والمصالح، والمنافع الدينية والدنيوية، الجاذبة للقلوب، المسهِّلة لكل مطلوب، ومع هذا كله فيحتاج الخَلْق إلى الإحسان إليهم، وبَذْل المعروف، وأقل ذلك الصبر على أذاهم، وتحمُّل ما يصدر منهم، ولِين الكلام معهم، وسلوك كل سبيلِ حكمةٍ معهم، والتنقل معهم في الأمور بالاكتفاء ببعض ما تسمح به أنفسهم؛ ليستدرج بهم إلى تكميله، والبداءة بالأهم فالأهم، وأعظمهم قيامًا بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الإطلاق محمد ﷺ.

ومنها: أن الكفار كما يعاقَبون ويخاطَبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأنَّ شعيبًا دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجَعَلَ الوعيد مرتَّبًا على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذُّنوب، وتُخْشَى العقوبة العاجلة على مَن تعاطى ذلك، وأنَّ ذلك من سـرقة أمـوال الناس، وإذا كان سـرقتهم في المكاييل والموازين موجِبة للوعيد فسـرِقتُهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى.

ومنها: أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فمَن بَخَـسَ أموال الناس يريد زيادة ماله عوقِـب بنقيض ذلك، وكان سـببًا لزوال الخير الذي عنـده من الرزق؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾، أي: فلا تسبَّبوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبـد أن يقْنع بما آتاه الله، ويقنـع بالحلال عن الحرام، وبالمكاسـب المباحة عن المكاسـب المحرَّمة، وأنَّ ذلك خيـرٌ له؛ لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، ففـي ذلـك من البركـة وزيادة الـرزق ما ليس في التكالُب على الأسباب المحرَّمة من الـمَحْق، وضدِّ البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنَّه رَتَّبَ العمل به على وجود الإيمان، فدلَّ على أنَّه إذا لم يوجد العمل فالإيمان ناقصٌ أو معدومٌ.

ومنها: أنَّ الصلاة لم تَزَل مشـروعة للأنبياء المتقدِّمين، وأنَّها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرِّر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سـائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشـاء والمنكر، وهي ميزانٌ للإيمان وشـرائعه؛ فبإقامتها تكمُلُ أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختلُّ أحواله الدينيَّة.

ومنها: أنَّ المال الذي يرزقه الله الإنسانَ، وإن كان الله قد خوَّله إياه؛ فليس له أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانةٌ عنده، عليه أن يقيم حقَّ الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرَّمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومَن أشـبههم أنَّ أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواءٌ وافَق حُكْمَ الله، أو خالَفَه.

ومنها: أن مِن تكْمِلة دعوة الداعي وتمامها: أن يكون أول مبادرٍ لما يأمر غيره به، وأول مُنْتَهٍ عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾، ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾.

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنَّتهم وملَّتهم، إرادةُ الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يُقْدَر عليه منها، وبدفع المفاسد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة، هي التي تصْلُح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أنَّ من قام بما يقدِر عليه من الإصلاح لم يكن ملومًا ولا مذمومًا في عدم فِعْلِه ما لا يقدِر عليه؛ فعلى العبد أن يُقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدِر عليه.

ومنها: أنَّ العبد ينبغي له أن لا يتَّكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعينًا بربه، متوكلًا عليه، سائلًا له التوفيق، وإذا حصل له شيءٌ من التوفيق فلينسبه لِموليه ومُسْديه، ولا يُعْجب بنفسه؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تُذْكَر القصص التي فيها إيقاعُ العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر؛ كما أنه ينبغي ذِكْر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحثِّ على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يُسْمَح له عن ذنبه ويُعفى عنه؛ فإنَّ الله تعالى يحبُّه ويودُّه، ولا عبرة بقول من يقول: «إنَّ التائب إذا تاب فحسبُه أن

يُغْفَر له، ويعود عليه العفو، وأما عَوْدُ الودِّ والحبِّ فإنَّه لا يعودُ»؛ فإنَّ الله قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾.

ومنها: أنَّ الله يدفع عن المؤمنين بأسبابٍ كثيرةٍ؛ قد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئًا منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار؛ كما دفع الله عن شعيب رَجْمَ قومه بسبب رهطه، وأنَّ هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعيَّن ذلك؛ لأنَّ الإصلاح مطلوبٌ على حسب القدرة والإمكان؛ فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جَعْل الولاية جمهوريةً يتمكَّن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولةٍ تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجَعْلِهم عَمَلَةً وخَدَمًا لهم.

نعم؛ إنْ أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام؛ فهو المتعيِّن، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة؛ فالمرتبة التي فيها دفعٌ ووقايةٌ للدين والدنيا مقدَّمة، والله أعلم.



قصة أيوب عليه السلام



كان أيوبُ من أنبياء بني إسرائيل، ومن الأصفياء الكرام، وقد ذكره الله في كتابه، وأثنى عليه بالخصال الحميدة عمومًا، وبالصبر على البلاء خصوصًا؛ فإن الله تعالى ابتلاه بولده وأهله وماله، ثم بجسده، فأصابه من البلاء ما لم يُصِب أحدًا من الخَلْق، فصبر لأمر الله، ولم يَزَل منيبًا لله.

ولما تطاوَل به المرض العظيم، ونَسِيَه الصاحب والحميم نادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فقيل له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ [ص: ٤٢] فركض، فنبعت بركضته عين ماء بارد، فقيل له: اشرب منها واغْتَسِلْ، ففعل ذلك، فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من البلاء، ثم أعاد الله له أهله وماله، وأعطاه من النِّعَم والخيرات شيئًا كثيرًا، وصار بهذا الصبر قدوةً للصابرين، وسلوة للمبتلين، وعبرة للمعتبرين، وكان في مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارَّة الرحيمة في بعض شيء، فحلف أن يجلدها مائة جلدة، فخفَّف الله عنه وعنها، وقيل له: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا﴾ - حُزْمة حشيشٍ أو علفٍ أو شماريخَ أو نحوها -، فيها مائة عود، ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ أي: ينحل بذلك يمينك، وفي هذا دليل على أن كفارة اليمين لم تشرع لأحد من قبل شريعتنا؛ وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذي لا بد من وفائه، **وفي هذا** دليل على أن مَن لا يحتمل إقامة الحد عليه؛ لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك؛ لأن الغرض التنكيل ليس الإتلاف والإهلاك.

قصة موسى عليه السلام



﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۞ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۞ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٣ ـ ١٣]

ومن جملة ما أبان ـ سبحانه ـ، قصة موسى وفرعون؛ فإنَّه أبداها وأعادها في عدَّة مواضع، وبسطها في هذا الموضع، فقال: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾، فإنَّ نبأهما غريبٌ، وخبرهما عجيبٌ. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾،

فإليهم يُساق الخطاب، ويوجَّه الكلام؛ حيث إنَّ معهم من الإيمان ما يُقْبِلون به على تدبُّر ذلك، وتلقِّيه بالقَبول والاهتداء بمواقع العِبَر، ويزدادون به إيمانًا ويقينًا، وخيرًا إلى خيرهم، وأما مَن عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجَّة عليهم، وصانَه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجابًا أن يفقهوه.

فأول هذه القصَّة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلوِّ فيها، لا من الأعْلَيْن فيها، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أي: طوائف متفرِّقة، يتصرَّف فيهم بشهوته، وينفِّذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وتلك الطائفةُ هم بنو إسرائيل، الذين فضَّلهم الله على العالمين، الذين ينبغي له أن يكرِمهم ويجلَّهم، ولكنه استضعفهم، بحيثُ إنه رأى أنَّهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم، فصار لا يُبالي بهم، ولا يهتمُّ بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنَّه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ خوفًا من أن يكثرُوا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا قَصْدَ لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأن نُزيل عنهم موادَّ الاستضعاف، ونُهلك مَن قاومهم، ونخذل من ناوأهم، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ في الدين، وذلك لا يحصُلُ مع استضعاف، بل لا بدَّ من تمكين في الأرض، وقدرةٍ تامةٍ، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فهذه الأمور كلُّها، قد تعلَّقت بها إرادة الله، وجرتْ بها مشيئتُه، وكذلك نريد أن نُريَ ﴿فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعَلَوْا وبغَوْا، ﴿مِنْهُم﴾، أي: من هذه الطائفة المستضعَفة ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يَسْعَوْن في قمعهم، وكَسْر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محلُّ ذلك؛

فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمرًا سهَّل أسبابه، ونهَّج طرقه، وهذا الأمر كذلك؛ فإنَّه قدَّر وأجرى من الأسباب ـ التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه ـ ما هو سببٌ موصلٌ إلى هذا المقصود.

فأول ذلك لما أوجدَ الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيليِّ على يدَيه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يُذبِّحون بها الأبناء، أوحى إلى أمِّه أن تُرْضِعه، ويمكث عندها، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن أَحْسَسْتِ أحدًا تخافِين عليه منه أن يوصِله إليهم، ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوتٍ مُغْلَق، ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فبشَّرها بأنَّه سيردُّه عليها، وأنه سيكبر ويَسْلَم من كيدهم، ويجعلُه الله رسولًا، وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشارة لأم موسى؛ ليطمئنَّ قلبُها، ويسكن رَوْعُها، فكأنَّها خافتْ عليه، وفعلت ما أُمِرت به؛ ألقته في اليمِّ، فساقه الله تعالى حتى التقطه ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾، فصار مِن لقْطِهم، وهم الذين باشَروا وُجْدانه؛ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: لتكون العاقبةُ والمآلُ من هذا الالتقاط أن يكون عدوًّا لهم وحَزَنًا يحْزُنُهم؛ بسبب أنَّ الحذر لا ينفع من القدر، وأنَّ الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيَّض الله أن يكونَ زعيمهم يتربَّى تحت أيديهم، وعلى نظرِهم، وبكفالتهم.

وعند التدبُّر والتأمُّل تجدُ في طيِّ ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودَفْع كثيرٍ من الأمور الفادحة بهم، ومَنْع كثيرٍ من التعدِّيات قبل رسالته؛ بحيث إنَّه صار من كبار المملكة، وبالطبع إنَّه لا بدَّ أن يحصُلَ منه مدافعةٌ عن حقوق شعبه، هذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقِّدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعَف ـ الذي بلغ بهم الذُّلُّ والإهانةُ إلى ما قصَّ الله علينا بعضه ـ أنْ صار بعضُ أفراده ينازعُ ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه، وهذا مقدمةٌ للظُّهور؛ فإنَّ الله تعالى من سنَّته الجارية أن

جعل الأمور تمشي على التدريج شيئًا فشيئًا، ولا تأتي دفعةً واحدةً، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾، أي: فأردْنا أن نعاقبهم على خطئهم ونكيدهم، جزاءً على مكرهم وكيدهم.

فلما التقطهُ آلُ فرعون حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة آسية بنت مزاحم، ﴿وَقَالَتِ﴾: هذا الولدُ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ﴾، أي: أَبْقِهِ لنا؛ لِتقرَّ به أعينُنا، ونُسرَّ به في حياتنا، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، أي: لا يخلو: إمَّا أن يكونَ بمنزلة الخدم الذين يَسْعونَ في نَفْعنا وخدمتنا، أو نرقِّيه درجةً أعلى من ذلك؛ نجعلُهُ ولدًا لنا، ونكرِمُه ونُجِلُّه، فقدَّر الله تعالى أنَّه نفع امرأة فرعون التي قالت تلك المقالة؛ فإنَّه لما صار قُرَّةَ عينٍ لها، وأحبَّتْه حبًّا شديدًا، فلم يَزَلْ لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبُرَ ونبَّأه الله وأرسله، فبادرتْ إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها، قال الله تعالى عن هذه المراجعات والمقاولات في شأن موسى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلمُ، ومضى به القدرُ؛ من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا مِن لطفه تعالى؛ فإنَّهم لو شَعَروا لكان لهم وله شأنٌ آخر.

ولما فقدتْ موسى أمُّه حزنت حزنًا شديدًا، وأصبحَ فؤادُها فارغًا من القلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشريَّة، مع أنَّ الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها بِرَدِّه، ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: بما في قلبها، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فثبَّتْناها، فصبرتْ، ولم تُبْدِ به؛ ﴿لِتَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنَّ العبد إذا أصابتْه مصيبةٌ فصبر وثبتَ ازداد بذلك إيمانُه، ودَلَّ ذلك على أنَّ استمرار الجزع مع العبد دليلٌ على ضعف إيمانه.

﴿وَقَالَتْ﴾ أمُّ موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، أي: اذهبي فقُصِّي الأثرَ عن أخيك، وابحثي عنه، من غير أن يُحِسَّ بك أحدٌ أو يشعروا بمقصودك، فذهبتْ تقصُّه، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: أبصرتْه على وجهٍ،

كأنَّها مارَّةٌ لا قصدَ لها فيه، وهذا من تمام الحـزم والحذر؛ فإنَّها لو أبصرتْه، وجاءتْ إليهم قاصدةً؛ لظنُّوا بها أنها هي التي ألقتْه، فربَّما عزموا على ذبحه عقوبةً لأهله، ومن لُطْفِ الله بموسـى وأمـه أنْ مَنَعَهُ من قبـول ثدي امرأةٍ، فأخرجوه إلى السـوقِ رحمةً به، ولعل أحدًا يطلبُهُ، فجاءت أختُه وهو بتلك الحال، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، وهذا جُلُّ غرضِهم؛ فإنَّهم أحبُّوه حبًّا شديدًا، وقد منعهُ الله من المراضع، فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت بتمام حِفْظه وكفالته والنُّصح له بادروا إلى إجابتها، فأعْلمتْهم ودلَّتْهم على أهل هذا البيت، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ كما وعدْناها بذلك، ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيث إنَّه تربَّى عندها علـى وجهٍ تكون فيه آمنةً مطمئنةً تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، فأريْناها بعضَ ما وعدْناها به عيانًا؛ ليطمئنَّ بذلك قلبُها، ويـزدادَ إيمانها، ولِتَعْلم أنَّه سيحصُلُ وعدُ الله في حفظه ورسـالته، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فإذا رأوا السبب متشوِّشًا شـوَّشَ ذلك إيمانهم؛ لعدم علمهم الكامل أنَّ الله تعالى يجعلُ الـمِحَنَ والعقباتِ الشاقَّةَ بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة.

فاستمرَّ موسى عليه الصلاة والسلام عند آلِ فرعونَ، يتربَّى في سلطانهم، ويركبُ مراكِبَهم، ويلْبسُ ملابسـهم، وأمُّه بذلك مطمئنةٌ، قد اسـتقرَّ أنَّها أمُّه من الرضاع، ولم يُسـتنكَرْ ملازمتُه إيَّاها وحُنوُّها عليه، وتأمَّل هذا اللطف، وصيانة نبيِّه موسى من الكذب في منطقه، وتيسـير الأمر الذي صار به التعلُّق بينه وبينها، الذي بانَ للناس أنه هو الرضاعُ الذي بسـببه يسـمِّيها أُمًّا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كلِّه صدقًا وحقًّا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ

عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۞ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۞ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۞ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص: ١٤ ـ ٢٢].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ من القـوَّة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سـنة في الغالب، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾، كملت فيه تلك الأمورُ، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: حُكمًا يعرف به الأحكام الشـرعيَّة، ويحكُم به بين الناس، وعلمًا كثيرًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، المحسـنين لخَلْق الله؛ نعطيهـم علمًا وحكمًا بحسب إحسانهم، ودلَّ هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام. ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، إما وقـت القائلة، أو غير ذلك مـن الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، أي: يتخاصمان ويتضاربان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من بني إسـرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ القبط، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ لأنَّه قد اشـتهر، وعَلِم الناس أنَّه من بني إسرائيل، واستغاثتُهُ لموسـى دليلٌ على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغًا يُخافُ منه، ويُرجَى من بيت المملكة والسـلطان، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾، أي: وَكَـزَ[1] الذي من عدوِّه استجابةً لاستغاثة الإسرائيليِّ، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: أماته من تلك الوكزة؛

---

(١) الوَكْز: الطَّعْن، والدَّفع، والضَّرب بجميع الكفِّ.

لشدَّتها وقوَّة موسى، فندم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما جرى منه، و﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من تزيينه ووسوسته، ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، فلذلك أجريتُ ما أجريتُ بسبب عداوته البيِّنة، وحرصه على الإضلال، ثم استغفر ربَّه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، خصوصًا للمُخْبِتين، المبادرين للإنابة والتوبة؛ كما جرى من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعينًا ومساعدًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: لا أُعِين أحدًا على معصيةٍ، وهذا وَعْدٌ من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بسبب مِنَّة الله عليه أنْ لا يُعينَ مجرِمًا، كما فعل في قتل القبطيِّ، وهذا يفيدُ أنَّ النعم تقتضي من العبد فعل الخير، وترك الشر.

فلمَّا جرى منه قتْل الذي هو مِن عَدُوِّه أصبح ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعرُ به آلُ فرعون أم لا؟ وإنما خاف؛ لأنَّه قد علِم أنَّه لا يتجرَّأ أحدٌ على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل، فبينما هو على تلك الحال؛ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ على عدوِّه ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ على قبطيٍّ آخر، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ موبِّخًا له على حاله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّنُ الغواية، ظاهر الجراءة، ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ موسى ﴿بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: له وللمخاصم المستصرخ لموسى، أي: لم يَزَل اللِّجاجُ بين القبطيِّ والإسرائيليِّ، وهو يستغيثُ بموسى، فأخذته الحميَّة، حتى همَّ أن يبطش بالقبطي، فقال له القبطيُّ زاجرًا له عن قتله: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ من أعظم آثار الجبَّار في الأرض قتلَ النفس بغير حق، ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ وإلَّا فلو أردت الإصلاح لحُلْت بيني وبينه من غير قتل أحدٍ، فانكفَّ موسى عن قتله، وارْعوى لوعظه وزجره، وشاع الخبرُ بما جرى من موسى في هاتين القضيَّتين، حتى تراوَد ملأُ فرعون وفرعونُ على قتله، وتشاوروا على ذلك، فقيَّض الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع

عليه رَأْيُ مَلَئِهم، فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أي: ركضًا على قدميه من نُصْحِهِ لموسى، وخوفِهِ أن يوقِعوا به، قبلَ أن يشعر، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك؛ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ عن المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فامتثل نُصحه. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن يُوْقع به القتل، ودعا الله و﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنَّه قد تاب من ذنبه، وفَعَلَهُ غضبًا من غير قصدٍ منه للقتل؛ فتوعُّدُهم له ظلمٌ منهم وجراءةٌ، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قاصدًا بوجهه مدينَ، وهو جنوبيُّ فلسطين حيث لا ملك لفرعون، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولةٍ ورفقٍ، فهداه الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۞ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۞ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ۞ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٨].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشيةٍ كثيرةٍ، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: دون تلك الأمة، ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما عن حياض الناس؛ لعجْزهما عن مزاحمة الرجال، وبُخْلِهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿قَالَ﴾ لهما موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، أي: ما شأنُكما بهذه الحالة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: قد جرتِ

العادةُ أنَّه لا يحصل لنا سقي حتى يُصْدِرَ الرعاء مواشيهم[1]؛ فإذا خلا لنا الجوُّ سـقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾، أي: لا قوَّة له على السـقي، فليس فينا قوةٌ نقتدِرُ بها، ولا لنا رجالٌ يزاحِمون الرعاء، فَرَقَّ لهما موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ ورحمهما، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غيرَ طالبٍ منهما الأجر، ولا له قصدٌ غيرَ وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شـدة حرٍّ وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ مستريحًا لتلك الظلال بعد التعب، ﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة مسترزقًا ربَّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾، أي: إنِّي مفتقرٌ للخير الذي تسوقُهُ إليَّ وتيسِّرُه لي، وهذا سـؤالٌ منه بحاله، والسـؤال بالحال أبلغُ من السؤال بلسان المقال، فلم يَزَل في هذه الحالة داعيًا ربه متملِّقًا، وأما المرأتان فذهبتَا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾، وهذا يدلُّ على كرم عنصرِها، وخُلُقها الحسـن؛ فإنَّ الحيـاء من الأخـلاق الفاضلة، وخصوصًا في النسـاء، ويـدلُّ على أنَّ موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن فيما فعلـه من السـقي بمنزلة الأجير والخـادم الذي لا يُسـتحى منه عادة، وإنَّما هو عزيزُ النفس، رأتْ من حُسْـن خُلُقه ومكارمُ أخلاقه ما أوجبَ لها الحياء منه، فقالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾، أي: لا لِيمُنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنَّما قصدُه أن يكافِئَك على إحسانك، فأجابها موسى، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾، من ابتداء السـبب الموجِب لهربه، إلى أن وصل إليه، ﴿قَالَ﴾ مسكِّنًا رَوْعه، جابرًا قلْبَه: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: ليذهبْ خوفك ورَوْعك؛ فإنَّ الله نجَّاك منهـم، حيث وصلتَ إلى هـذا المحلِّ الذي ليـس لهم عليه سـلطانٌ، ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾، أي: إحدى ابنتَيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، أي: اجْعَلْه أجيرًا عندك يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ أي:

(١) أي: يردُّ الرعاةُ أغنامَهم عن الماء.

إنَّ موسى أَوْلى مَنِ استُؤْجِر؛ فإنَّه جمع القوَّة والأمانة، وخير أجيرٍ استُؤْجِر مَن جمعهما؛ أي: القوَّة والقدرة على ما استُؤْجِر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارُهما في كلِّ من يتولَّى للإنسان عملًا بإجارة أو غيرها؛ فإنَّ الخلل لا يكون إلا بفقدهما، أو فَقْد إحداهما، وأمَّا باجتماعهما فإنَّ العمل يتمُّ ويكمُلُ، وإنَّما قالت ذلك لأنَّها شاهدت من قوة موسى عند السَّقْي لهما ونشاطه ما عرفتْ به قوَّته، وشاهدتْ من أمانته وديانته، وأنَّه رحمهما في حالةٍ لا يُرجى نفعهما، وإنَّما قصْدُه بذلك وجه الله تعالى.

فقال صاحبُ مدْين لموسى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي: تصير أجيرًا عندي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾، أي: ثماني سنين، ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ تبرُّع منك لا شيء واجبٌ عليك، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ فأُحتِّم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجِرك لأكلِّفك أعمالًا شاقَّة، وإنَّما استأجرتك لعمل سهل يسيرٍ لا مشقَّة فيه، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فرغَّبه في سهولة العمل، وفي حُسْن المعاملة، وهذا يدلُّ على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يُحسِّن خُلُقَهُ مهما أمكنه، وأنَّ الذي يُطْلب منه أبلغُ من غيره، فقال موسى عليه السلام ـ مجيبًا له فيما طلبه منه ـ: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾، أي: هذا الشرط الذي أنت ذكرت رضيتُ به، وقد تمَّ فيما بيني وبينك، ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ سواء قضيتُ الثماني الواجبة، أم تبرَّعْت بالزائد عليها، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ حافظٌ يراقِبُنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه.

وهذا الرجلُ أبو المرأتين صاحبُ مدين ليس بشعيب النبيِّ المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس؛ فإنَّ هذا قولٌ لم يدلَّ عليه دليلٌ، وغايةُ ما يكون أن شعيبًا عليه السلام قد كانت بلده مدين، وهذه القضيةُ جرتْ في مدين؛ فأين الملازمة بين الأمرَين؟! وأيضًا فإنَّه غير معلوم أن موسى أدركَ زمان شعيبٍ، فكيف

بشـخصه؟! ولو كان ذلك الرجلُ شـعيبًا لذكره الله تعالى، ولسمَّته المرأتان، وأيضًا فإنَّ شعيبًا عليه الصلاة والسلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إيَّاه، ولم يبقَ إلا منْ آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لبنتَيْ نبيِّهم بمنعهما عن الماء وصدِّ ماشيتهما حتى يأتِيَهُما رجلٌ غريبٌ، فيُحسِنُ إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيبٌ ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادمًا له وهو أفضلُ منه وأعلى درجةً، إلا أنْ يُقال: هذا قبل نبوَّة موسى فلا منافاة، وعلى كلِّ حال لا يُعتمد على أنَّه شعيبٌ النبيُّ بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ، والله أعلم.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ۝ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٥].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ يُحتمل أنَّه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظنُّ بموسى ووفائه؛ اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته ووطنه، وظنَّ من طـول المدَّة أنَّهم قد تناسَـوْا ما صدر منه، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قاصدًا مصر، ﴿ءَانَسَ﴾، أي: أبصر، ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وكان قد أصابهم البردُ، وتاهُوا في الطريـق، فلمَّا أتاها نُودِي: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ

﴿رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾، فأخبر بألوهيَّته وربوبيَّته، ويلزم من ذلك أنْ يأمُره بعبادته وتألُّهه، كما صرَّح به في الآية الأخرى، ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾، فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ تسعى سعيًا شديدًا، ولها صورةٌ مَهيلة ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ ذَكَرُ الحيات العظيم، ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾، أي: يرجع لاستيلاء الرَّوْع على قلبه، فقال الله له: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، وهذا أبلغُ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف؛ فإنَّ قوله: ﴿أَقۡبِلۡ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكونُ إقباله، وهو لم يَزَل في الأمرِ المَخُوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفۡ﴾، أمر له بشيئين: إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوفٌ، ولكن يبقى احتمالٌ، وهو أنَّه قد يُقْبِل وهو غير خائفٍ، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، فحينئذٍ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنًّا واثقًا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتمَّ يقينه، فهذه آيةٌ أراه الله إيَّاها قبل ذهابه إلى فرعون؛ ليكون على يقين تام، فيكون أجرأ له، وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى، فقال: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ﴾، أي: أَدْخِلْها ﴿فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾، فسلكها وأخرجها، كما ذكر الله تعالى، ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾، أي: ضُمَّ جناحك - وهو عضُدُك - إلى جنبك؛ ليزول عنك الرَّهْب والخوف، ﴿فَذَٰنِكَ﴾: انقلاب العصا حيةً، وخروج اليد بيضاء من غير سوء، ﴿بُرۡهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: حُجَّتان قاطعتان من الله ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾، فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إيَّاهم، بل لا بدَّ من الآيات الباهرة، إن نفعت، فقال موسى عليه السلام معتذرًا من ربه، وسائلًا له المعونة على ما حَمَّلَه، وذاكرًا له الموانع التي فيه؛ ليزيل ربُّه ما يحْذَره منها: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾، أي: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾، أي:

معاونًا ومساعدًا ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ فإنَّه مع تضافُر الأخبار يقوى الحقُّ، فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، أي: نعاونُك به ونقوِّيك، ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾، أي: تسلُّطًا، وتمكُّنًا من الدعوة بالحجَّة، والهيبة الإلهيَّة من عَدُوِّهما لهما، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، وذلك بسبب آياتنا، وما دلَّت عليه من الحق، وما أزعجت به مَن باشَـرَها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيدُ عدوكم، وصارت لكم أبلغ من الجنود أولي العَدَدِ والعُدَدِ، ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، وهذا وعدٌ لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريدٌ، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تَزَل الأحوال تتطوَّر، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكَّنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبةُ والظهورُ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۞ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۞ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۞ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ۞ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۞ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۞ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ۞ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ۞ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۞ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۞ وَمَا تَنقِمُ

مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۞ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۞ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۞ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۞ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٣٥].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعـون يدعوه إلى الإيمان: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: إني رسولٌ من مُرْسِلٍ عظيم، وهو ربُّ العالمين، الشامل للعالم العلوي والسـفلي، مربِّي جميع خَلْقِه بأنواع التدابير الإلهيَّة، التي من جملتها أنه لا يتركهم سـدى، بل يُرْسِـل إليهم الرُّسُـل مبشِّـرين ومنذرين، وهـو الذي لا يقدر أحـدٌ أن يتجرَّأ عليه، ويدَّعي أنه أرسـله ولم يُرْسِله، فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته؛ فحقيقٌ عليَّ أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحقَّ؛ فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أَخْذَ عزيـز مقتدر، فهذا مُوجِبٌ لأن ينقـادوا له ويتَّبعوه، خصوصًا وقد جاءهم ببيِّنة من الله واضحة على صحَّـة ما جاء به من الحقِّ، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به،

واتِّباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضَّله الله على العالمين أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب ﵇، الذي موسى ﵊ واحدٌ منهم، فقال له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي: حية ظاهرةٌ تسعى، وهم يشاهدونها، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ من غير سـوءٍ؛ فهاتان آيتان كبيرتان دالَّتان على صحة ما جاء به موسى وصِدْقه، وأنَّه رسولُ ربِّ العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم؛ فلهذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، أي: ماهرٌ في سحره، ثم خوَّفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول بأنه ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، أي: يريد أن يُجليكم مـن أوطانكم، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم؛ فإنَّ ما جاء به إن لم يقابَلْ بما يبطِلُـه ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالـوا لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، أي: احبسهما وأَمْهِلْهُما، وابعثْ في المدائن أناسًا يحشُرون أهل المملكة، ويأتون بكل سحَّارٍ عليم، أي: يجيئون بالسـحرة المهرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۝ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

وقال هنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجـزاء إن غلبوا، فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾؟ فقـال فرعـون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهـم الأجـر والتقريـب، وعُلُوَّ المنزلـة عنده؛ ليجتهدوا ويبذُلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم، ﴿قَالُوا﴾ على وجـه التألِّي وعدم المبالاة بما جاء به

موسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما معك، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، فقال موسى: ﴿أَلْقُوا۟﴾ لأجل أن يرى الناسُ ما معهم وما مع موسى، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ حبالهم وعصيَّهم إذا هي مِن سِحْرِهم كأنها حياتٌ تسعى، فسحروا ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ لم يوجدْ له نظيرٌ من السحر، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألْقاها، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ حيَّةٌ تسعى، فتلقف جميعَ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: يُكَذِّبون به ويُمَوِّهون، ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: تبيَّنَ، وظهر واستعلن في ذلك المجمع، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾، أي: في ذلك المقام، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾، أي: حقيرين قد اضمحلَّ باطلهم، وتلاشى سِحْرُهم، ولم يحصُل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله، وأعظم مَن تبيَّن له الحقُّ العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يَدان لأحد بها، فأُلْقِي ﴿ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۞ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، أي: وصدَّقنا بما بُعِثَ به موسى من الآيات البينات، فقال لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ متهدِّدًا على الإيمان: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، كان الخبيث حاكمًا مستبِدًّا على الأبدان والأقوال، قد تقرَّر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذٌ فيهم، ولا خروج لأحدٍ عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحطُّ الأمم وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾، وقال هنا: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، أي: فهذا سوءُ أدبٍ منكم وتجرُّؤ عَليَّ، ثم موَّه على قومه، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾، أي: إن موسى كبيركم الذي علَّمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلِبوا له فيظهرَ فتتَّبعونه، ثم يتَّبعكم الناس أو جمهورهم، فتُخْرِجوا منها أهلها، وهذا كذب يعلم هو ومَن سبر الأحوال أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحدٍ منهم، وأنهم

جُمِعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهيَّة، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبيَّن لهم الحق، فاتبعوه، ثم توعَّدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أحِلُّ بكم من العقوبة.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ زعم الخبيثُ أنَّهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين؛ من تقطيع الأيدي والأرجل من خلافٍ، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ في جذوع النخل؛ لتَخْتَزُوا[1] بزعمه ﴿أَجْمَعِينَ﴾، أي: لا أفعل هذا الفعل بأحدٍ دون أحدٍ، بل كلُّكم سيذوق هذا العذاب. فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهدَّدهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، أي: فلا نبالي بعقوبتك؛ فالله خيرٌ وأبقى، فاقضِ ما أنت قاضٍ، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾، أي: وما تعيب منَّا على إنكارك علينا وتوعُّدك لنا، فليس لنا ذنبٌ ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾، فإنْ كان هذا ذنبًا يُعاب عليه، ويستحقُّ صاحبه العقوبة، فهو ذنبُنا، ثم دعوا الله أن يثبِّتهم ويصبِّرهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾، أي: أَفِضْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، أي: عظيمًا، كما يدلُّ عليه التنكير؛ لأنَّ هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير؛ ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، أي: منقادين لأمرك، متَّبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعَّدهم عليه، وأنَّ الله تعالى ثبَّتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملؤه وعامَّتهم المتَّبِعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلمًا وعُلُوًّا، وقالوا لفرعون مهيِّجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكنَّ الظالمين لا يبالون بما يقولون،

---

(١) أي: ليصيبكم الخزيُ والهوان.

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك، فقال فرعونُ مجيبًا لهم بأنه سَيَدَعُ بني إسرائيل مع موسى بحالةٍ لا يَنْمُون فيها، ويأمنُ فرعونُ وقومهُ بزعمه من ضررهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، أي: نستبقيهنَّ فلا نقتلهنَّ، فإذا فعلْنا ذلك أَمِنَّا من كثرتهم، وكنَّا مستخدمين لباقيهم، ومسخِّرين لهم على ما نشاء من الأعمال، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتوِّ والقسوة.

فقال ﴿مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موصيًا لهم ـ في هذه الحالة التي لا يقدرون معها على شيء ولا مقاومة ـ بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانيَّة: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي: اعتمدوا عليه في جَلْب ما ينفعكم، ودفع ما يضرُّكم، وثِقوا بالله أنه سيتمُّ أمركم، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، أي: الزموا الصبر على ما يحلُّ بكم، منتظرين للفرج، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكَّموا فيها، ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتَّقين؛ فإنَّهم وإن امتُحِنوا مدةً ابتلاءً من الله وحكمة فإنَّ النصر لهم، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة لهم على قومهم، وهذه وظيفة العبد؛ أنَّه عند القدرة أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه، وعند العجز أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج، ﴿قَالُوٓاْ﴾ لموسى متضجِّرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون وأذيَّته: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾، فإنهم يسوموننا سوء العذاب، يذبِّحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ كذلك، فقال لهم موسى مرجيًا لهم الفرج والخلاص من شرِّهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يمكِّنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، هل تشكُرون أم تكفُرون، وهذا وعدٌ أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراده الله.

قال الله تعالى في بيان ما عامَلَ بـه آلَ فرعون في هذه المدة الأخيرة: إنها على عادته وسـنته في الأمـم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ الآيات: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾، أي: بالدُّهور والجدب، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، أي: يتَّعظون أنَّ ما حلَّ بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلَّهم يرجِعون عن كفرهم، فلم ينجعْ فيهم ولا أفاد، بل استمرُّوا على الظُّلم والفساد، ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾، أي: الخصب وإدرار الـرزق، ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، أي: نحن مستحقُّون لها، فلم يشـكروا الله عليها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾، أي: قحط وجـدب، ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، أي: يقولوا: إنما جاءنا بسـبب مجيء موسى، واتِّبَاع بني إسرائيل له.

قال الله تعالـى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، أي: بقضائه وقَدَرِه، ليس كما قالـوا، بـل إن ذنوبهم وكفرهـم هو السـبب في ذلك، بـل ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ مبيِّنين لموسى أنهم لا يزالون ولا يَزُولُون عن باطلهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: قـد تقـرَّر عندنا أنك ساحرٌ؛ فمهما جئت بآية جزمنا أنها سـحرٌ، فلا نؤمن لك ولا نصدِّق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾، أي: المـاء الكثيـر الـذي أغـرق أشـجارهم وزروعهم، وأضرَّ بهم ضررًا كثيرًا، ﴿وَٱلْجَرَادَ ﴾، فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم، ﴿وَٱلْقُمَّلَ ﴾، قيل: إنه الدُّباء، أي: صغـار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ ﴾، فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وآذتهم أذيَّة شديدةً، ﴿وَٱلدَّمَ﴾ إما أن يكونَ الرُّعَاف، أو كما قال كثير من المفسرين: إنَّ ماءهم الذي يشربون انقلب دمًا، فكانوا لا يشربون إلا دمًا، ولا يطبخون إلا بدم، ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾، أي: أدلَّة

وبيِّنـات على أنَّهم كانـوا كاذبين ظالميـن، وعلى أن ما جاء به موسـى حقٌّ وصدقٌ، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ لمـا رأوا الآيـات، ﴿وَكَانُوا۟﴾ في سـابق أمرهم ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، فلذلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، أي: العذاب، يحتمل أنَّ المراد به: الطاعون، كما قاله كثيرٌ من المفسـرين، ويحتمل أن يُـراد به ما تقدَّم من الآيـات: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، فإنها رجزٌ وعـذابٌ، وإنهم كلَّما أصابهم واحد منها؛ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، أي: تشفَّعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشـرع، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهم في ذلك كَذَبةٌ، لا قصـدَ لهم إلا زوالُ ما حلَّ بهم من العذاب، وظنُّوا إذا رُفِـع لا يصيبهم غيره، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، أي: إلى مدة قدَّر الله بقاءهم إليها، وليس كشفًا مؤبَّدًا، وإنما هو مؤقت، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل؛ فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمرُّوا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٩].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موصيًا لقومه بالصبر، ومذكرًا لهم ما يسـتعينون به على ذلك، فقـال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فقومـوا بوظيفة الإيمـان، وعلى الله

﴿ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾، أي: اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستنصِروه، ﴿ فَقَالُواْ ﴾ ممتثلين لذلك: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي: لا تسلِّطهم علينا فيفتِنُونا، أو يغْلِبُونا، فيفْتتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حقٍّ لما غُلِبوا، ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لنَسْلَم من شرِّهم، ولنقيم على ديننا على وجهٍ نتمكَّن به من إقامة شرائعه، وإظهاره من غير معارض ولا منازع، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ﴾ حين اشتدَّ الأمر على قومهما من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم، ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾، أي: مُرُوهم أن يجعلوا لهم بيوتًا يتمكَّنون من الاستخفاء فيها، ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾، أي: اجعلوها محلًّا تُصَلُّون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبِيَع العامَّة، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فإنها معونةٌ على جميع الأمور، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم؛ فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا، وحين اشتدَّ الكرب، وضاق الأمر؛ فرَّجه الله ووسَّعه، فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون ومَلَئِه دعا عليهم وأمَّن هارونُ على دعائه، فقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ يتزينون بها من أنواع الحليِّ والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخدام، ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ عظيمةً ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾، أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيضِلُّون ويُضِلُّون، ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، أي: أتلفها عليهم؛ إما بالهلاك، وإما بجَعْلها حجارةً غير منتفع بها، ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، أي: قسِّها، ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ قال ذلك غضبًا عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدُّوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربِّه بأنَّ الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم، ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾، هذا دليلٌ على أن موسى كان يدعو، وهارون يؤمِّن على دعائه، وأن الذي يؤمِّن

يكون شريكًا للداعي في ذلك الدعاء، ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ على دينكما، واستمِرَّا على دعوتكما، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لا تتبعانِّ سبيل الجهَّال الضُّلَّال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتَّبِعين لطرق الجحيم.

﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۞ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۞ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۞ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۞ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۞ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۞ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۞ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۞ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۞ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۞ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٦].

فلمَّا يئِس موسى من إيمانهم، وحقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب، وآنَ لبني إسرائيل أن ينجيهم من أَسْرِهِم، ويمكِّنَ لهم في الأرض؛ أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ﴾، أي: اخرُجْ ببني إسرائيلَ أولَ الليل؛ ليتمادَوْا ويتمهَّلوا في ذهابهم، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، أي: سيتبعُكم فرعون وجنوده، ووقع كما أخبر؛ فإنَّهم لما أصبحوا وإذا بنو إسرائيل قد سَرَوْا كلُّهم مع موسى. ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يجمعون الناس؛ ليُوقِع ببني إسرائيل، ويقولُ مشجعًا لقومه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: بني إسرائيل ﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، فنريد أن ننفِّذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أَبَقُوا منَّا، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفيرٍ عامٍّ، لم يتخلَّف منهم سوى أهل الأعذار الذين منعهم العجزُ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾، أي: بساتين مصر وجنانها الفائقة، وعيونها المتدفِّقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم

وبواديهم، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يُعجِبُ الناظرين، ويُلهــي المتأمِّلين؛ تمتَّعوا به دهرًا طويلًا، وقضوا بلذَّاته وشهواته عمرًا مديدًا على الكفر والفساد، والتكبُّر على العباد والتيه العظيم، ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾، أي: هذه البساتين والعيون، والزُّروع، والمقام الكريم، ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الذين جعلوهم من قبْلُ عبيدَهم، وسُخِّروا في أعمالهم الشاقَّة، فسبحان مَنْ يؤتي الملك مَنْ يشاءُ، وينزِعُه عمَّن يشاءُ، ويُعزُّ من يشاءُ بطاعته، ويذلُّ من يشاء بمعصيته.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾، أي: اتَّبــع قومُ فرعون قومَ موســى وقتَ شُــروقِ الشمس، وساقوا خلفهم مُحِثِّين على غَيْظٍ وحنق قادِرين، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾، أي: رأى كلٌّ منهما صاحبه، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ شــاكِين لموســى وحَزِنين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، فقال موسى مُثبِّتًا لهم، ومُخْبِرًا لهم بوعدِ ربِّه الصادق: ﴿كَلَّآ﴾، أي: ليس الأمر كما ذكرتُم أنَّكم مُدْركون، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتُكم، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضربه، ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ اثني عشــر طريقًا، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ﴾، أي: الجبل ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾، فدخله موسى وقومــه، ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ في ذلــك المــكان ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾، أي: فرعــون وقومه، قرَّبْناهم، وأدخلْناهم في ذلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ استكْملوا خارجين، لم يتخلَّفْ منهم أحدٌ، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ لم يتخلَّفْ منهم عن الغرقِ أحدٌ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢].

حتى إذا أدرك فرعونَ الغرقُ، وجــزم بهلاكه؛ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهو الله الإله الحقُّ الذي لا إله إلا هو، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾،

أي: المنقادين لدين الله، ولِمَا جاء به موسى، قال الله تعالى مُبَيِّنًا أنَّ هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ تؤمن، وتُقِرُّ برسول الله، ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾، أي: بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فلا ينفعُك الإيمان كما جرتْ عادةُ الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطراريَّة أنَّه لا ينفعهم إيمانهم؛ لأنَّ إيمانهم صار إيمانًا مشاهَدًا؛ كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفعُ إنما هو الإيمان بالغيب، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾، قال المفسِّرون: إنَّ بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون كأنَّهم لم يصدِّقوا بإغراقه، وشكُّوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يُلقِيَهُ على نَجْوَةٍ[1] مرتفعةٍ ببدنه؛ ليكون لهم عبرة وآية، ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، فلذلك تمرُّ عليهم وتتكرَّر فلا ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، وأما مَن له عقلٌ وقلبٌ حاضر فإنَّه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحَّة ما أخبرت به الرُّسُل.

---

(١) النَّجْوة: ما ارتفع من الأرض.

فوائد من هذه القصة

فمنها: أنَّ آياتِ الله تعالى وعِبَرَه وأيامَه في الأمم السابقة إنَّما يستفيدُ بها ويستنيرُ المؤمنون؛ فعلى حسب إيمان العبد تكون عِبْرَتُهُ، وإنَّ الله تعالى إنَّما يسوقُ القصص لأجلهم؛ كما قال الله تعالى في هذه القصة: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وأمَّا غَيْرُهم فلا يعبأ الله بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدى.

ومنها: أنَّ الله تعالى إذا أراد أمرًا هَيَّأ أسبابَه، وأتى بها شيئًا فشيئًا بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أنَّ الأمَّة المستضعَفة ـ ولو بلغت في الضعف ما بلغتْ ـ لا ينبغي لها أنْ يستولي عليها الكسلُ عن طلبِ حقِّها، ولا الإياسُ من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصًا إذا كانوا مظلومين؛ كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل الأمَّة الضعيفة من أَسْر فرعون ومَلَئِه، ومكَّنهم في الأرض، وملَّكهم بلادَهم.

ومنها: أنَّ الأمة ما دامت ذليلةً مقهورةً لا تأخُذُ حقَّها ولا تتكلَّم به لا يقوم لها أمرُ دينها ولا دُنياها، ولا يكون لها إمامةٌ فيه.

ومنها: لطف الله بأمِّ موسى بذلك الإلهام الذي به سَلِم ابنها، ثم تلك البشارة من الله لها بِرَدِّه إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها، ثم رَدَّهُ إليها بإلجائه إليها قَدَرًا بتحريم المراضع عليه، وبذلك وغيره يُعْلَم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصوَّرها العقول، ولا تعبِّر عنها العبارات، وتأمَّل موقع هذه البشارة، وأنه أتاها ابنها ترضعه جهرًا، وتأخذ عليه أجرًا، وتسمى أمه شرعًا وقَدَرًا، وبذلك اطمأن قلبها، وازداد إيمانها، وفي هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة ٢١٦]،

فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة.

ومنها: أنَّ الله يُقدِّرُ على عبده بعضَ المشاقِّ؛ لِيُنيلَه سرورًا أعظم من ذلك، أو يدفعَ عنه شرًّا أكثر منه، كما قدَّر على أمِّ موسى ذلك الحزن الشديد، والهمَّ البليغ الذي هو وسيلةٌ إلى أن يَصِلَ إليها ابنُها على وجهٍ تطمئنُّ به نفسها، وتَقَرُّ به عينُها، وتزداد به غبطةً وسرورًا.

ومنها: أنَّ الخوف الطبيعيَّ من الخلق لا يُنافي الإيمان ولا يُزيلُه؛ كما جرى لأمِّ موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأنَّ من أعظم ما يزيدُ به الإيمان، ويتمُّ به اليقينُ: الصبرُ عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلِقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليزداد إيمانُها بذلك ويطمئنَّ قلبُها.

ومنها: أنَّ من أعظم نِعَم الله على عبدِهِ، وأعظم معونةٍ للعبد على أمورِهِ؛ تثبيتُ الله إيَّاه، ورَبْطُ جأشِهِ وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة؛ فإنَّه بذلك يتمكَّن من القول الصواب، والفعل الصواب؛ بخلاف من استمرَّ قلقُه ورَوْعُه وانزعاجُه؛ فإنَّه يضيع فِكْرُه، ويذهل عقله؛ فلا ينتفعُ بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أنَّ العبد ولو عرف أنَّ القضاء والقدر حق، ووَعْد الله نافذٌ لا بدَّ منه؛ فإنَّه لا يهمل فِعْلَ الأسباب التي أُمِرَ بها، فإن الأسباب والسعي فيها من قَدَر الله، ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله؛ فإنَّ الله قد وعد أمَّ موسى أن يردَّه عليها، ومع ذلك اجتهدت على ردِّه لما التقطه آل فرعون، وأرسلتْ أخته لتقُصَّه وتطلُبَه.

ومنها: جـواز خروج المرأةِ فـي حوائِجِها، وتكليمهـا للرجال، من غير محذورٍ، كما جرى لأخت موسى وابنتَيْ صاحب مدينَ.

ومنها: جوازُ أخْذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على مَن يفعلُ ذلك، كما فعلت أم موسى، فإن شَـرْعَ مَن قبلنا شرع لنا ما لم يَرِد من شرعنا ما ينسخه.

ومنها: أنَّ الله مـن رحمته بعبده الضعيف الذي يريـد إكرامه أنه يُرِيه من آياته، ويُشْهِده من بيِّناته، ما يزيدُ به إيمانه، كما ردَّ الله موسى على أمِّه؛ لتعلمَ أنَّ وعد الله حقٌّ.

ومنها: أنَّ قَتْـل الكافـر الذي له عهـدٌ بعقـدٍ أو عُرفٍ لا يجـوزُ؛ فإنَّ موسى عليه السلام عدَّ قتلَه القبطيَّ الكافر ذنبًا، واستغفر الله منه وتاب إليه.

ومنها: أنَّ الذي يقتُلُ النفوس بغير حقٍّ يُعَدُّ من الجبارين الذين يفسِدون في الأرض.

ومنها: أنَّ مَن قتل النفوس بغير حقٍّ، وزعم أنَّه يريد الإصلاح في الأرض، وتهييب أهل المعاصي؛ فإنَّه كاذبٌ في ذلك، وهو مفسدٌ؛ كما حكى الله قولَ القبطـيِّ: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أنَّ إخبارَ الرجلِ غيرَه بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شرٍّ يقع فيه؛ لا يكـونُ ذلك نميمةً، بل قـد يكونُ واجبًا، كما سـاق الله خبر ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى محذِّرًا لموسى على وجه الثناء عليه.

ومنها: أنَّه إذا خاف القتل والتَّلَف في إقامته في موضع؛ فإنَّه لا يُلْقِي بيده إلى التَّهلكة، ولا يستسـلم للهلاك، بل يَفِرُّ من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى.

ومنها: أنَّه عند تزاحُم المفسدتين إذا كان لا بدَّ من ارتكاب إحداهما فإنَّه يرتكبُ الأخفَّ منهما والأسلم؛ دفعًا لما هو أعظم وأخبر، فإنَّ موسى لما دار الأمرُ بين بقائه في مصر ولكنَّه يُقتل، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعْرفُ الطريق إليها، وليس معه دليلٌ يدلُّه غير ربِّه، ولكن هذه الحالة أرجى للسلامة من الأولى، فتبِعَها موسى.

ومنها: أنَّ الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلُّم فيه إذا لم يترجَّحْ عنده أحدُ القولَين؛ فإنَّه يستهدي ربَّه، ويسألُه أن يهْدِيَه الصواب من القولين، بعد أن يقصِدَ بقلبه الحقَّ ويبحث عنه؛ فإنَّ الله لا يُخَيِّبُ مَن هذه حاله؛ كما جرى لموسى لما قصد تلقاءَ مدينَ، ولا يدري الطريق المُعِين إليها، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقد هداه الله، وأعطاه ما رجاه وتمنَّاه.

ومنها: أنَّ الرحمة بالخَلْق، والإحسان على من يعْرِفُ ومن لا يعْرِفُ؛ من أخلاق الأنبياء، وأنَّ من جملة الإحسان الإعانة على سَقْي الماشية، وخصوصًا إعانة العاجز، كما فعل موسى مع ابنتَيْ صاحب مدين حين سقى لهما لَمَّا رآهما عاجزتَيْن عن سَقْي ماشيتهما قبل صدور الرعاة.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالِمًا بها؛ لأنَّه تعالى يحبُّ تضرُّع عبده، وإظهار ذُلِّه ومسكنته؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ومنها: أنَّ الله كما يحبُّ من الداعي أن يتوسَّلَ إليه بأسمائه وصفاته، ونِعَمِه العامة والخاصة، فإنَّه يحبُّ منه أن يتوسَّلَ إليه بضعفه وعجزه وفقره، وعدم قدرته على تحصيل مصالحه، ودفع الأضرار عن نفسه؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ لما في ذلك من إظهار التضرع والمسكنة، والافتقار لله الذي هو حقيقة كل عبد.

ومنها: أنَّ الحياء ـ خصوصًا من الكرام ـ من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يَزَل دأبَ الأمم الصالحين.

ومنها: أنَّ العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأةٌ عليه من غير قصدٍ بالقصد الأول؛ فإنَّه لا يُلام على ذلك، ولا يخلُّ بإخلاصه وأجره؛ كما قَبِل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغِ له، ولم يستشرفْ بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعيَّة الإجارة، وأنَّها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يُقدَّرُ به العمل، وإنَّما مرده العرف.

ومنها: أنَّه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بُضْعًا؛ كما قال صاحب مدين: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ الآية.

ومنها: أنَّ خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيَّره لا يلام عليه، بل قد يكون نفعًا وكمالًا؛ كما فعل صاحب مدين مع موسى.

ومنها: قوله: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾، هذان الوصفان بهما تمام الأعمال كلها، فكل عمل من الولايات، أو من الخدمات، أو من الصناعات، أو من الأعمال التي القصد منها الحفظ والمراقبة على العمال والأعمال إذا جمع الإنسان الوصفين؛ أن يكون قويًّا على ذلك العمل بحسب أحوال الأعمال، وأن يكون مؤتمنًا عليه، تمَّ ذلك العمل وحصل مقصوده وثمرته، والخللُ والنقص سببُه الإخلال بهما أو بأحدهما.

ومنها: من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخُلُق مع كل مَن يتَّصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومعامل وغيرهم، ومن ذلك تخفيف العمل عن العامل؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾،

وفيه أنه لا بأس أن يرغب المعامل في معاملته بالمعاوضات والإجارات؛ بأن يصف نفسه بحُسن المعاملة بشرط أن يكون صادقًا في ذلك.

ومنها: جوازُ عقد المعاملات؛ من إجارة وغيرها بغير إشهاد؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، وتقدم أن الإشهاد به تنحفظ الحقوق، وتقل المنازعات، والناس في هذا الموضع درجات متفاوتة، وكذلك الحقوق.

ومنها: الآيات البينات التي أيَّد الله بها موسى من انقلاب عصاه التي كان يعرفها: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، ثم عَوْدِها سيرتَها الأولى، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء من غير سوء للناظرين، ومِن عصمة الله وحمايته لموسى وهارون من فرعون ومَلَئه، ومن انفلاق البحر لَمَّا ضربه موسى بعصاه فصار اثنَيْ عشر طريقًا، وسلكه هؤلاء فنجوا، وقوم فرعون فهلكوا، وغير ذلك من الآيات المتتابعات التي هي براهين وآيات لمن رآها وشاهدها، وبراهين لمن سمعها، فإنَّها نقلتها معظم مصادر اليقين؛ الكتب السماوية، ونقلتها القرونُ كلُّها، ولم ينكرْ مثلَ هذه الآياتِ إلا جاهلٌ مكابرٌ زنديقٌ، وجميعُ آياتِ الأنبياءِ بهذه المثابة.

ومنها: أن آيات الأنبياء، وكرامات الأولياء، وما يخرقه الله من الآيات، ومن تغيير الأسباب، أو منع سببيتها، أو احتياجها إلى أسباب أُخَر، أو وجود موانع تعوقها؛ هي من البراهين العظيمة على وحدانية الله، وأنه على كل شيء قدير، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل الله في هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة، والنظامات المعهودة، وإنك لا تجد لسُنَّة الله تبديلًا ولا تحويلًا؛ **فإنَّ سنن الله في جميع الحوادث السابقة واللاحقة قسمان:**

أحدهما: وهو جمهور الحوادث والكائنات، والأحكام الشرعية والقدرية، وأحكام الجزاء لا تتغير، ولا تتبدل عما يعهده الناس، ويعرفون أسبابه، وهذا القسم أيضًا مندرج في قدرة الله وقضائه، ويُستفاد من هذا العلم بكمال حكمة

الله في خلقه وشرعه، وأن الأسباب والمسببات مَن سَلَك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها وثمراتها؛ ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التي رُتِّبَت على الأعمال شرعًا ولا قدرًا، وهذه توجب للعبد أن يَجِدَّ ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته بالله، والثناء على ربه في تيسيرها، وتيسير أسبابها وآلاتها، وكل ما تتوقف عليه.

والقسم الثاني: حوادث معجزات الأنبياء التي تواترت تواترًا لا يتواتر مثله في جميع الأخبار، وتناقلتها القرونُ كلُّها، وكذلك ما يكرمُ الله به عباده من إجابة الدعوات، وتفريج الكربات، وحصول المطالب المتنوعة، ودَفْع المكاره التي لا قدرة للعبد على دفعها، والفتوحات الربانية، والإلهامات الإلهية، والأنوار التي يقذفها الله في قلوب خواصِّ خَلْقِه، فيحصل لهم بذلك من اليقين والطمأنينة والعلوم المتنوعة ما لا يُدْرَك بمجرَّد الطلب وفعل السبب، ومنْ نصْرِه للرسل وأتباعهم، وخذلانه لأعدائهم، وهو مشاهَد في كثير من الأوقات.

فهذا القسم ليس عند الخلق اهتداء إلى أسباب هذه الحوادث، ولا جُعِلَ لهم في الأصل وصولٌ إلى حقيقتها وكنهها، وإنما هي حوادث قدَّرها الربُّ العظيمُ الذي هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، بأسبابٍ وحكمٍ وسننٍ لا يعقلها الخَلْق، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول إليها بوجه من الوجوه، وبها آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم، وأتباعهم الأوَّلون منهم والآخرون، وبها يعرف عظمة الباري، وأنَّ نواصي العباد بيده، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأْ لم يكنْ، ويعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل، كما يعرف أيضًا بالقسم الأول.

وكما أنه لا سبيل إلى العباد في هذه الدار إلى إدراك كُنْه صفات اليوم الآخر، وكُنْه ما في الجنة والنار، وإنما يعلمون منها ما علمتهم به الرسل، ونزلت به الكتب، ولا سبيل إلى أهل هذا الكون الأرضي للوصول إلى العالم

السماوي، ولا سبيل لهم إلى إحياء الموتى، وإيجاد الأرواح في الجمادات، فكذلك هذا النوع العظيم من حوادث الكون.

وإنما أَطَلْنا الكلام على هذه المسألة، وإن كانت تستحق من البسط أكثر من هذا؛ **لأمرين:**

أحدهما: أن الزنادقةَ المتأخِّرين الذين أنكروا وجودَ الباري، وأنكروا جميعَ ما أخبرت به الرسلُ، والكتبُ السماوية من أمور الغيب، ولم يُثبتوا من العلوم إلا ما وصلت إليه حواسُّهم وتجاربُهم القاصرة على بعض علوم الكون، وأنكروا ما سوى ذلك، وزعموا أن هذا العالم وهذا النظام الموجود فيه لا يمكن أن يغيِّره مُغَيِّر، أو يغير شيئًا من أسبابه، وأنه وُجِد صدفة من غير إيجاد مُوجِد، وأنه آلة تمشي بنفسها وطبيعتها، ليس لها مُدَبِّر، ولا رب ولا خالق، وهؤلاء جميع أهل الأديان يعرفون مكابرتهم ومباهتتهم؛ لأنهم كما عدموا الدين بالكلية فقد اختلَّت عقولهم الحقيقة؛ إذ أنكروا أجلى الحقائق وأوضحها، وأعظمها براهين وآيات، وتاهوا بعقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة، هؤلاء أمرهم معلوم، ولكن...

الأمر الثاني: أن بعض أهل العلم العصريين الذين يتظاهرون بنصر الإسلام، والدخول مع هؤلاء الزنادقة في الجدال عنه، يريدون باجتهادهم، أو اغترارهم أن يُطَبِّقوا السنن الإلهية وأمور الآخرة؛ على ما يعرفه العباد بحواسِّهم، ويدركونه بتجاربهم، فحرَّفوا لذلك المعجزات، وأنكروا الآيات البينات، ولم يستفيدوا إلا الضرر على أنفسهم، وعلى من قرأ كتاباتهم في هذه المباحث؛ إذ ضعف إيمانهم بالله بتحريفهم لمعجزات الأنبياء تحريفًا يؤول إلى إنكارها، وإنكارهم هذا النوع العظيم من قضاء الله وقدره، وضعف إيمان مَن وقف على كلامهم ممن ليست له بصيرة، ولا عنده من العلوم الدينية ما يُبطل هذا النوع، ولم يحصل ما زعموه من جلب الماديين إلى الهدى والدين، بل زادوهم إغراءً في مذاهبهم؛ لما رأَوا أمثالَ هؤلاء يحاولون

إرجاعَ النصوص الدينية، ومعجزات الأنبياء، وأمور الغيب إلى علومِ هؤلاء القاصرةِ على التجارب المدركات بالحواس.

فيا عِظَمَ المصيبة! ويا شدة الجرم المزوَّق، ولكن ضعف البصيرة والإعجاب بزنادقة الدهريين أوجب الخضوع لأقوالهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها: أنَّ من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إمامًا في الشر وداعيًا إليه، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أنَّ من أعظم نِعَم الله على العبد أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًا، قال تعالى في فرعون ومَلَئه: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

ومنها: ذكر كثير من أهل العلم أنه يُستفاد من قوله تعالى عن جواب موسى لربه لما سأله عن العصا، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ الآية، استحبابُ استصحاب العصا؛ لما فيه من هذه المنافع المعينة والمجملة في قوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، وأنه يُستفاد منها أيضًا الرحمة بالبهائم، والإحسان إليها، والسعي في إزالة ضررها.

ومنها: أن قوله جلَّ ذِكْره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾، أي: إن ذِكْر العبد لربه هو الذي خُلِق له العبد، وبه صلاحه وفلاحه، وأن المقصودَ من إقامة الصلاة إقامةُ هذا المقصود الأعظم، ولولا الصلاةُ التي تتكرَّرُ على المؤمنين في اليوم والليلة لتُذَكِّرهم بالله، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن، والثناء على الله، ودعائه والخضوع له الذي هو روح الذِّكْر، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين.

وكما أن الذِّكْرَ هو الذي خُلِقَ الخَلْقُ لأجله، والعبادات كلها ذكر لله، فكذلك الذِّكْر يُعِين العبد على القيام بالطاعات وإن شَقَّت، ويُهَوِّن عليه الوقوف بين يدي الجبابرة، ويخفِّف عليه الدعوة إلى الله، قال تعالى في هذه القصة: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾، وقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾.

ومنها: إحسان موسى عليه السلام على أخيه هارون؛ إذ طلب من ربه أن يكونَ نبيًّا معه، وطلبَ المعاونةَ على الخير والمساعدة عليه؛ إذ قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾، الآيات.

ومنها: أن الفصاحة والبيان مما يعين على التعليم، وعلى إقامة الدعوة، لهذا طلب موسى من ربه أن يَحُلَّ عقدةً من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وأن اللثغة لا عيبَ فيها إذا حصل الفهم للكلام، ومن كمال أدب موسى مع ربه أنه لم يسأل زوالَ اللَّثغة كلها؛ بل سأل إزالة ما يحصل به المقصود.

ومنها: أن الذي ينبغي في مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم: الرفق، والكلام اللين الذي يحصل به الإفهام بلا تشويش، ولا غلظة، وهذا يُحتاج إليه في كل مقام، لكن هذا أهم المواضع، وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود، وهو قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾.

ومنها: أن مَن كان في طاعة الله، مستعينًا بالله، واثقًا بوعد الله، راجيًا ثواب الله، فإن الله معه، ومن كان الله معه فلا خوف عليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ﴾، ثم علَّله بقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

ومنها: أن أسبابَ العذابِ منحصرةٌ في هذينِ الوصفينِ: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: كذَّب خبر الله، وخبر رُسُلِه، وتولى عن طاعة الله وطاعة رسله، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

ومنها: أن قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ استوعب الله بها الأسبابَ التي تُدرَكُ بها مغفرةُ الله:

أحدها: التوبة، وهو الرجوع عمَّا يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يُحِبُّه الله ظاهرًا وباطنًا، وهي تَجُبُّ ما قبلها من الذنوب صغارها وكبارها.

الثاني: الإيمان، وهو الإقرار والتصديق الجازم العام بكل ما أخبر الله به ورسوله، الموجِب لأعمال القلوب، ثم تتبعها أعمال الجوارح، ولا ريب أن ما في القلب من الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر الذي لا ريب فيه؛ أصل الطاعات وأكبرها وأساسها، ولا ريب أنه بحسب قوته يدفع السيئات، يدفع ما لم يقعْ، فيمنع صاحبه من وقوعه، ويدفع ما وقع بالإتيان بما ينافيه، وعدم إصرار القلب عليه، فإن المؤمنَ ما في قلبه من الإيمان ونوره لا يجامعُ المعاصي.

الثالث: العمل الصالح، وهذا شامل لأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان، والحسنات يذهبن السيئات.

الرابع: الاستمرار على الإيمان والهداية والازدياد منها.

فمن كَمَّلَ هذه الأسباب الأربعة فَلْيُبْشر بمغفرة الله العامة الشاملة؛ ولهذا أتى فيه بوصف المبالغة، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمدٍ ﷺ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلًا مطابقًا، وتأصيلًا موافقًا قصَّه قصًّا، صدَّق به المرسلين، وأيَّد به الحقَّ المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدةٍ لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوةٍ دَرَسَ فيها شيئًا من هذه الأمور، ولا مجالسةِ أحدٍ من أهل العلم، إنْ هو إلا رسالةُ الرحمٰن الرحيم، ووحيٌ أنزله عليه الكريمُ المنان؛ لينذِرَ به قومًا جاهلين، وعن النُّذُرِ والرسل غافلين؛ فصلوات الله وسلامُه على منْ مجرَّدُ خبره ينبئ أنه رسولُ الله، ومجرَّدُ أمره ونهيه يُنبِّه العقول النيِّرة أنَّه من عند الله؛ كيف وقد تطابَق على صحة ما جاء به، وصدَّقه خبرُ الأوَّلين والآخرين، والشرعُ الذي جاء به من ربِّ العالمين، وما جُبِلَ عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تُناسب، ولا تصلح إلا لأعلى الخلقِ درجةً،

والنصر المبين لدينه وأُمَّتِه، حتى بلغَ دينُه مبلــغَ الليل والنهار، وفتحتْ أُمَّتُه معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تَزَلِ الأممُ المعاندةُ، والملوكُ الكَفَرةُ المتعاضِــدةُ، ترميه بقوس واحدةٍ، وتكيدُ له المكايدَ، وتمكُــرُ لإطفائه وإخفائــه، وإخماده من الأرض، وهــو قد بهرها وعَلَاها، لا يــزداد إلَّا نموًّا، ولا آياتــه وبراهينه إلا ظهــورًا، وكلُّ وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة لِلْعالَمِينَ، وهداية لِلْعالمِينَ، ونورًا وبصيرة للمتوسِّمين، والحمد لله وحده.



قصة موسى والخضر



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٧١] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

ذلك أن موسى عليه السلام قام ذات يوم في بني إسرائيل مقامًا عظيمًا، علَّمهم فيه علومًا جَمَّة، وأعجب الناس بكمال علمه، فقال له قائل: يا نبي الله، هل يوجد، أو هل تعلم في الأرض أحدًا أعلم منك؟ فقال: لا، بناء على ما يعرفه، وترغيبًا لهم في الأخذ عنه، فأخبره الله أن له عبدًا في مجمع البحرين عنده علوم ليست عند موسى، وإلهامات خارجة عن الطَّوْر المعهود، فاشتاق موسى إلى لُقياه رغبة في الازدياد من العلم، فطلب من الله أن يأذن له في ذلك،

وأخبره بموضعه، فيخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدَّة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال: ﴿لِفَتَىٰهُ﴾، أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبَّأه الله بعد ذلك: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، أي: لا أزال مسافرًا وإن طالت عليَّ الشُّقَّة، ولحقتني المشقَّة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أُوْحِي إليه أنَّك ستجِد فيه عبدًا من عباد الله العالِمِين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أي: مسافة طويلة، المعنى: أنَّ الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزمٌ منه جازم، فلذلك أمضاه.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: هو وفتاه ﴿مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وكان معهما حوت يتزوَّدان منه ويأكلان، وقد وُعِد أنه متى فقد الحوت فثَمَّ ذلك العبد الذي قصدته، ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ ذلك الحوتُ ﴿سَبِيلَهُۥ﴾، أي: طريقه ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، وهذا من الآيات، قال المفسرون: إنَّ ذلك الحوت الذي كانا يتزوَّدان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بللُ البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيًّا.

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾، أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلَا به إلى مجمع البحرين لم يجدَا مَسَّ التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالَّة لموسى على وجود مطلبه، وأيضًا فإنَّ الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان سهَّل لهما الطريق، فلما تجاوزَا غايتهما وجدَا مسَّ التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة قال له فتاه: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾، أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ لأنَّه السبب في ذلك ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾، أي: لما انسرب في البحر

ودخل فيه؛ كان ذلك من العجائب. قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعدٌ من الله أنه إذا فقد الحوت وجد الخضِر، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، أي: نطلب، ﴿فَارْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، أي: رجعا يقصَّان أثرهما إلى المكان الذي نَسِيَا فيه الحوت، فلما وصلَا إليه وجدَا ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾، وهو الخضر، وكان عبدًا صالحًا، لا نبيًّا، على الصحيح. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: أعطاه الله رحمةً خاصَّة؛ بها زاد علمه وحسن عمله، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾، وكان قد أُعطي من العلم ما لم يُعْطَ موسى، وإن كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنَّه من أُولي العزم من المرسَلين الذين فضَّلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: هل أتَّبِعك على أن تُعلِّمني مما علَّمك الله ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحقَّ في تلك القضايا؟ وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصُلُ له الاطلاع على بواطن كثيرٍ من الأشياء التي خَفِيَت حتى على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنَّك ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، أي: لا تقدر على اتِّباعي وملازمتي؛ لأنَّك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غيرُ ذلك، ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمرٍ ما أحطت بباطنه وظاهره، ولا علمت المقصود منه ومآله؟

فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، وهذا عزمٌ منه قبل أن يوجد الشيء الممتحَن به، والعزمُ شيء، ووجودُ الصبر شيء آخر؛ فلذلك ما صبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين وقع الأمر.

فحينئذٍ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، أي: لا تبتدِئْنِي بسؤال منك وإنكارٍ حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله في الوقت الذي ينبغي إخبارُك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾، أي: اقتلع الخضرُ منها لوحًا، وكان له مقصودٌ في ذلك سيبيِّنه، فلم يصبر موسى ﷺ؛ لأنَّ ظاهره أنه منكرٌ؛ لأنَّه عيْبٌ للسفينة، وسببٌ لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، أي: عظيمًا شنيعًا، وهذا من عدم صبره ﷺ، فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسيانًا، فقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، أي: لا تُعسِّر عليَّ الأمر، واسمح لي؛ فإنَّ ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخِذْني في أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنَّه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدَّة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾، أي: صغيرًا، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ الخضر، فاشتدَّ بموسى الغضب، وأخذتْه الحميَّة الدينيَّة حين قتل غلامًا صغيرًا لم يُذْنِبْ، ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، وأيُّ نُكْرٍ مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنبٌ، ولم يقتلْ أحدًا؟!

وكانت الأولى من موسى نسيانًا، وهذه غير نسيانٍ، ولكن عدم صبرٍ، فقال له الخضرُ معاتبًا ومذكِّرًا: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فقال له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ﴾ بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾، أي: فأنت معذور بذلك، وبترْك صُحبتي، ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، أي: أعذرت مني، ولم تُقصِّر.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي: استضافاهم فلم يُضيِّفوهُما، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أي: قد عاب واستهدم، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضرُ، أي: بناه وأعاده جديدًا، فقال له موسى: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، أي: أهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجرةٍ، وأنت تقدِرُ عليها!

فحينئذ لم يفِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بما قال، واستعذر الخضرُ منه، فقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾ فإنَّك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبقَ الآن عذرٌ، ولا موضعٌ للصُّحبة، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾، أي: سأخبرك بما أنكرتَ عليَّ، وأنبِّئك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، يقتضي ذلك الرِّقَّة عليهم، والرأفة بهم، ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾، أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكلُّ سفينة صالحةٍ تمرُّ عليه ليس فيها عيبٌ غصبها وأخذها ظلمًا، فأردتُ أن أخْرِقها ليكون فيها عيبٌ، فتَسْلَم من ذلك الظالم.

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾ الذي قتلتُه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾، وكان ذلك الغلام قد قُدِّر عليه أنَّه لو بلغ لأرهق أبوَيْه طغيانًا وكفرًا، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إمَّا لأجل محبَّتهما إيَّاه، أو للحاجة إليه، أو يحملهما على ذلك، أي: فقتلته؛ لاطلاعي على ذلك؛ سلامةً لدين أبويه المؤمنَين، وأيُّ فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟!

وهو وإن كان فيه إساءةٌ إليهما، وقطعٌ لذرِّيَّتهما؛ فإنَّ الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خيرٌ منه، ولهذا قال: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أي: ولدًا صالحًا، زكيًّا، واصلًا لرحمه؛ فإنَّ الغلام الذي قُتِل لو بلغ لعقَّهما أشدَّ العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ الذي أقمته؛ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما؛ لكونهما صغيرَين عَدِما أباهما، وحفظهما الله أيضًا بصلاح والدهما.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، أي: فلهذا هدمتُ الجدار، واستخرجتُ ما تحته من كنزهما، ورددتُهُ وأَعَدْتُه مجانًا؛ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: هذا الذي فعلتُه رحمةٌ من الله، آتاها الله عبده الخضر، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، أي: أتيت شيئًا من قِبَلِ نفسي، ومجرَّد إرادتي، وإنَّما ذلك من رحمة الله وأمره، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فسَّرتُه لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.



فوائد من هذه القصة

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيءٌ كثيرٌ، ننبِّه على بعضه بعون الله:

فمنها: فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى عليه السلام رحل مسافةً طويلةً، ولقي النَّصَب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم؛ فإنَّ زيادة العلم وعلم الإنسان أهمُّ من تَرْك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزوُّد من العلم، والجمعُ بين الأمرَين أكمل.

ومنها: جواز أخْذ الخادم في الحضَرِ والسفر؛ لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أنَّ المسافر لطلب علم أو جهادٍ أو نحوه إذا اقتضتِ المصلحةُ الإخبار بمطلبه، وأين يريده؛ فإنَّه أكمل من كتمه؛ فإنَّ في إظهاره فوائد من الاستعداد له عُدَّته، وإتيان الأمر على بصيرةٍ، وإظهارًا لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، وكما أخبر النبيُّ ﷺ أصحابه حين غَزَا تبوك بوجهه، مع أنَّ عادته التَّورية، وذلك تبعٌ للمصلحة.

ومنها: إضافة الشرِّ وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإنْ كان الكلُّ بقضاء الله وقدره؛ لقول فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عمَّا هو من مقتضى طبيعة النفس؛ من نَصَبٍ أو جوع، أو عطش، إذا لم يكنْ على وجه التسخُّط وكان صدقًا؛ لقول موسى: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنســـان، ذكيًا فَطِنًا كيِّسًا؛ ليتمَّ له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنســـان خادِمَه من مأكله، وأكلهما جميعًا؛ لأنَّ ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إضافة إلى الجميع، أنَّه أكل هو وهو جميعًا.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حســـب قيامـــه بالمأمور به، وأنَّ الموافق لأمر الله يُعانُ ما لا يُعان غيره؛ لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، والإشـــارة إلى الســـفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم يشْتكِ منه التعب مع طوله؛ لأنَّه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنَّهم فقدوا الحوت حين أَوَوْا إلى الصخرة، فالظاهر أنَّهم باتوا عندها، ثم ســـاروا من الغد، حتـــى إذا جاء وقت الغـــداء قال موســـى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، فحينئذٍ تذكَّر أنه نَسِيَه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أنَّ ذلك العبد الذي لَقِيَاه ليس نبيًّـــا، بل عبدًا صالحًا؛ لأنَّه وصفه بالعبودية، وذكر منَّة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذْكر رسالته ولا نبوَّته، ولو كان نبيًّا لذكر ذلك كما ذكره غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ فإنَّه لا يدلُّ على أنَّه نبيٌّ، وإنَّما يدلُّ على الإلهام والتحديث، كما يكـــون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾.

ومنها: أنَّ العلم الذي يعلِّمه الله لعباده نوعان: علمٌ مكتَســـبٌ يدرِكُه العبد بجِدِّه واجتهاده، ونوعٌ: علمٌ لدُنِّيٌّ، يَهَبُـــه الله لمن يَمُنُّ عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، فالخضر أُعطِي من هذا النوع الحظ الأوفر.

ومنها: التأدُّب مع المعلِّـــم، وخطاب المتعلِّم إيَّـــاه ألطف خطاب؛ لقول موسى ﵇: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فأخرج الكلام بصورة

الملاطفة والمشاورة، وأنَّك هل تأذنُ لي في ذلك أم لا؟ وإقراره بأنَّه يتعلَّم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكِبْر الذي لا يُظْهِر للمعلِّم افتقاره إلى علمه، بل يدَّعي أنَّه يتعاون هو وإيَّاه، بل ربَّما ظنَّ أنه يعلِّم معلِّمه، وهو جاهلٌ جدًّا، فالذُّلُّ للمعلم، وإظهارُ الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلُّم ممَّن دونه؛ فإنَّ موسى بلا شك أفضل من الخضر.

ومنها: تعلُّم العالِم الفاضل للعلم الذي لم يتمهَّر فيه ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرةٍ؛ فإنَّ موسى ﷺ من أولي العزم من المرسلين الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يُعْطِ سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلُّم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدِّث إذا كان قاصرًا في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلَّمه ممن مهر فيه، وإنْ لم يكن محدِّثًا ولا فقيهًا.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، فكلُّ علم يكون فيه رشد وهداية لطرق الخير، وتحذيرٌ عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك؛ فإنَّه من العلم النافع، وما سوى ذلك فإمَّا أن يكون ضارًا، أو ليس فيه فائدةٌ؛ لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن مَن ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحُسْن الثَّبات على ذلك؛ أنَّه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم؛ فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازَمَه أدرك به كلَّ أمرٍ سعى فيه؛ لقول الخضر يعتذر من موسى بذِكْر المانع لموسى في الأخذ عنه: إنَّه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علمًا وخبرةً بذلك الأمر الذي أُمِرَ بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فجعل الموجِب لعدم صبره، وعدم إحاطته خُبرًا بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأنِّي والتثبُّت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف ما يُراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليقُ الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: مشروعية تعليق إيجاد الأمور المستقبلة على مشيئة الله؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، وإن العزم على فِعْل الشيء ليس بمنزلة فعله؛ فإنَّ موسى عزم على الصبر ولكن لم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعضِ الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يُوقِفه عليها؛ فإنَّ المصلحة تُتَّبَع، كما إذا كان فهمه قاصرًا، أو نهاه عن التدقيق في سؤال عن الأشياء التي غيرُها أهمُّ منها، أو لا يدرِكُها ذهنُه، أو يسأل سؤالًا لا يتعلَّق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يُخاف منها.

ومنها: أنَّ الناسي غيرُ مُؤاخَذٍ بنسيانه؛ لا في حق الله، ولا في حقوق العباد، إلا إن ترتَّب على ذلك إتلاف مال، ففيه الضمان حتى على الناسي؛ لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾.

ومنها: أنَّه ينبغي للإنسان أن يأخُذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفوَ منها، وما سمحتْ به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلِّفهم ما لا يُطيقون، أو يشقَّ

عليهم ويرهِقهم، فإنَّ هذا مدعاةٌ إلى النفور منه والسـآمة، بل يأخذ المتيسَّر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أنَّ الأمـور تجري أحكامها علـى ظاهرها، وتُعلَّـقُ بها الأحكام الدنيوية؛ في الأموال، والدماء، وغيرها؛ فإنَّ موسـى عليه السلام أنكر على الخضر خَرْقَه السـفينة، وقَتْلَ الغلام، وأنَّ هـذه الأمور ظاهرها، أنهـا من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السـكوت عنها في غير هذه الحال التي صَحِب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادَرَ إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفتْ إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أنَّه يُدْفَع الشرُّ الكبير بارتكاب الشر الصغير، ويُراعَى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإنَّ قتل الغلام شرٌّ، ولكنَّ بقاءه حتى يفتن أبوَيْه عن دينهما أعظم شـرًّا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظنُّ أنه خيرٌ؛ فالخير ببقاء ديـن أبوَيه، وإيمانهما خيرٌ من ذلك؛ فلذلـك قتله الخضـر، وتحت هـذه القاعدة مـن الفـروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحُم المصالح والمفاسد كلِّها داخلٌ في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة، أيضًا، وهي أنَّ عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسـدة أنَّه يجوز، ولو بلا إذنٍ، حتى ولو ترتَّب على عمله إتلاف بعض مال الغير؛ كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتَسْلَم من غَصْب الملك الظالم؛ فعلى هذا لو وقع حـرقٌ، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسانٍ أو ماله، وكان إتلافُ بعض المال، أو هدمُ بعض الدار فيه سلامةٌ للباقي جاز للإنسان، بل شُرِع له ذلك حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالمٌ أخْذ مال الغير، ودفع إليه إنسانٌ بعض المال افتداءً للباقي؛ جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجـوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾، ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مالٌ لا يبلُغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأنَّ الله أخبر أنَّ هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصًا غير مُنْكرٍ؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين أو مَن يتعلَّق بهم أفضل من غيرها؛ لأنه علَّل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما بأنَّ أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإنَّ الخضر أضاف عيْب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير فأضافه إلى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقالت الجنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، مع أنَّ الكلَّ بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنَّه ينبغي للصاحب أن لا يفارِق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صُحْبَته حتى يُعْتِبه، ويُعْذِر منه؛ كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاةٌ وسببٌ لبقاء الصحبة وتأكُّدها، كما أنَّ عدم الموافقة سببٌ لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قَدَرٌ محض أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح؛ ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يُقَدِّر على العبد أمورًا يكرهها جدًّا، وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجًا من لطفه وكرمه ليعرفوه، ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة.

قصة داود وسليمان عليهما السلام



كانَا من أعظم أنبياء بني إسـرائيل، وجمع الله لهما بين النبوة والحكمة والـمُـلـك العظيم القوي؛ أمـا داود عليه السلام فكان من جملة العسـكر الذين مع طالوت الذي اختاره أحد أنبياء بني إسرائيل ملكًا على بني إسرائيل؛ لشجاعته وقوته، وعلمه في السياسة ونظام الجيوش، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ولما برزوا لجالوت وجنوده، وصبر عسـكر طالوت، واسـتعانوا بالله تفوَّق داود عليه السلام على الجميع بالشـجاعة العظيمة، فباشَرَ بنفسـه قَتْلَ ملكهم جالوت، وحصلت الهزيمة على بقيتهم، ونصر الله بني إسرائيل ذلك النصر؛ نبَّأ الله داود وأعطاه الحكمة والملك القوي، كما قال تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وكان قد أعطاه الله قوة في العبـادة وبصيرة، ووصفه الله بهذين الوصفيـن اللَّذيْن بهما كمال العبـد، فقـال: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، فوصفه بالقوة العظيمة على ما أمر الله، وبأنه أوَّاب؛ لكمال معرفته بالله.

وكان الله تعالى قد سخَّر له الطير والجبال تسبِّح الله معه، وكان قد أُعطي من حُسْـن الصوت ورخامته ما لم يُؤْتِ أحدًا من العالمين، وكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسـه، ويصوم يومًا ويُفطر يومًـا، وكان إذا لاقى العدو رأى الخَلْقُ من شـجاعته ما يعجب الناظرين، وقد ألان الله له الحديد،

وعلَّمه صنعة الدروع الواقية في الحروب، وهو أول من صنع الدروع السردية ذوات الحِلَق التي يحصل فيها الوقاية، وهـي خفيفة المحمل، وقد عاتبه الله بسبب ذنب أذنبه بأن أرسل إليه ملَكَيْن بصورة خصمين، فدخلَا عليه وهو في محرابه ففـزع منهما؛ لأنهما دخـلَا عليه في وقت لا يدخـل عليه فيه أحد، وتَسَوَّرَا المحراب، وقالَا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢]، ثم قـصَّ عليه أحدهما القصة، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ ـ والمـراد بها المـرأة ـ ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾، أي: صار خطابه أقوى مني فغلبني، فقال داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وعلـم داود أنه هو المـراد بهذه القضية فانتبه لذلك: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤ ـ ٢٥] فمحا الله عنه الذنب، وعاد به بعد التوبة أحسـن مما كان قبل ذلك، حصل له القرب العظيم من ربه وحُسْـن العاقبة، وقال الله له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] الآية.

وأما سـليمان بن داود عليه السلام **فإن الله** أعطاه النبوة وورث أباه؛ عِلْمَه ونبوته ومُلْكَه، وزاده الله ملـكًا عظيمًا لم يحصل لأحد قبله ولا بعده؛ سـخَّر الله له الريح تجري بأمره وتدبيـره برخاء، أي: بسـهولة حيث أراد، غُدُوُّها شـهر ورَوَاحها[1] شهر، وسَخَّرَ الله له الجن والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسـب إرادته، يعملون له ما يشـاء من محاريـب وتماثيل وجِفان

---

(١) غُدُوُّها: مَسِـيرهَا مِن الْغُدْوَة، بِمَعْنَى الصَّبَاح إِلَى الزَّوَال، ورواحها: سَيْرهَا مِنَ الزَّوَال إِلَى الْغُرُوب.

كالجواب، وقدور راسيات، وتذهب وتجيء بأمره إلى حيث أراد، وسخر له من الجنود من الإنس والجن والطير، فهم يُوزَعُون[1] بتدبير عجيب ونظام غريب، وعلَّمه منطق الطير وسائر الحيوانات، فكانت تخاطبه ويفهم ما تكلَّم به، ولهذا خاطَب الهدهد وراجَعَه تلك المراجعة، وسمع النملة إذ نادت في قومها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فحذَّرت وأمرت بما يَقِي من الخطر، واعتذرت عن سليمان وجنوده، فلهذا ابتسم سليمان ضاحكًا من قولها، وقال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، ومن حُسْن نظامه وحزمه أنه يتفقَّد الجنود بنفسه، مع أنه قد جعل لهم مدبِّرين، فإن قوله: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣] دليل على ذلك، حتى إنه تفقَّد الطيور لينظر هل هي لازمة لمراكزها، فقال: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر له الأرض وبُعْد مائها، فإن هذا خلاف اللفظ القرآني، فإن الله لم يقل: وطلب الهدهد، بل وقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ [النمل: ٢٠]، ثم توعَّده لمخالفته لأمره، ولما كان ملكه مبنيًّا على كمال العدل استثنى، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۞ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾، فجاء الهدهد ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢١ ـ ٢٦].

---

(١) أَيْ: يُجْمَعُونَ بِرَدِّ آخِرِهِمْ إلى أولهم ثم يُساقون.

ففي هذه المدة القصيرة جـاء الهدهد بهذه المعلومـات العظيمة، أخبر سليمان عن مُلك الديار اليمانية، وأن ملكتهم امرأة، وأنها قد أُعْطِيَت من كل شيء يحتاج الملك إليه، وأن لها عرشًا عظيمًا، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فَهِم أيضًا دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار.

هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبِّحه وتوحِّده، وتحب المؤمنين وتدين لربها بذلك، وتُبْغِض الكفار المكذِّبين، وتدين بذلك، فقال له سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٧ ـ ٢٨]، فذهب بالكتاب فألقاه في حجر المرأة ملكة سبأ، فلما قرأته عظَّمته جدًّا، وأُرعبت منه فزعًا، وجمعت رؤساء قومها، فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۞ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣١] كتاب مختصر جامع فيه المقصود كله، قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النمل: ٣٢]، أي: أشيروا عليَّ، وهذا من حزمها، وحُسْن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۞ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٢ ـ ٣٣]، أي: مستعدُّون لما تقولين حربًا وسلمًا، وأرجعنا الأمر إلى ما تختارين، فمن عزمها وحزمها وبُعْد نظرها عدلت عن الحرب، واختارت السلم لكن بصورة حازمة، فقالت: سأُهْدِي له هدية فاخرة: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، إن كان من الملوك الذي ليس لهم هَمٌّ إلا الدنيا فربما أن الهدية كسرت سَوْرَته(١)، وفَلَّت عزيمته، وسالَمَنا، وسالَمْناه من بعيد، وإن كان غير ذلك بَانَ لنا الأمر.

---

(١) أي: غضبه وشِدَّته.

فأرسلت أناسًا ذوي عقل وحزم وخبرة ومعرفة، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، فبيَّن لهم أنه لا غرض له في الدنيا، وإنما غرضه إقامة الدين، ودخول عباد الله في الإسلام.

ثم وصَّى الرسل، واستغنى بذلك عن الكتاب، وقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]، وعلم سليمان أنهم سينقادون ويُسْلِمون، فقال لأهل مجلسه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٣٩]، وسليمان بالديار الشامية، وبينه وبينها مسافة شهرَين ذهابًا وشهرَين إيابًا، ثم قال الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين: إنه رجل صالح قد أُعطي الاسم الأعظم الذي إذا دُعِي الله به أجاب، وأنه دعا الله فأُتِي به قبل أن يرتد إليه طرفه، ويحتمل أن الذي عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التي يسخِّرها الله لسليمان؛ أسباب يحصل بها تقريب المواصلات، وجلب الأشياء البعيدة.

وعلى كُلٍّ فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم، ولهذا لما رآه مستقِرًّا عنده حمد الله على ذلك، فقال: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، ثم خاطَب مَن حوله: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، أي: غَيِّرُوا فيه وزِيدُوا وأَنْقِصوا، ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]، وكان قد مُدح له رأيُها وعقلها، فأحبَّ أن يقف على الحقيقة، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ: ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢] وعُرِض عليها، فلما رأته عرفته، ورأت ما فيه من التنكير، فأنكرته، فقالت مُرَدِّدة للاحتماليـن: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]، لم تقل: هو؛ لِمَا فيه من

التغيير، ولم تنفِ أنه هو؛ لما كانت تعرفه، فأتت بلفظ صالح للأمرين، فعرف سليمان رجاحة عقلها.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، إن كان هذا من كلام سليمان فمعناه: إننا أُخْبِرْنا عن عقلها، وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحقَّقناها لما سبرناها، وإن كان الكلام كلام ملكة سبأ فإنها تقول: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ [النمل: ٤٢] عن ملك سليمان، وأنه ملك نبوة ورسالة وقوة هائلة من قبل هذه الحالة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢] مُذْعِنين لما قاله سليمان بعدما تحقَّقنا أمره، فكأنه قيل: مع عقلها هذا ورأيها السديد فكيف كانت تعبد غير الله؟ وكيف اجتمع العقل وعبادة من لا ينفع ولا يضر، وإنما يضر مَن عبده؟

حاصل الجواب قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]، أي: العقائد التي نشأت عليها، والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل، وتُذْهِب لُبَّ اللبيب حتى يُقَيِّض له من الأسباب المباركة ما يُبَيِّن له الحق، ويَمُنُّ عليه باتباعه.

وكان له صرح من قوارير أجرى تحته الأنهار، فكان من ينظر إليه يظنه ماء يجري؛ لأن الزجاج شفاف، فلما قيل لها: ادخلي الصرح، فرأته لُجَّةً وكشفت عن ساقَيْها، قال: إنه صرح ممرَّد[1] من قوارير، قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] فأسلمت لله، واتَّبعها قومها، فيقال: إن سليمان تزوَّجها، فالله أعلم.

ولما كانت الشياطين زمن سليمان قد سخَّرهم الله له، وبلَّغه أنهم باجتماعهم بالإنس يُعَلِّمونهم السحر، فجمعهم وتوعَّدهم، وأخذ كُتُبَهم ودفنها، فلما توفي سليمان جاءت الشياطين للناس وقالوا: إن ملك سليمان

---

(١) أي: مُمَلَّس.

مشيَّد على السحر، واستخرجوا الكتب التي دفنها، وأشاعوا من إغوائهم للناس أنها مأخوذة من سليمان، وأن سليمان ساحر، وروَّج ذلك طائفة من اليهود، فبرَّأ الله سليمان من هذا الأمر، وبيَّن أن السحر من العلوم الضارَّة، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: بتعليم السحر والرضاء به، ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وهذا من عظمة القرآن أنه يأمر الخلق بالإيمان بجميع الرسل، ويذكِّرهم بأوصافهم الجميلة، وينزِّههم عما قاله الناس فيهم مما ينافي رسالتهم.

وكان الله قد ابتلى سليمان، وألقى ﴿عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾، أي: شيطانًا عتابًا له على بعض الهفوات، وإرجاعًا له إلى كمال الخضوع لربه، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] إلى الله بقلبه ولسانه وبدنه بظاهره وباطنه، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، فاستجاب الله له دعاءه، وأعطاه ما طلبه من مغفرة الذنب، وأعطاه جميع ما طلب كما تقدَّم.

وقد أثنى الله على داود وسليمان بالعلم والحكم، وخَصَّ سليمان بزيادة الفهم، فقال: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، أي: دخلت الغنم بستانهم ليلًا فرعت زرعه وأشجاره، فحكم داود بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث؛ لِظَنِّه أن الذي تلف من الحرث يقابل قيمتها، ثم رُفِعَت القضية إلى سليمان، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقي والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نفشها، ويدفع له صاحب الغنم الغنمَ ينتفع بدَرِّها ولبنها ودهنها وصوفها ومَغْلِها[1] مقابل ما كان بصدد أن ينتفع

(١) أي: لبنها الذي تُرضعه ولدها.

بحرثه في هذه المدة[1]، فكان هذا الحكم من سليمان أقرب إلى الصواب، وأنفع لصاحب الغنم والحرث، فلهذا قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ونظير هذه القضية حكم داود وسليمان بين المرأتين اللتين خرجتَا ومع كل واحدة ابنها، فعَدَا الذئب على ابن الكبرى، فادَّعت الكبرى على الصغرى أن الذئب أكل ابن الصغرى، وأن الذي سَلِم من الذئب ابنها، والمرأة الصغرى أنكرت وقالت: بل الذئب أكل ابن الكبرى.

فتحاكَمَا إلى داود، فلم يَرَ لكل منهما بيِّنة إلا قولها، رأى أن يحكم به للكبرى؛ اجتهادًا ورحمةً بها لكِبَرها، وأن الصغرى في مستقبل عمرها سيرزقها الله ولدًا بدله.

ثم رُفِعَت القضية إلى سليمان فقال لهما: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فرضيت الكبرى، وقالت الصغرى لما دار الأمر بين تلفه أو بقائه بيد غيرها ـ وهو أهون الأمرين عليها ـ: هو ابنها يا نبي الله.

فعلم سليمان بهذا الأمر الطبيعي الذي هو من أقوى البيِّنات أنه ليس ابنًا للكبرى؛ لكونها رضيت بشقه وإتلافه، وأن دعواها على الأخرى إنما حملها عليه الحسد، وأنه ابن الصغرى حين فزعت من شقه إلى التنازل عن دعواها، فقضى به سليمان للصغرى[2]، ولا ريب أن استخراج الصواب في القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال من الفهم الذي يخص الله به من يشاء.



(١) أخرجه الحاكم (٤١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢٧، ٦٧٦٩)، ومسلم (١٧٢٠).

في بعض الفوائد المستنبَطة من القصة

فمنها: أن الله يقصُّ على نبيه محمد ﷺ أخبارَ مَن قبله لتثبيت فؤاده وتطمين نفسه، ويذكر له من عباداتهم، وشدة صبرهم وإنابتهم ما يُشَوِّق إلى منافستهم، والتقرُّب إلى الله الذي تنافسوا في قربه والصبر على أذى قومه، ولهذا ذكر تعالى في أول سورة (ص) ما قاله المكذِّبون لمحمد ﷺ وما آذَوْه به، قال بعدها: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

ومنها: أن قوله: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] مدح عظيم من الله لهذين الوصفين: قوة القلب والبدن على طاعة الله، والإنابة باطنًا وظاهرًا إلى الله المستلزِمة لمحبَّته وكمال معرفته، وأن هذين الوصفين للأنبياء على وجه الكمال، ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب اتباعهم، والثناء من الله عليهما يقتضي الحثَّ على جميع الأسباب التي تُعِين على القوة والإنابة، وأن يكون العبد رجَّاعًا إلى الله في حال السَّراء والضَّرَّاء، وفي جميع الأحوال.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام من حُسْن الصوت ورخامته، وأن الجبال الصُّمَّ والطيور البُهْم يجاوِبْنَه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبِّحْن معه بالعشيِّ والإشراق، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية.

ومنها: أن من أكبر نِعَم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب، وفي الخصومات والمشاحنات، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

ومنها: كمال اعتناء المولى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الهفوات بفتنته إياهم وابتلائهم بما يزول عنهم المحذور حتى يعودوا أكمل من أحوالهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان.

ومنها: أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عــن الله، فإن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، ومقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وقد يجري منهم أحيانًا بعض مقتضيات الطبيعة من المخالفات، ولكن الله تعالى يبادرهم بلطفه، ويتداركهم بالتوبة والإنابة.

ومنها: أن داود كان في أغلب أوقاته ملازمًا محرابَه يخلو فيه لربه، وتَقَرُّ عينُه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أمــوره، وله وقت يجلس فيه لحوائج الخلق، فقد أتم القيام بحق الله وحق عباده.

ومنها: أنــه ينبغي اســتعمالَ الأدب في الدخول على النــاس، خصوصًا الحكام والرؤســاء؛ فإن الخصمين لما دخلَا على داودَ في حالة غير معتادة، ومن غير الباب فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحقِّ ســوءُ أدبِ الخصم، وفِعْلُه ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلــم داود؛ فإنه ما غضب منهما حين جاءاه بغير اســتئذان وهو الملكُ، ولا انتهرهما، ولا وَبَّخَهُما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه: أنت ظلمتني، أو: يا ظالم ونحوه، أو: يا باغي؛ لقوله: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢].

ومنها: أنَّ الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القــدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه، ويحمد الله إذ قيَّض لــه النصيحة على يــد الناصح؛ فــإن داود لم يشــمئز من قول الخصمين: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢] بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب والمعاملين، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية؛ مُوجِبة للتعــادي، وبَغْي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبــر بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: إكــرام الله لــداود وســليمان بالزلفــى عنده وحســن المآب، فلا يتوهَّم أحد أن ما جرى منهما مُنْقِص لدرجتهما عند الله، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، وأنــه إذا غفر لهم، وأزال عنهم أثر الذنوب، أزال الآثار المترتبة عليها حتى ما يقع في قلــوب الخلق، وما ذلك على فضل الكريم بعزيز.

ومنها: أنَّ الاســتغفار والعبادة، خصوصًا الصلاة، من مكفِّرات الذنوب؛ فإنَّ الله رتَّب مغفرةَ ذنبِ داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية تولَّاها رُسُــل الله وخواصُّ خَلْقِه، وأن على القائم بها الحكم بالحق، وأن لا يتبع الهوى؛ فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الأحكام الشرعية الكلية، فالجاهل بواحد من هذه الأمور لا يحل له الإقدام على الحكم بين الناس.

ومنها: أنَّــه ينبغي للحاكم أن يحْــذر الهوى ويجْعله منــه على بال؛ فإنَّ النفوس لا تخْلو منه، بل يجاهدُ نفســه بأن يكونَ الحقُّ مقصوده، وأن يُلْقي عنه وقتَ الحُكْم كلَّ محبةٍ أو بُغضٍ لأحدِ الخصمين.

ومنها: أن سليمان يُعَدُّ من فضائل داود، ومن مِنَن الله عليه حيث وهبه له، وأنَّ مِن أكبر نِعَم الله على عبده أن يهب لــه ولدًا صالحًا؛ فإن كان عالِمًا كان نورًا على نور.

ومنها: ثناءُ الله تعالى على سليمان ومدحُهُ في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وهذا أعظم تزكية، وأكبر فخر لسليمان.

ومنها: كثرة خيـر الله وفضله على عبيده الأخيـار؛ يمنُّ عليهم بالأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ثـم يُثني عليهم بها ويرتِّـب عليها من الثواب أنواعًا منوعة، وهو المتفضِّل بالأسباب ومسبَّباتها.

ومنها: أن سليمان قدَّم محبة الله على محبة كل شيءٍ، وأتلف الخيل التي ألهتْه عن ذِكْر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب.

ومنها: أن كلَّ ما أشـغل العبد عـن طاعة مولاه فهو مشـؤوم، فليفارقْه، وليُقْبلْ على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعـدة المشـهورة: مَن تَـرَكَ شـيئًا لله عوَّضه الله خيـرًا منه، فسـليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفـوس تقديمًا لمحبَّة الله، فعوَّضه الله خيرًا من ذلك؛ بأنْ سخَّر له الريح الرُّخاء الليِّنة التي تجري بأمره إلى حيثُ أراد وقصد، غدوُّها شـهرٌ ورواحُها شهرٌ، وسخَّر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدِرُ عليها الآدميُّون.

ومنها: أن تسـخير الشياطين، وتسـخير الريح على الوجه الذي سُخِّرَت لسـليمان لا تكون لأحد بعد سـليمان، ولهذا لما رأى النبـي ﷺ أن يأخذ الشـيطان الذي تفلَّت عليه ليلة فيربطه في سارية المسجد قال: «ذكرت دعوة أخي سليمان فتركته»[١].

ومنها: أن سـليمان كان مَلِـكًا نبيًّا مباحًـا له أن يفعـل ما يريد، ولكنه ـ لكماله ـ لا يريد إلا الخير والعدل، وهذا بخلاف النبي العبد، فإنه لا يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

له إرادة مستقلة، بل إرادته تابعة لمراد الله منه، فلا يفعل ولا يترك إلا تبعًا للأمر، كحال نبينا محمد ﷺ.

ومنها: أن الله أعطى سليمان مُلكًا عظيمًا، فيه أمور لا يمكن أن تُدْرَك بالأسباب، وإنما هي من تقدير الملك الوهاب، مثل: تسخير الريح تبعًا لأمره، وتسخير الشياطين، وكون جنوده من الإنس والجن والطير، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة، يرسلها للجهات توصل منه الأخبار، وتأتيه بأخبار تلك الجهات، وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قصَّ الله علينا نبأه في هذه القصة، وكذلك الذي عنده علم من الكتاب حين استعدَّ أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتدَّ إليه طَرْفُه، وهذه آيات أنبياء، فلهذا مهما بلغ الخَلْق في الترقي في علوم الطبيعة والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أُعطيه سليمان.

ومنها: أنه ينبغي للملوك والرؤساء أن يسألوا عن أحوال الأمراء والرؤساء والرجال المتميِّزين، ولا يكتفوا بمجرد السؤال، بل يختبرونهم، ويختبرون عقولهم ومعرفتهم للأمور؛ كما فعل سليمان مع ملكة سبأ؛ امتحنها ليستدل على كمال عقلها ورجاحته، ولم يكتفِ بالسؤال، وهذا فيه للملوك فوائد عظيمة، وهم محتاجون لهذا أشد الحاجة، وتمام الملك أن يدير دفته الرجال الكاملون.



قصة إلياس عليه السلام



﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٢].

يمدحُ تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام بالنبوَّة والرسالة، والدَّعوة إلى الله، وأنَّه أمر قومه بالتَّقوى، وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنمًا لهم يُقال له "بَعْل"، وتَرْكِهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلْقهم، وربَّاهم فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النِّعم الظاهرة والباطنة، وأنَّكم كيف تركتم عبادة مَن هذا شأنه إلى عبادة صنم لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يخلُق، ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلَّم، وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسَّفه والغيِّ؟! ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعدًا لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، أي: يوم القيامة في العذاب، ولم يذكرْ لهم عقوبةً دنيويةً، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، أي: الذين أخلصهم الله، ومنَّ عليهم باتباع نبيهم؛ فإنَّهم غير مُحْضَرين في العذاب، وإنَّما لهم من الله جزيل الثواب، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾، أي: على إلياس ﴿فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ ثناءً حسنًا.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾، أي: تحية من الله، ومن عباده عليه، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه، صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين.



قصة يونس عليه السلام



هو من أنبياء بني إسرائيل العظام، بعثه الله إلى أهل (نينوى) ـ من أرض الموصل ـ فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، ثم كرَّر عليهم الدعوة فأبَوْا، فوعدهم العذاب، وخرج من بين أظهُرِهم، ولم يصبر الصبر الذي ينبغي، ولكنه أَبَقَ مغاضبًا لهم، وهم لما ذهب نبيُّهم أُلْقِي في قلوبهم التوبة إلى الله والإنابة بعدما شاهدوا مقدمات العذاب، فكشف الله عنهم العذاب.

والظاهر أن يونس علم انكشاف العذاب عنهم، واستمرَّ في ذهابه عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠]، فركب في سفينة مُوقِرة[1] من الرُّكَّاب والأحمال، فلما توسَّطوا البحر شارفت على الغرق، ودار الأمر بين أن يبقوا جميعًا فيها فيهلكوا، وبين أن يُلْقُوا بعضهم بمقدار ما تخِفُّ السفينة فيسلم الباقون، فاختاروا الأخير؛ لعَدْلِهم وتوفيقهم، فاقترعوا، فأصابت القرعة أناسًا منهم، ومنهم يونس عليه السلام، ولهذا قال: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، أي: المغلوبين في القرعة، فأُلْقُوا فابتلعه حوت في البحر ابتلاعًا، لم يكسر له عظمًا، ولم يمضغ له لحمًا.

---

(١) أي: محملة حملاً ثقيلاً.

فلما صار في جـوف الحوت في تلك الظلمـات نادى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيـاء: ٨٧]، فأمر الله الحوت أن يُلْقِيَه بالعـراء، فخرج من بطنـه كالفرخ الممعـوط من البيضة فـي غاية الضعف والوهن، فلطف الله به، وأنبت عليه شـجرة من يقطين، فأظلَّتْه بظلها الظليل حتى قَوِي واشتد، وأمره الله أن يرجع إلى قومه فيعلِّمهم ويدعوهم، فاستجاب له أهل بلده، ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.



فوائد من قصة يونس عليه السلام

وفي هذه القصة: عتاب الله ليونس عليه السلام اللطيف، وحبسه في بطن الحوت؛ ليكون كفارة، وآية عظيمة، وكرامة ليونس، ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه، فكثرة أتباع الأنبياء من جملة فضائلهم.

وفيها: استعمال القرعة عند الاشتباه في مسائل الاستحقاق والحرمان، إذا لم يكن مُرَجِّح سواها، وفي عمل أهل السفينة هذا العملَ دليل على القاعدة المشهورة؛ أنه يُرْتَكب أخفُّ الضررَين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه، ولا ريب أن إلقاء بعضهم وإن كان فيه ضرر فعطبُ الجميع إذا لم يُلْقَ أحدٌ أعظمُ.

وفيها: أن العبد إذا كانت له مقدِّمة خاصة مع ربه، وقد تعرَّف إلى ربه في حال الرخاء؛ أن الله يشكر له ذلك، ويَعْرِفه في حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها، ولهذا قال في قصة يونس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

وفيها: ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرَّج الله عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]»(١).

وفيها: أن الإيمان يُنَجِّي من الأهوال والشدائد؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، أي: إذا وقعوا فيها لإيمانهم.



(١) أخرجه الحاكم (١٨٧٠).



قصة عيسى وأمه، وزكريا ويحيى عليهم السلام



كانت زوجة عمــران ـ وهو مــن أكابر بني إســرائيل ورؤســائهم وذوي المقامات العالية عندهم ـ نذرت حين ظهر حملها أن تُحَرِّر ما في بطنها لبيت المقدس، يكون خادمًا لبيت الله، مُعَدًّا لعبادة الله، ظنًّا أن الذي في بطنها ذَكَرٌ، فلما وضعتها قالت معتذرة إلى الله شــاكية إليه الحال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمــران: ٣٦]، أي: إن الذَّكَر الذي له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيــت المقدس، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمــران: ٣٦]، فحصَّنتهــا بالله من عدوها هي وذريتها، وكان هذا أول حفظ وحماية من الله لها، ولهذا استجاب الله لها في هذه الدنيــا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمــران: ٣٧]، فجمع الله لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية، حيث قدر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بني إسرائيل في ذلك الوقت؛ فإن أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها؛ لأنها ابنة رئيسهم، فاقترعوا وألقوا أقلامهم، فأصابت القرعة زكريا رحمة به وبمريم، فكفلها أحسن كفالة، وأعانه على كفالتها بكرامة عظيمة منه، فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصدِّيقات، وعكفت على عبــادة ربها، ولزمت محرابهــا، فكان زكريا كلمــا دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا، قال: أنى لك هذا؟ فإنه ليس لها كافل غير زكريا،

قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: رِزْقه تعالى يأتي بطرق معهودة وبطرق أخرى، والله على كل شيء قدير.

فحين رأى هذه الحالة ذَكَّرَه ذلك لطف ربه، ورَجَّاه إلى رحمته، فدعا الله أن يهب له ولدًا يرثه علمه ونبوته، ويقوم بعده في بني إسرائيل في تعليمهم وهدايتهم: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، أي: عظيمًا عند الله، وعند الخلق؛ لِمَا جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة، والعلوم العظيمة، والأعمال الصالحة، ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، أي: ممنوعًا بعصمة الله وحفظه، ووقايته من مواقعة المعاصي، فوصفه الله بالتوفيق لجميع الخيرات، والحماية من السيئات والزلات، وهذا غاية كمال العبد، فتعجب زكريا من ذلك وقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٨ ـ ٩]، وهذا أعجب من حملها وهي عاقر على كِبَرِك، فمن فرحه ورغبته العظيمة في طمأنينة قلبه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وهذه آية كبرى؛ يُمْنَع من الكلام الذي هو أسهل ما يقدر عليه الإنسان، وهو سَوِيٌّ، فلا يقدر أن يكلم أحدًا إلا بالإشارة، ومع ذلك لسانه منطلق بذِكْر الله وتسبيحه وتحميده، فحينئذ تمت له البشارة من الله، وعرف أنه لا بد أن يكون، فولدت زوجته يحيى، وأنشأه الله نشأة عجيبة، فتعلَّم وهو صغير، ومهر في العلم وهو صغير، ولهذا قال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۞ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۞ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥]، ومضمون هذا وصفه بالقيام بحقوق الله، وحقوق والديه، وحقوق الخلق، وأن الله سيُحْسِن له العواقب في أحواله كلها.

وأما مريم فإنها انتبذت[1] من أهلها مكانًا شـرقيًّا، متجـرِّدة لعبادة ربها: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧]؛ لئلا يشـغلها أحد عمـا هي بصدده؛ فأرسل الله لها الروح الأمين جبريل في صورة بشر سَـوِيٍّ من أكمل الرجال وأجملهم، فظنَّت أنه يريدها بسوء، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، فتوسَّلَت بالله في حفظها وحمايتها، وذكَّرته وجوب التقوى على كل مسلم يخشـى الله، فكان هذا الورع العظيم منها في هذه الحالة التي يُخْشَى منها الوقوع في الفتنة، ورفع الله بذلك مقامهـا، ونعتها بالعفة الكاملة، وأنها أحصنت فرجها، فقال لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا﴾ [مريـم: ١٩ ـ ٢١]، فلا تعجبي مما قدَّرَهُ الله وقضاه.

﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾، أي: ابتعدت به عن الناس ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ خشية الاتهام والأذية منهم، ﴿فَأَجَآءَهَا﴾، أي: ألجأها ﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾، أي: الطَّلْق ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا﴾ لمـا تعرفه مما هي متعرِّضة له من الناس، وأنهم لا يصدقونها، ولم تَدْرِ ما الله صانع لها.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ الملك ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾، وكانت في مكان مرتفع، ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾.

﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا﴾، أي: نهـرًا جاريًا، ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ من دون أن تحوجك إلى صعود، ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، أي: طريًّا ناضجًا، ﴿فَكُلِي﴾ من الرُّطب، ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من السَّـرِيِّ، ﴿وَقَرِّي عَيۡنًا﴾ بولادة عيسـى، وليذهب رَوْعُكِ وخوفـك، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ

(١) أي: اعتزلت.

﴿لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، أي: سكوتًا، وكان معهودًا عندهم أنهم يتعبَّدون بالصمت في جميع النهار، ولهذا فسَّره بقوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، فاطمأن قلبها، وزال عنها ما كانت تجد.

ثم لما تعالَت[1] من نِفاسها، وأصلحت من شأنها، وقويت بعد الولادة: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم: ٢٧] علنًا غير هائبة ولا مبالية، فلما رآه قومها، وقد علموا أنه لا زوج لها، جزموا أنه من وجه آخر، فقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٢٩] كما أُمِرَت بذلك، فقالوا منكرين عليها مقالتها لهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] فقال، وهو في تلك الحال له، أيام يسيرة بعد ولادته: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]، فكان هذا الكلام منه في هذه الحال من آيات الله، وأدلة رسالته، وأنه عبد الله لا كما يزعمه النصارى، وحصل لأمه البراءة العظيمة مما يُظَنُّ بها من السوء؛ لأنها لو أتت بألف شاهد على البراءة وهي على هذه الحال ما صدَّقها الناس، ولكن هذا الكلام من عيسى وهو في المهد جَلَّى كل ريب يقع في القلوب، فانقسم الناس فيه بعد هذا ثلاثة أقسام:

قسم: آمنوا به وصدَّقوه في كلامه هذا، وفي الانقياد له بعد النبوة، وهم المؤمنون حقيقة.

وقسم: غَلَوْا فيه، وهم النصارى، فقالوا فيه المقالات المعروفة، ونزَّلوه منزلة الرب، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

---

(١) أي: قامت وطَهُرت.

وقسم: كفروا به وجفوه ـ وهم اليهود ـ ورموا أمه بما برَّأها الله منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

ولما أرسله الله إلى بني إسرائيل آمن به مَن آمن، وكفر به من كفر، وجعل يريهم الآيات والعجائب، فكان يصوِّر الطين فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويُبْرِئ الأكمه[1] والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وينبئهم عن كثير مما يأكلون، ويدَّخرون في بيوتهم، ومع ذلك فتكالبت عليه أعداؤه وأرادوا قتله، فألقى الله شَبَهه على واحد من الحواريين أصحابه أو من غيرهم، ورفعه الله إليه، وطهَّره من قتلهم، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه، وباءوا بالإثم العظيم والْجُرم الجسيم، وصدَّقهم النصارى أنهم قتلوه وصلبوه، ونزَّهه الله من هذه الحالة، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقد قام عيسى في بني إسرائيل فبشَّر وأعلن برسالة محمد ﷺ، فلما جاءهم محمد الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣] كما قالوا في عيسى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].



(١) الذي وُلِد أعمى.

وفي هذه القصة من الفوائد

منها: أن النذر ما زال مشروعًا في الأمم السابقة؛ والنبي ﷺ قال فيه كلمة جامعة للصحيح النافذ منه للباطل، فقال: «مَن نذر أن يطيع الله فليُطِعْهُ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يَعْصِه»[(١)].

ومنها: أن من نعمة الله على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار؛ فإن المربي والكافل له الأثر الأعظم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه، ولهذا أَمَرَ الله المربِّين بالتربية الطيبة المشتملة على الحث على الأخلاق الجميلة، والترهيب من مساوئ الأخلاق.

ومنها: إثبات كرامات الأولياء؛ فإن الله كرَّم مريم بأمور: يسَّر لها أن تكون في كفالة زكريا بعدما حصل الخصام في شأنها، وأكرمها بأن كان رزقُها يأتيها من الله بلا سبب، وأكرمها بوجود عيسى، وولادتها إياه، وبخطاب الملك لها بما يطمئن قلبها، ثم بكلامه في المهد، فهذه الأخيرة جمعت كرامة ولي ومعجزة نبي.

ومنها: الآيات العظيمة التي أجراها الله على يد عيسى ابن مريم؛ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحوهما.

ومنها: ما أكرم الله به عيسى بأن جعل له حواريين وأنصارًا في حياته، وبعد مماته في بَثِّ دعوته والنصر لدينه، ولذلك كثر تابِعوه، ولكن منهم المستقيم؛ وهو الذي آمَن به حقيقةً، وآمن بجميع الرسل، ومنهم المنحرف، وهم الذين غَلَوْا فيه، وهم جمهور من يدَّعي أنه من أتباعه، وهم أبعد الناس عنه.

---

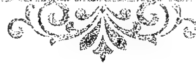
(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

ومنها: أن الله أثنى على مريم بالكمال بالصدِّيقية، وأنها صدَّقت بكلمات ربها وكتبه، وكانــت من القانتين، وهذا وَصْف لها بالعلم الراســخ، والعبادة الدائمة، والخشوع لله، وأنه اصطفاها وفضَّلها على نساء العالمين.

ومنها: أن إخبــار الله للنبــي ﷺ بهذه القصــة وغيرها مفصَّلــةً مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات نبوته؛ لقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].



قصة خاتم النبيين وإمام المرسلين ﷺ



اعلم أن سيرة نبيِّنا محمدٍ ﷺ أعظمُ عونٍ على معرفة تفسير كتاب الله، والقرآن إنما كان ينزل تبعًا لمناسبات سيرته، وما يقوله للخلق، وجواب ما يقال له، وما يحصل به تحقيقُ الحقِّ الذي جاء به، وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها، وهذا من حكمة إنزاله مفرَّقًا، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠].

فلنُشِرْ من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول آيات معينات، أو لجنس النوع من علوم القرآن؛ ليكون عونًا في هذا المقام.

فأول مقاماته في إنزال القرآن عليه: أنه كان قبل البعثة قد بُغِّضَت إليه عبادة الأوثان، وبُغِّضَ إليه كل قول وفعل قبيح، وفُطِر ﷺ فطرة مستعدة متهيئة لقبول الحق علمًا وعملًا، والله تعالى هو الذي طهَّر قلبه وزكَّاه وكمَّله، فكان من رغبته العظيمة فيما يقرب إلى الله أنه كان يذهب إلى غار حراء الأيام ذوات العدد، ويأخذ معه طعامًا يُطعم منه المساكين، ويتعبَّد ويتحنَّث فيه، فقلبه في غاية التعلُّق بربه، ويفعل من العبادات ما وصل إليه علمه في ذلك الوقت الجاهلي الخالي من العلم، ومع ذلك فهو في غاية الإحسان إلى الخلق.

فلما تَمَّ عمره أربعين سنةً، وتمت قوَّتُه العقليةُ، وَصَلُحَ لتلقي أعظم رسالة أرسل الله بها أحدًا من خَلْقه؛ تبدَّى له جبريلُ عليه السلام، فرأى منظرًا هَالَهُ وأزعجه؛ إذ لم يتقدم له شـــيءٌ من ذلك، وإنما قدَّم الله له الرؤيا التي كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح.

فأول ما أنزل الله عليه: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١]، فجاءه بها جبريل، وقال له: اقرأ، فأخبره أنه ليس بقـــارئ[1] ـ، أي: لا يعرف أن يقرأ ـ كما قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحـــى: ٧]. ونظيرها الآية الأخرى: ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فغَطَّه جبريل مرتين أو ثلاثـــا ليهيِّئه لتلقِّي القـــرآن العظيم، ويتجـــرَّد قلبه وهِمَّته، وظاهره وباطنه لذلك.

فنزلت هذه السورة التي فيها نبوَّته، وأمْرُه بالقراءة باسم ربه، وفيها أصناف نعمه على الإنسان بتعليمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي، فجاء بها إلى خديجة تُرْعَدُ فرائصه من الفَـــرَق[2]، وأخبرها بما رآه وما جرى عليه، فقالت خديجة رضي الله عنها: أَبْشِر، فوالله لا يُخْزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتَقْري الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق[3].

أي: ومَن كانت هذه صفته فإنها تســـتدعي نِعَمًا من الله أكبر منها وأعظم، وكان هذا من توفيق الله لها ولنبيه، ومن تهوين القلق الذي أصابه.

وبهذه السورة ابتدأت نبوته، ثم فتر عنه الوحي مدة؛ ليشتاق إليه؛ وليكون أعظم لموقعه عنده، وكان قـــد رأى الملك على صورتـــه فانزعج، فجاء إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) أي: ترجف من الخوف، والفرائص: عصب الرقبة وعروقها، والمفرد: فَرِيصة.

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

خديجة، أيضًا تُرْعَد فرائصه، فقال: «دَثِّرُوني دَثِّرُوني»؛ فأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۞ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۞ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ١ ـ ٥][1]، فكان في هذا: الأمر لــه بدعوة الخلق وإنذارهم، فشــمَّر ﷺ عن عزمــه، وصَمَّم على الدعوة إلى ربه، مع علمه أنه سيقاوَم بهذا الأمر البعيد والقريب، وسيلقى كل معارضة من قومه ومن غيرهم وشــدة، ولكن الله، أيَّده وقــوَّى عزمه، وأيَّده بروح منه، وبالدِّين الذي جاء به، وجاءته سورة الضحى في فترة الوحي لَمَّا قال المكذِّبون: إن رب محمد قلاه. قــال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣] إلى آخرها[2].

وهذا اعتناء عظيم من الله برسوله، ونفي لكل نقص، وبشارة بأن كل حالة له أحســن مما قبلها وخير منها، وأن الله ســيعطيه من النصر والأَتباع والعز العظيم وانتشار الدين ما يرضيه.

فكان أعظم مقامات دعوتــه: دعوته إلى التوحيــد الخالص، والنهي عن ضده؛ دعا الناس لهذا، وقرَّره الله في كتابه، وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبيِّن وجوب التوحيد وحُسْنه، وتُعيِّنه طريقًا إلى الله وإلى دار كرامته، وقرار إبطال الشرك والمذاهب الضارَّة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن، **وهي أغلب السور المكية**، فاستجاب له في هذا الواحدُ بعد الواحد على شدة عظيمة من قومه، وقاوَمَه قومه وغيرهم، وبغوا له الغوائل، وحرصوا على إطفاء دعوته بجهدهم وقولهم وفعلهم، وهــو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثــل هذا القرآن، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين، ولكنهم يكابــرون ويجحدون آيات الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩٧).

ولهذا لما كان استماعهم للقرآن على وجه الكفر والجحد والتكذيب، وتوطين نفوسهم على معاداته، أخبر الله تعالى أنه جعل على قلوبهم أَكِنَّة أن يفقهوه، وفي آذانهم وقرًا؛ وأنهم لا يهتدون بسبب ما أَسَّسوا من هذا الأصل الخبيث، المانع لصاحبه من كل خير وهدى، وهذا مما يعلم به حكمة الباري في إضلال الضالِّين، وأنهم لما اختاروا لأنفسهم الضلال ورغبوا فيه، ولَّاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وتركهم في طغيانهم يعمهون؛ وأنهم لما ردوا نعمة الله عليهم حين جاءتهم قلب الله أفئدتهم، وأصمَّ أسماعَهم، وأعمى أبصارهم وأفئدتهم.

وهذا الوصف الذي أشرنا إليه قد ذكره الله في كتابه عنهم، وهو يُعِينك على فَهْم آيات كثيرة يخبر الله فيها بضلالهم، وانسداد طرق الهداية عليهم، وعدم قبول محالِّهم وقلوبهم للهدى، والذنب ذنبهم، وهم السبب في ذلك، قال تعالى: ﴿ **فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وبضده تُعْرَف الحكمة في هدايته للمؤمنين، وأنهم لما كانوا منصفين ليس غرضهم إلا الحق، ولا لهم قصد إلا طلب رضا ربهم؛ هداهم الله بالقرآن، وازدادت به علومهم ومعارفهم وإيمانهم وهدايتهم المتنوعة، قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

وهذا الوصف الجليل للمؤمنين هو الأساس لهدايتهم، وزيادة إيمانهم وانقيادهم، وبه ينفتح لك الباب في فهم الآيات في أوصاف المؤمنين، وسرعة انقيادهم للحق أصوله وفروعه.

ومن مقامات النبي ﷺ مع المكذِّبين له: أنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن؛ ويدعوهم أفرادًا ومجتمعين، ويُذَكِّرهم بالقرآن، ويتلوه في الصلاة وخارجها، وكانوا إذا سمعوه صَمُّوا آذانهم، وقد

يسبُّونه ويسبُّون مَن أنزله، فأنزل الله على رسوله آيات كثيرة في هذا المعنى يُبيِّن حالهم مع سماع القرآن، وشدة نفورهم: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١]، وأن شياطينهم ورؤساءهم في الشرِّ فكَّروا وقدَّروا، ونظروا فيما يقولون عن القرآن ويصفونه به؛ ليُنَفِّروا عنه الناس، حتى قرَّ قرار رئيسهم الوليد بن المغيرة الذي سمَّاه الله وحيدًا، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥]، ولكن أبى الله إلا أن يعلو هذا الكلام كلَّ كلام، ويزهق هذا الحقُّ كلَّ باطل.

وكانوا من إفكهم يقولون في القرآن الأقوال المتناقضة، يقولون: إنه سحر، إنه كهانة، إنه شعر، إنه كذب، إنه أساطير؛ فجعلوا القرآن عِضِين[1]، كل هذا أثر البُغض الذي أحرق قلوبهم، حتى قالوا فيه مقالة المجانين، وكلما قالوا قولًا من هذه الأقوال أنزل الله آيات يُبْطِل بها ما قالوا، ويُبيِّن زورهم وافتراءهم وتناقضهم.

وكان من الأدلة والبراهين على رسالة محمد ﷺ، وأن القرآن من عند الله، مقابلة المكذِّبين له، فإن مَن نظر إليها علم أنها سلاح عليهم، وأكبر دليل على أنهم مقاومون للحق، ساعون في إبطاله، وأنهم على الباطل الذي ليس له حظ من العقل، كما ليس له حظ من الدِّين، وكانوا أيضًا يقولون في النبي ﷺ الأقوالَ التي ليس فيها دلالة على ما كانوا يعتقدون، وليس فيها نقص بالنبي ﷺ؛ يقولون: لو أن محمدًا صادق لأنزل الله ملائكة يشهدون له بذلك، ولأغناه الله عن المشي في الأسواق، وطلب الرزق كما يطلبه غيره، ولجعل له كذا وكذا مما توحي إليهم عقولهم الفاسدة، ويذكرها الله في القرآن في مواضع متعددة؛ تارةً يُصوِّرها للعباد فقط؛ لأن من تصوَّرها عرف بطلانها، وأنها ليست من الشُّبَه القادحة، فضلًا عن الحجج المعتبَرة، وتارة يصوِّرها، ويذكر ما يبطلها من الأمور الواضحة، وهذا كثير في القرآن.

---

(١) أي: مُفَرَّقًا، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

ومن مقاماتهم مع النبي ﷺ: أنهم يسعون أشد السعي أن يَكُفَّ عن عيب آلهتهم، والطعن في دينهم، ويحبون أن يتاركهم ويتاركوه؛ لعلمهم أنه إذا ذكر آلهتهم، ووصفها بالصفات التي هي عليها من النقص، وأنها ليس فيها شيء من الصفات يوجب أن تستحق شيئًا من العبادة، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك، ويعترفون به، فلا أَحَبَّ إليهم من التزوير، وإبقاء الأمور على عِلَّاتها من غير بحث عن الحقائق؛ لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانت ظهر للخلق بطلان ما هم عليه، وهذا الذي منه يفرون، وهذا المقام أيضًا ذكره الله في آيات متعددة مثل قوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، ونحوها من الآيات.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فهذا إذا ترتَّب على السب المذكور سبُّهم لله فإنه يُتْرَك؛ لما يترتب عليه من الشر.

ومن مقاماتهم المتنوعة مع النبي ﷺ: أنهم كانوا يقترحون الآيات بحسب أهوائهم، ويقولون: إن كنت صادقًا فأتنا بعذاب الله، أو بما تَعِدُنا، أو أَزِل عنا جبال مكة، واجعل لنا فيها أنهارًا وعيونًا، أو حتى يحصل لك كذا وكذا مما ذكره الله عنهم، فيجيبهم الله عن هذه الأقوال بأن رسوله ﷺ قد أيَّده الله بالآيات، والله أعلم بما يُنَزِّل من آياته، وأعلم بما هو أنفع لهم، وأنه قد حصل المقصود من بيان صدقه، وقامت الأدلة والبراهين على ذلك، فقول الجاهل الأحمق: لو كان كذا وكذا، جهلٌ منه وكِبْر، ومشاغبة مَحْضَة.

وتارة يخبرهم أنه لا يمنعه من الإتيان بها إلا الإبقاء عليهم، وأنها لو جاءت لا يؤمنون، فعند ذلك يعاجلهم الله بالعقاب.

وتارة يُبَيِّن لهم أن الرسول إنما هو نذير مبين، ليس له من الأمر شيء، ولا من الآيات شيء، وأن هذا من عند الله، فطَلَبُهم من الرسول مَحْضُ الظلم والعدوان، **وهذه المعاني في القرآن كثيرة بأساليب متعددة.**

وأحيانًا يقدحون في الرسول قدحًا يعترضون فيه على الله، وأنه لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، ومحمد ليس كذلك، وإنك يا محمد لست بأولى بفضل الله منا؛ فلأي شيء تَفَضَّلُ علينا بالوحي، ونحوه من الأقوال الناشئة عن الحسد.

فيجيبهم الله بذِكْر فضله، وأن فضله يؤتيه من يشاء، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته، والمحل اللائق بها، ويشرح لهم من صفات رسوله التي يشاهدونها رأي عين ما يعلمون هم وغيرهم أنه أعظم رجل في العالم، وأنه ما وُجِد ولن يوجد أحد يقاربه في الكمال، مؤيِّدًا ذلك بالأمور المحسوسة والبراهين المسلَّمة، وقد أبدى الله هذه المعاني، وأعادها معهم في مواضع كثيرة.

ومن مقاماته ﷺ مع المؤمنين: الرأفة العظيمة، والرحمة لهم، والمحبة التامة، والقيام معهم في كل أمورهم، وأنه بهم أرحم وأرأف من آبائهم وأمهاتهم، وأحنى عليهم من كل أحد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فلم يَزَل يدعو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله، ويقرِّر ذلك بالبراهين والآيات المتنوعة، ويحذر من الشرك والشرور كلها منذ بُعِث إلى أن استكمل بعد بعثته نحو عشر سنين وهو يدعو إلى الله على بصيرة.

ثم أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ ليُرِيَه من آياته، وعَرَج به إلى فوق السماوات السبع، وفرض الله عليه الصلوات الخمس بأوقاتها وهيئاتها، وجاءه جبريل على أثرها فعلَّمه أوقاتها وكيفيَّاتها، وصلى به

يومين؛ اليوم الأول صلَّى الصلوات الخمس في أول وقتها، واليوم الثاني في آخر الوقت، وقال: الصلاة ما بين هذين الوقتين، ففُرِضت الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو ثلاث سـنين، ولم يُفْرَض الأذان في ذلك الوقت، ولا بقية أركان الإسلام.

وانتشر الإسـلام في المدينة وما حولها، ومن جملة الأسباب أن الأوس والخزرج كان اليهود في المدينة جيرانًا لهم، وقد أخبروهم أنهم ينتظرون نبيًّا قد أَظَلَّ زمانه، وذكروا من أوصافه ما دلَّهم عليه، فبادر الأوس والخزرج لما اجتمعـوا بالنبي ﷺ في مكة، وتيقَّنوا أنه رسـول الله، وأما اليهود فاسـتولى عليهم الشقاء والحسد، ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ**﴾ [البقرة: ٨٩][1].

وكان المسلمون في مكة في أذى شـديد من قريش، فأَذِن لهم النبي ﷺ في الهجرة أولًا إلى الحبشـة، ثم لما أسـلم كثير من أهـل المدينة صارت الهجرة إلى المدينة.

وحين خاف أهل مكة من هذه الحال اجتمع مَلَؤُهم ورؤسـاؤهم في دار الندوة يريدون القضاء التام على النبي ﷺ؛ فاتَّفق رأيهم أن ينتخبوا من قبائل قريش مـن كل قبيلة رجلًا شـجاعًا، فيجتمعون ويضربونه بسـيوفهم ضربة واحدة[2].

قالوا: لأجل أن يتفرَّق دمه في القبائل، فتعجز بنو هاشم عن مقاومة سائر قريش فيرضون بالدية، فهم يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

فجاء الوحي إلى النبي ﷺ وعـزم على الهجرة، وأخبـر أبا بكر بذلك، وطلب منه الصحبة، فأجابه إلى ذلك، وخرج في تلـك الليلة التي اجتمعوا

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٦٨).

على الإيقاع به، وأمر عليًّا أن ينام على فراشه، وخرج هو وأبو بكر إلى الغار، فلم يزالوا يرصدونه حتى برق الفجر، فخرج إليهم عليٌّ، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري.

ثم ذهبوا يطلبونه في كل وجهة، وجعلوا الجِعالات[1] الكثيرة لمن يأتي به، وكان الجبل الذي فيه الغار قد امتلأ من الخلق يطلبون رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى قدَمَيْه لأبصرنا. فقال: «يا أبا بكر، ما ظَنُّك باثنين الله ثالثهما؟»[2]، وأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

فهاجَرَ إلى المدينة، واستقرَّ بها، وأُذِن له في القتال بعدما كان قبل الهجرة ممنوعًا لحكمة مشاهَدة، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وجعل يُرْسِل السرايا.

ولما كانت السنة الثانية فرض الله على العباد الزكاة والصيام، فآيات الصيام والزكاة إنما نزلت في هذا العام، وكان وَقْتَ فرضها، وأما قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] فإن المراد زكاة القلب وطهارته بالتوحيد وتَرْك الشرك.

وفي السنة الثانية أيضًا كانت وقعة بدر، وسببها أن عِيرًا لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام، خرج النبي ﷺ بمن خَفَّ من أصحابه لطلبها،

---

(١) هي الأجر على الشيء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

فخرجت قريش لحمايتها، وتوافَوْا في بدر على غير ميعاد، فالعير نجت، وكان النفير؛ التقوا مع الرسـول وأصحابـه، وكانـوا ألفًا كاملي العـدد والخيل، والمســلمون ثلاثمائة وبضعة عشـر على سـبعين بعيرًا يعتقبونهـا، فهزم الله المشركين هزيمة عظيمة، قُتِلت سَرَواتُهم[1] وصناديدُهم، وأُسِرَ من أُسِرَ منهم، وأصاب المشـركين مصيبةٌ ما أُصيبوا بمثلها، وهذه الغزوة أنزل الله فيها وفي تفاصيلها **سورة الأنفال**، وبعدما رجع إلى المدينة منها مُظَفَّرًا منصورًا ذلَّ من بقي ممن لم يُسْـلِمْ من الأوس والخزرج، ودخل بعضهم في الإسـلام نِفاقًا، ولذلك كانت جميع الآيات التي نزلت في المنافقين إنما كانت **بعد غزوة بدر**.

ثم في السـنة الثالثة كانت غزوة أحد، غَزَا المشـركون وجيَّشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة، وخرج إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه وعبَّأهـم ورتَّبهم، والتقوا فـي أُحُد عند الجبل المعروف شـمالي المدينة، وكانت الدائرة في أول الأمر على المشـركين، ثـم لما ترك الرماة مركزهم الذي رتَّبهم فيه رسـول الله ﷺ وقال لهم: «لا تبرحوا عنه؛ ظهَرنا أو غُلبنا»[2]، وجاءت الخيل مع تلك الثغرة، وكان ما كان، حصل على المسلمين في أُحُد مَقْتَلَة أكرمهم الله بالشهادة في سبيله، وذكر الله تفصيل هذه الغزوة في **سورة آل عمران**، وبسط متعلَّقاتها، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يُعِين على فَهْم الآيات الكثيرة التي نزلت فيها كبقية الغزوات.

ثم في السنة الرابعة تواعَد المسـلمون والمشركون فيها ـ في بدر ـ فجاء المسـلمون لذلك الموعد، وتخلَّف المشركون معتذرين أن السَّـنَة مُجْدِبة، فكتبهـا الله غـزوة للمسـلمين، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

---

(١) أي: أشرافهم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٣).

ثم في سنة خمس كانت غزوة الخندق، اتَّفَق أهل الحجاز وأهل نجد، وظَاهَرَهُم بنو قُرَيْظة من اليهود على غـزو النبي ﷺ، وجمعوا ما يقدرون عليه من الجنود، فاجتمع نحو عشـرة آلاف مقاتل وقصدوا المدينة، ولما سـمع بهم النبي ﷺ خندق على المدينة، وخرج المسلمون نحو الخندق، وجاء المشـركون كما وصفهم الله بقوله: ﴿ **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ** ﴾ [الأحـزاب: ١٠]، ومكثوا محاصِرين المدينة عدة أيام، وحال الخندقُ بينهم وبين اصطدام الجيوش، وحصلت مناوشات يسـيرة بين أفراد من الخيل، وسـبَّب الله عدة أسباب لانخذال المشركين، ثم انشمروا إلى ديارهم، فلما رجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا جازميـن على حصوله **تفرَّغ النبي** ﷺ لبني قريظـة الذين ظَاهَرُوا المشـركين بقولهم وتشـجيعهم على قَصْد المدينة، ومظاهرتهم الفعلية، ونَقْضهـم ما كان بينهـم وبين النبـي ﷺ فحاصَرهم، فنزلـوا على حُكْم سعد بن معاذ رضي الله عنه، **فحكم** أن تُقْتَل مقاتلتهم، وتُسْبَى ذَرارِيُّهم، وفي هذه الغزوة أنزل الله صدر **سـورة الأحزاب** من قوله: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ [الأحزاب: ٩] إلى قولـه: ﴿ **وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ثم في سـنة سـت من الهجرة اعتمر ﷺ وأصحابه عمرة الحديبية، وكان البيت لا يُصَدُّ عنه أحد، فعزم المشـركون على صدِّ النبي ﷺ عنه، ولما بلغ الحديبية، ورأى المشـركين قد أَخَذَتْهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال دخل معهم في صلْح لحقـن الدماء في بيت الله الحـرام، ولِمَا في ذلك من المصالح، وصار الصلح على أن يرجع النبيُّ ﷺ عامَه هذا ولا يدخل البيت، ويكون القضاء من العام المقبل، وتضع الحرب أوزارها بينهم عشـر سنين،

فكره جمهور المسـلمين هـذا الصلح حيـن تَوَهَّمُوا أن فيـه غضاضة على المسلمين، ولم يطَّلِعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة.

فرجع ﷺ عامَه ذلك، وقضى هذه العمرة في **عام سـبع من الهجرة**، فأنزل الله في هذه القضية **سورة الفتح** بأكملها: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، فكان هذا الفتـح؛ لما فيه من الصلح الذي تمكَّن فيه المسـلمون مـن الدعوة إلى الإسلام، ودخول الناس في دين الله، حين شاهدوا ما فيه من الخير والصلاح والنور، وقد تقدَّم أن قصة بني قريظة دخلت في ضمن قصة الخندق، **أما قبيلة بني النضير** من اليهود فإنها قبل ذلك حين همُّـوا بالفتك بالنبي ﷺ، وكانوا على جانـب المدينة غزاهم ﷺ، واحتمـوا بحصونهم، ووعدهـم المنافقون حلفاؤهم بنصرتهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، وأنزلهم رسولُ الله ﷺ على أن يَجْلُوا عن ديارهم، ولهم ما حَمَلَتْ إبلهم، ويدعوا الأرض والعقار، وما لم تحمله الإبل للمسلمين، فأنزل الله في هذه القضية أول **سورة الحشر**: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ**﴾ [الحشر: ٢] إلى آخر القصة.

وفي سـنة ثمانٍ من الهجرة، وقد نقضت قريش العهـد الذي بينهم وبين النبي ﷺ غزا مكة في جند كثيف من المسلمين يقارب عشرة آلاف، فدخلها فاتحًا لها، ثم تَمَّمَها بغزوة حُنَين[١] على هـوازن وثقيف، فتَمَّ بذلك نصر الله لرسوله وللمسلمين، وأنزل الله في ذلك أول **سورة التوبة**.

وفي سـنة تسـع من الهجرة غزا تبوك، وأوعب[٢] المسـلمون معه، ولم يتخلَّف إلا أهل الأعذار وأناس مـن المنافقين، وثلاثة من صلحاء المؤمنين: كعب بن مالك وصاحباه، وكان الوقت شديدًا، والحر شديدًا، والعدو كثيرًا،

---

(١) حُنَيْن: اسم ماء بين مكة والطائف.

(٢) أي: خرج.

والعُسْرة مشتدة، فوصل إلى تبوك، ومكث عشـرين يومًا، ولم يحصل قتال، فرجع إلى المدينة، فأنـزل الله في هذه الغزوة آيات كثيرة من **سـورة التوبة**، يذكر تعالى تفاصيلها وشدتها، ويُثني على المؤمنين، ويَـذُمُّ المنافقين وتخلُّفهم، ويذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصـار الذين اتَّبَعوه في ساعة العُسْرة، ويدخل معهم الثلاثة الذين خُلِّفوا بعد توبتهم وإنابتهم.

وفي مطاوي هذه الغزوات يذكر الله آيات الجهاد وفرضه، وفضله وثواب أهله، ومـا للناكلين عنه من الذُّلِّ العاجل والعقاب الآجـل، كما أنه في أثناء هذه المدة يُنْزِل الله الأحكام الشرعية شيئًا فشيئًا بحسب ما تقتضيه حكمته.

وفي سنة تسع من الهجرة أو سنة عشـر فرض الله الحج على المسلمين، وكان أبو بكر حَجَّ بالناس سـنة تسعٍ، ونبذ إلى المشـركين عهودَهم، وأتمَّ عهود الذين لم ينقضوا.

ثم حج النبي ﷺ بالمسـلمين سنة عشـر، واستوعب المسـلمين معه، وأعلمهم بمناسـك الحج والعمرة بقوله وفعله، وأنـزل الله الآيات التي في الحج وأحكامه، وأنزل الله يوم عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣][1].



(١) وفي سـنة إحدى عشـرة من الهجرة توفي النبي ﷺ، ودُفِن في المدينة حيث قُبِض. ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٤) وما بعدها.

قصة ذي القرنين



كان ذو القرنَيـن ملـكًا صالحًا، وقد أعطـاه الله من القوة وأسـباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره، فذكر الله مِن حُسْن سيرته ورحمته، وقوة ملكه وتَوَسُّعه في المشـارق والمغارب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله، ولهذا قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، أي: من بعض أخبـاره، ومن المعلوم أن ما قَصَّه الله في كتابه هو أحسـن وأنفع ما يُقَصُّ على العباد، فأخبر أنه أعطاه من كل شـيء سببًا يحصل به قوة الملك، وعلم السياسة، وحُسْن التدبير، والسلاح الْمُخْضِع للأمم، وكثرة الجنود، وتسهيل المواصلات وجميع ما يحتاجه، ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التي أُعْطِيها، فما كل أحد يُعطَى الأسباب النافعة، ولا كل مَن أُعْطِيها يتبعها ويعمل بها.

أما ذو القرنَين فإنه تَمَّ له الأمران؛ أُعْطِي سـببًا فأتبع سببًا، فغَزَا بجيوشه الجرَّارة أدنى أفريقية وأقصاها حتى بلغ البحـر المحيط الغربي، فوصل إلى محل إذا غربت الشمس ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، أي: رآها في رؤية العين كأنها تَغْرُب في البحر، والبحر لونه أسود كالحَمَأة[1]، والقصد أنه وصل إلى حيث منتهى الخُفِّ والحافـر من بلاد أفريقية، ووجد في ذلك المحل وتلك الأقطار قومًا، منهم المسلم والكافر، والبَرُّ والفاجر، بدليل قوله:

(١) الحمأة: الطين الأسود.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، إما أن القائل له نبي من أنبياء الله، أو أحد العلماء، أو أن المعنى أنه بسبب قدرته كان مخيَّرًا قَدَرًا، وإلا فمن المعلوم أن الشرع لا يُسَوِّي بين الأمرَين المتفاوتَين في الإحسان والإساءة.

فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۞ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧ ـ ٨٨]، وهذا يدل على عدله، وأنه ملك صالح، وعلى حُسْن تدبيره.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٩]، أي: ثم عمل بالأسباب التي أوتيها، بعدما أخضع أهل المغارب رجع يفتح الأرض قطرًا قطرًا حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطئ البحر المحيط الهادي، وهذا منتهى ما وصل إليه الفاتحون.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠]، أي: لا ستر لهم عن الشمس، لا ثياب ينسجونها ويلبسونها، ولا بيوت يبنونها ويأوون إليها، أي: وجد هؤلاء القوم الذين في أقصى المشرق بهذه الصفة والوحشية بمنزلة الوحوش التي تأوي إلى الغياض[1] والغِيرَان[2] والأسراب منقطعين عن الناس، وكانوا في ذلك الوقت على هذه الحالة التي وصف الله، والمقصود من هذا أنه وصل إلى ما لم يَصِلْ إليه أحد.

ثم كَرَّ راجعًا وأتبع سببًا يُمَكِّنه من مناهج[3] البلاد وتخضيع العباد قاصدًا نحو الشمال، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٣]، أي: بلغ محلًّا متوسطًا بين

---

(١) الغِيَاض: جَمْعُ غَيْضَة، وَهِيَ الشَّجَرُ الملتَفُّ.
(٢) الغيران: جمع غار، وهو الجُحْرُ الَّذِي يأْوِي إِلَيْهِ الْوَحْشِيُّ.
(٣) أي: مسالك.

السَّدَّين الموجودَين منذ خلق الله الأرض، وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصلة من تلك الفجوة، وهي الريع إلى البحار الشرقية والغربية، وهي في بلاد التُّرك، على هذا اتَّفق المفسِّرون والمؤرِّخون، وإنما اختلفوا: هل هي سلاسل جبال القفقاس[1] أم دون ذلك في أذربيجان، أم سلاسل جبال ألتاي[2]، أم الجبال المتصلة بالسور الصيني في بلاد منغوليا؟ **وهو الظاهر**، وعلى الأقوال كلها فقد وجد عند تلك الفجوة التي بين سلاسل هذه الجبال قومًا لا يكادون يفقهون قولًا؛ من بُعْد لغتهم، وثِقَل فَهْمِهم للغات الأمم، ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤]، وهم أمم عظيمة من نسل يافث بن نوح من العناصر التركية وغيرهم، كما هو مذكور مُفَصَّل من أحوالهم ومشروح من صفاتهم، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٤ ـ ٩٥] من القوة والأسباب والاقتدار خير، فأعينوني بقوة، أي: إن هذا بناء عظيم يحتاج في الإعانة عليه إلى مساعدة قوية في الأبدان.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] ولم يقل: سَدًّا؛ لأن الذي بُنِي فقط هو تلك الثنية والريع الواقع بين السَّدَّيْن الطبيعيَّيْن، أي: بين سلاسل تلك الجبال، فدبَّرهم على كيفية آلاته وبنيانه، فقال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: اجمعوا لي جميع قِطَع الحديد الموجودة من صغار وكبار، ولا تَدَعُوا من الموجود شيئًا، واركموه بين السدين، ففعلوا ذلك حتى كان الحديد تُلُولًا عظيمة موازنة للجبال، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: الجبلَين المكتنفَيْن لذلك الرَّدْم قال: ﴿ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: أمر بالنحاس، فأُذِيب بالنيران، وجعل يسيل بين قطع الحديد، فالتحم بعضها ببعض، وصارت جبلًا هائلًا متَّصلًا

---

(١) هي بلاد القوقاز بين أوروبا وآسيا.

(٢) هي سلسلة جبال في آسيا الوسطى حيث تلتقي روسيا والصين ومنغوليا وكازاخستان.

بالسَّـدَّيْن، فحصل بذلك المقصود من عَيْث(١) يأجوج ومأجوج، ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: يصعدوا ذلك الردم.

﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٧ ـ ٩٨]، أي: ربي الذي وفَّقني لهذا العمل الجليل، والأثر الجميل، فرحمكم إذ منعكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذي لا قدرة لكم عليه.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الكهف: ٩٨]، أي: هذا العمل، والحيلولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مُؤَقَّت إلى أجل، فإذا جـاء ذلك الأجل قَدَّرَ الله للخلق من أسـباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة ما يُمَكِّن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكـم، أيها المجاورون، بل وَمِن وطء مشـارق الأرض ومغاربها وأقطارها، كما قال تعالـى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، أي: من كل مكان مرتفع، سـواء مثل هذه السدود والبحار وجو السـماء ﴿يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، أي: يسرعون فيها غير مكترثين، ولا حاجـز يحجزهـم، فلفظة ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ تشـمل جميع المواضع والأقطار؛ سهلها وصعبها، منخفضها ومرتفعها، وإنما نَصَّ الله على المرتفعات؛ لأن السهول والأماكن المنخفضة من باب أولى وأحرى، وقد ورد في صفاتهم أحاديث فـي الصحيحَين تؤيد ما في هـذه الآيات من صفاتهم، وأورد أصحاب السير والتواريخ الأول من صفاتهم وهيئاتهم آثارًا لا خطام لها ولا زمام، شَوَّشَت أفكار أكثر الناس، ومنعتهم من الاستدلال بالآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة النبوية، وتطبيقها على الواقع، فعليك بلزوم ما دَلَّ عليه الكتاب والسنة، ودَعْ ما سوى ذلك؛ فإن فيه الهدى والرشد والنور.



---

(١) أي: فساد.

قصة لقمان



﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٩].

يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته؛ فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام؛ فقد يكون الإنســان عالِمًا، ولا يكون حكيمًا، وأما الحكمة فهي مستلزِمةٌ للعلم، بل وللعمل، ولهذا فُسِّرت الحكمة بالعلم النافع، والعمل الصالح.

ولَمَّا أعطاه الله هذه المنَّة العظيمة أمره أن يشكره على ما أعطاه؛ ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أنَّ شكر الشاكرين يعودُ نَفْعُه عليهم، وأنَّ مَن كفر فلم يشكُر الله عاد وَبالُ ذلك عليه، والله غنيٌّ عنه حميدٌ فيما يقدِّره ويقضيه على منْ خالَف أمره؛ فغِناه تعالى من لوازم ذاته، وكونُه حميدًا في صفات كماله حميدًا في جميل صنعه من لوازم ذاته، وكلُّ واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدِهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون؛ هل كان لقمانُ نبيًّا، أو عبدًا صالحًا؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدلُّ على حكمته في وَعْظِه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾، أو قال له قولًا به يَعِظُه، **والوعظ**: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبَيَّن له السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، ووجه كونه عظيمًا أنَّه لا أفظع ولا أبشع ممن سَوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسَوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمن له الأمر كلُّه، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالربِّ الكامل الغنيِّ من جميع الوجوه، وسوَّى من لم يُنْعِم بمثقال ذرَّةٍ من النِّعَم، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم وأبدانهم؛ إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! وهل أعظم ظلمًا ممن خَلَقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أَخَسِّ المراتب، جعلها عابدةً لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا؟!

ولما أمر بالقيام بحقِّه بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد أمر بالقيام بحق الوالدَين، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾، أي: عَهِدْنا إليه، وجعلناه وصيةً عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفِظها أم لا ؟

فوصيناه ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾، وقلنا له: ﴿ٱشۡكُرۡ لِي﴾ بالقيام بعبوديَّتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنِعَمِي على معصيتي، ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بمئونتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كلِّ وجه بالقول والفعل.

فوصَّيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أنَّ ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصَّاك، وكلَّفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل، أم ضيَّعْتها، فيعاقبك العقاب الوَبِيل[1].

ثم ذكر السبب الموجِب لبِرِّ الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾، أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تُلاقي المشاقَّ من حين يكون نطفة؛ من الوَحَم، والمرض، والضعف، والثِّقَل، وتغيُّر الحال، ثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد، ثم ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، وهو ملازِمٌ لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسُنُ بِمَنْ تَحمَّل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكِّد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾، أي: اجتهد والداك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾، ولا تظنَّ أنَّ هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأنَّ حق الله مقدَّم على حقِّ كل أحدٍ، و«لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»[2]، ولم يقلْ: «وإنْ جاهداك على أن تُشْرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فعُقَّهما»، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾، أي: في الشرك، وأمَّا برُّهما فاستمِرَّ عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾، أي: صحبة إحسانٍ إليهما بالمعروف، وأما اتِّباعُهما وهما بحالة الكفر والمعاصي فلا تتَّبِعْهما، ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم

---

(١) أي: الشديد.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).

المؤمنون بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، المستسلمون لربهم، المُنِيبون إليه، واتِّباع سبيلهم، أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعُها سعي البدن فيما يُرضي الله، ويُقرِّبُ منه، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ الطائع والعاصي والمنيب وغيره، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فلا يخفى على الله من أعمالهم خافيةٌ.

﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغرُ الأشياء وأحقرُها، ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾، أي: في وسطها، ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾، في أي جهة من جهاتهما؛ ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾؛ لسعة علمه، وتمام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أي: لطف في علمه وخبرته حتى اطَّلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا الحثُّ على مراقبة الله، والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيبُ من عمل القبيح؛ قَلَّ أو كَثُرَ.

﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، حَثَّه عليها، وخصَّها لأنَّها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وذلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه، والأمر بما لا يتمُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به؛ من الرفق والصبر، وقد صرَّح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلًا لما يأمر به، كافًّا لما يُنْهَى عنه، فتضمَّن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك بأمره ونهيه.

ولما عُلِم أنَّه لا بدَّ أن يُبتلى إذا أمر ونهى، وأنَّ في الأمر والنهي مشقَّة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يُعْزم عليها، ويهتمُّ بها، ولا يوفَّق لها إلا أهلُ العزائم.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: لا تُمِلْــهُ وتعبسْ بوجهك النــاس تكبُّرًا عليهم وتعاظُمًا، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾، أي: بَطَرًا، فخرًا بالنعم، ناسيًا الـمُنعِم، معجبًا بنفسك، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ في نفسه وهيئته وتعاظُمه، ﴿ فَخُورٍ ﴾ بقوله.

﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي: امْشِ متواضعًا مستكينًا، لا مَشْيَ البَطَر والتكبُّر، ولا مشــي التماوُت، ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أدبًا مع الناس ومع الله، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ ﴾، أي: أفظعها وأبشعها، ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدةٌ ومصلحةٌ لَمَا اختصَّ بذلك الحمار الذي قد عُلِمَتْ خسَّته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصَّى بها لقمان ابنه تجمع أمَّهات الحِكَم، وتستلزم ما لم يُذكَر منها، وكلُّ وصية يُقرَن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمرًا، وإلى تركها إن كانت نهيًا، وهذا يدلُّ على ما ذكرنا في تفســير الحكمة أنها العلم بالأحكام، وحِكَمِها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له الموجِب لتركه، وأمره ببِرِّ الوالدين، وبَيَّن له السبب الموجِب لبرِّهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأنَّ محلَّ بِرِّهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرَا بمعصيــة، ومع ذلك فلا يعقُّهما، بل يُحســن إليهمــا، وإن كان لا يطيعُهما إذا جاهداه على الشرك.

وأمره بمراقبة الله، وخَوَّفه القدوم عليه، وأنَّــه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً من الخير والشــر إلا أتى بها، ونهاه عن التكبُّر، وأمره بالتواضُع، ونهاه عن البَطَر [١] والأشر [٢] والمرح [٣]، وأمره بالسُّكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضدِّ ذلك.

---

(١) البَطَر: الطغيان عند النعمة وطول الغنى.

(٢) الأَشَر: أشد درجات البَطَر والطغيان.

(٣) المَرَح: الكِبْر والفخر والخُيَلاء.

وأمره بالأمر بالمعـروف، والنهي عن المنكر، وإقامـة الصلاة وبالصبر اللَّذَيْن يسهل بهما كلُّ أمر، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

فحقيقٌ بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصًا بالحكمة، مشهورًا بها، ولهذا فإن مِن منَّة الله عليه وعلى سـائر عباده أن قصَّ عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوةٌ حسنةٌ.



قصة طالوت وجالوت



﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٨].

يَقُصُّ تعالى على نبيه ﷺ قصة الملأ من بني إسرائيل، وهم الأشراف والرؤساء، وخَصَّ الملأ بالذِّكْر؛ لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا، فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، أي: عيِّن لنا ملكًا، ﴿نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ ليجتمع متفرِّقنا ويقاوم بنا عدوَّنا، ولعلهم في ذلك

الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يُرضي الطرفين، ويكون تعيينه خاصًّا لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تَسُوسُهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر[1]، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾، أي: لعلكم تطلبون شيئًا وهو إذا كُتِب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، أي: أيُّ شيء يمنعنا من القتال وقد أُلْجِئْنَا إليه بأن أُخْرِجْنا من أوطاننا، وسُبِيَتْ ذرارِيُّنَا، فهذا مُوجِب لكوننا نقاتل ولو لم يُكْتَب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يَقْوَ توكُّلُهم على ربهم، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟﴾، فجَبُنوا عن قتال الأعداء، وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخَوَرُ والجُبْن، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، فعصمهم الله وثَبَّتَهم، وقَوَّى قلوبهم فالتزموا أمر الله، ووَطَّنُوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ مجيبًا لطلبهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، فكان هذا تعيينًا من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وتَرْك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، أي: كيف يكون ملكًا، وهو دوننا في الشرف والنسب، ونحن أحق بالملك منه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزِم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدَّمة عليها، فلهذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، فلزمكم الانقياد لذلك، ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾، أي: فَضَّله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي والجسم اللَّذَيْن بهما تتم أمور الملك؛ لأنه إذا تم رأيه وقَوِي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرَين اختلَّ عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع؛ قوة على غير حكمة، ولو كان عالِمًا بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يُفِدْه الرأي الذي لا ينفذه شيئًا، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبِرِّه العام أحدًا عن أحد، ولا شريفًا عن وضيع، ولكنه مع ذلك ﴿عَلِيمٞ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة؛ لتبيينه أن أسباب الملك متوفِّرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، ليس له رادٌّ، ولا لإحسانه صادٌّ.

ثم ذكر لهم نبيُّهم أيضًا آية حسية يشاهدونها، وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زمانًا طويلًا، وفي ذلك التابوت سكينة تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانًا.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ

فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥٢].

أي: لَمَّا تملَّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهَّزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عددًا كثيرًا وجَمًّا غفيرًا، امتحنهم بأمر الله ليتبيَّن الثابت المطمئن ممن ليس كذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ فهو عاصٍ، ولا يتبعنا؛ لعدم صبره وثباته، ولمعصيته، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾، أي: لم يشرب منه فإنه مني، ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قلَّ عليهم ليتحقَّق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهيَّ عنه، ورجعوا على أعقابهم، ونكصوا عن قتال عدوِّهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلًا على الله، وتضرعًا واستكانة وتبرؤًا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر؛ لقلَّتهم وكثرة عدوهم، فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾، أي: النهر، ﴿هُوَ﴾، أي: طالوت، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، فرأوا قِلَّتهم وكثرة أعدائهم، ﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال كثير منهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ لكثرتهم وعَدَدِهم وعُدَدِهم، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾، أي:

يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم، وآمرين لهم بالصبر، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بإرادته ومشيئته، فالأمر لله تعالى، والعزيز مَن أَعَزَّه الله، والذليل من أَذَلَّه الله، فلا تُغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضرُّ القلة مع نصره، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثَّرت معهم.

ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قَالُواْ﴾ جميعهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، أي: قَوِّ قلوبنا، وأَوْزِعْنا[1] الصبر، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عن التزلزل والفرار، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارًا، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء؛ لإتيانهم بالأسباب الموجِبة لذلك، ونصرهم عليهم، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ عليه السلام، وكان مع جنود طالوت، ﴿جَالُوتَ﴾، أي: باشَرَ قَتْلَ ملك الكفار بيده؛ لشجاعته وقوته وصبره، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، أي: آتى الله داود ﴿ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: منَّ عليه بتملُّكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان مَن قَبْلَه من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كَيْدَ

---

(١) أي: أَلْهِمْنا.

الفُجَّار وتكالُب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها، وإقامتهم شعائر الكفر، ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم، ومَكَّنَهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالصدق الذي لا رَيْبَ فيه، المتضمِّن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قَصَّهُ الله عليه من أخبار الأمم السالفين والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم، بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدلَّ أنه رسول الله حقًّا ونَبِيُّه صدقًا الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.



فوائد من هذه القصة

وفي هذه القصة من الآيات والعِبَر ما يتذكَّر به أولو الألباب:

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحِفْظ الأبدان والأموال، وأنَّ المجاهدين ولو شَقَّت عليهم الأمور فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين ولو استراحوا قليلًا فإنهم سيتعبون طويلًا.

ومنها: الانتداب لرياسة مَن فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرَين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء؛ أنه ينبغي لأمير الجيوش أن يتفقَّدها عند فصولها؛ فيمنع مَن لا يصلح للقتال من رجال وخيل وركاب؛ لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيله، أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس تقوية المجاهدين وتشجيعهم، وحَثُّهم على القوة الإيمانية، والاتِّكال الكامل على الله والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان ولكن عند حضوره تنحلُّ عزيمته، ولهذا من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»[1]، فهؤلاء الذين عزموا على القتال وأَتَوْا بكلام يدل على العزم المصمِّم لما جاء الوقتُ نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٠٧)، وابن حبان (٩٣٥).

«وأسألك الرضا بعد القضاء»[1]؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس هو الرضا الحقيقي.

ومنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد، وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به؛ أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجَعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم، ويَلُمُّ متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم.

ومنها: أن الحق كلما عُورِض وأوردت عليه الشُّبَه ازداد وضوحًا، وتميَّز وحصل به اليقين التام، كما جرى لهؤلاء؛ لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أُجِيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشُّبَه والريب.

ومنها: أن العلم والرأي مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، وبفقدهما أو فَقْد أحدهما نقصانها وضررها.

ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله، والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾، فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تَوَلَّوْا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: أن مِن حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز.

ومنها: أن من رحمته وسننه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١٩٢٩).

قصة أصحاب الكهف



﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٢].

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي، أي: لا تظنَّ أنَّ قصَّة أصحاب الكهف وما جرى لهم غريبةٌ على آيات الله، وبديعةٌ في حكمته، وأنَّه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثيرٌ، مِن جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يَزَل الله يُرِي عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبيَّن به الحقُّ من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي أن تكون قصَّة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنَّما المراد أن جنسها كثيرٌ جدًّا؛ فالوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب نقصٌ في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكُّر بجميع آيات الله، التي دعا الله العبادَ إلى التفكُّر فيها؛ فإنَّها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان، وأضافهم إلى الكهف الذي هو الغار

في الجبل، ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾، أي: الكتاب الذي قد رُقِمتْ[1] فيه أسماؤهم وقصَّتُهم؛ لملازمتهم له دهرًا طويلًا.

ثم ذكر قصَّتهم مجملةً، وفصَّلها بعد ذلك، فقال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾، أي: الشباب، ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصُّن والتحرُّز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، أي: تُثبِّتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفِّقنا للخير، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أي: يَسِّر لنا كلَّ سببٍ مُوصِلٍ إلى الرشد، وأَصْلِحْ لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محلٍّ يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرُّعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتِّكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيَّض لهم ما لم يكن في حسابهم؛ قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾، أي: أَنَمْنَاهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظٌ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظٌ لهم من قومهم، وليكون آية بينة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، أي: من نومهم، ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾، أي: لنعلم أيُّهم أحصى لمقدار مدَّتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لُبْثِهم ضبطٌ للحساب، ومعرفةٌ لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته؛ فلو استمرُّوا على نومهم لم يحصُل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٤].

---

(١) أي: كُتِبَتْ.

هذا شروعٌ في تفصيل قصَّتهم، وأنَّ الله يقصُّها على نبيِّه بالحقِّ والصدق، الذي ما فيه شكٌّ ولا شبهةٌ بوجه من الوجوه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾، وهذا من جموع القلَّة، يدلُّ ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر اللهُ لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: صبَّرناهم وثبَّتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنَّة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبِرِّه أن وفَّقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة، ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: الذي خلقنا ورزقنا، ودبَّرنا وربَّانا هو خالق السماوات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملِك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فاستدلوا بتوحيد الربوبيَّة على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾، أي: من سائر المخلوقات، ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا﴾، أي: إنَّ دعاءنا معه آلهةً بعدما علمنا أنَّه الربُّ الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا﴾، أي: ميلًا عظيمًا عن الحق، وطريقًا بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبيَّة، وتوحيد الإلهيَّة، والتزام ذلك، وبيان أنَّه الحقُّ، وما سواه باطلٌ، وهذا دليلٌ على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، لما ذكروا ما مَنَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى التفتوا إلى ما كان عليه قومهم؛ من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبَيَّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل في غاية الجهل

والضلال، فقالــوا: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾، أي: بحجَّة وبرهان على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلًا إلى ذلك، وإنَّما ذلك افتراءٌ منهم على الله وكذبٌ عليه، وهذا أعظم الظُّلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، أي: قال بعضهــم لبعض: إذ حصل لكم اعتزالُ قومكم في أجسامكم وأديانكم فلم يَبْقَ إلا النجاء من شرِّهم، والتسبُّب بالأسـباب الـمُفْضِية لذلك؛ لأنَّه لا سـبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهــم، ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، أي: انضمُّوا إليه واختفوا فيــه، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ وفيما تقدَّم أخبر أنهم دَعَوْه بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، فجمعوا بين التبرِّي من حَوْلهم وقوَّتهــم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه ســيفعل ذلك، لا جرم أنَّ الله نشر لهم من رحمته، وهيَّأ لهم من أمرهم مِرْفقًا، فحفظ أديانهــم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خَلْقه، ونشــر لهم من الثناء الحســن ما هو من رحمته بهم، ويسَّــر لهم كلَّ سبب، حتى المحلَّ الذي ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، أي: حفظهم الله من الشمس، فيسَّر لهم غارًا إذا طلعت الشــمس تميل عنه يمينًا، وعند غروبها تميل عنه شــمالًا، فلا ينالهم حرُّها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾، أي: من الكهف، أي: مكان متَّسِع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوَخَم والتأذِّي بالمكان الضيِّق، خصوصًا مع طول الـمُكث، و﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّة على قدرته

ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾، أي: لا سـبيل إلى نَيْل الهداية إلا من الله؛ فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾، أي: لا تجد مَن يتولَّاه ويدبِّره على ما فيه صلاحه، ولا يرشِدُه إلى الخير والفلاح؛ لأنَّ الله قد حكم عليه بالضَّلال، ولا رادَّ لحكمه.

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾ [الكهف: ١٨].

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ﴾، أي: تحسـبهم أيها الناظـر إليهم كأنَّهم أيقــاظٌ، والحالُ أنَّهم نيامٌ، قال المفسـرون: وذلك لأنَّ أعينهـم منفتحةٌ لئلَّا تفسد، فالناظر إليهم يحسـبهم أيقاظًا وهم رقودٌ، ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، وهذا أيضًا مـن حفظه لأبدانهـم؛ لأنَّ الأرض مـن طبيعتها أَكْلُ الأجسام المتَّصلة بها، فكان من قَدَر الله، أنْ قلَّبهم على جنوبهم يمينًا وشمالًا بقدر ما لا تُفْسِد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادرٌ على حفظهم من الأرض من غير تقليبٍ، ولكنَّه تعالى حكيمٌ، أراد أن تجرِي سـنَّته في الكون، ويربط الأسباب بمسبَّباتها، ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِ﴾، أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسـته، فكان باسطًا ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فِنائه، هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الآدميين فأخبر أنَّه حماهم بالرُّعب الذي نشره الله عليهم، فلو اطَّلع عليهم أحدٌ لامتلأ قلبه رعبًا، وولَّى منهم فرارًا، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدَّة الطويلة وهم لم يَعْثُر عليهم أحدٌ، مع قُربهم من المدينة جِدًّا، والدليل على قربهم أنَّهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعامًا من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدلَّ ذلك على شدَّة قربهم منها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ١٩ ـ ٢٠].

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾، أي: من نومهم الطويل، ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ﴾، أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدَّة لُبْثهم، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾، وهذا مبنيٌّ على ظنِّ القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباهٌ في طول مدَّتهم؛ فلهذا ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾، فردُّوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيءٍ جملةً وتفصيلًا، ولعلَّ الله تعالى بعد ذلك أطلعهم على مدَّة لُبْثهم؛ لأنَّه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنَّهم تساءلوا، وتكلَّموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بدَّ أن يكون قد أخبرهم يقينًا؛ عَلِمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثًا، ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب عِلْمُها، وسعى لذلك ما أمكنه؛ فإنَّ الله يوضِّح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾، فلولا أنَّه حصل العلم بحالهم لم يكونوا دليلًا على ما ذكر، ثم إنَّهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به؛ أرسلوا أحدهم بوَرِقِهم، أي: بالدراهم التي كانت معهم؛ ليشتري لهم طعامًا يأكلونه من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخيَّر من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذَّه، وأن يتلطَّف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويُخفي حال إخوانه، ولا يُشْعِرنَّ بهم أحدًا.

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾، وذكروا المحذور من اطِّلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم؛ أنَّهم



بين أمرَين: إما الرَّجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قِتْلَة؛ لحنقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوهم عن دينهم، ويردُّوهم في ملَّتهم، وفي هذه الحال لا يُفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأُخراهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

يخبر الله تعالى أنَّه أَطْلَعَ الناس على حال أهل الكهف، وذلك ـ والله أعلم ـ بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا فيه صلاحٌ للناس، وزيادةُ أجرٍ لهم، وهو أنَّ الناس رأوا منهم آيةً من آيات الله المشاهَدة بالعيان على أنَّ وعد الله حقٌّ لا شكَّ فيه ولا مِرْية ولا بُعْد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمِن مُثْبِتٍ للوعد والجزاء، ومن نافٍ لذلك، فجعل قصَّتهم زيادة بصيرةٍ ويقينٍ للمؤمنين، وحجَّةً على الجاحدين، وصار لهم أجرُ هذه القضيَّة، وشهَّر الله أَمْرَهم، ورفع قَدْرَهم حتى عظَّمهم الذين اطَّلعوا عليهم، قالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم! وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، أي: نعبد الله تعالى فيه، ونتذكَّر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورةٌ، نهى عنها النبيُّ ﷺ، وذمَّ فاعليها، ولا يدلُّ ذكرها هنا على عدم ذمِّها؛ فإنَّ السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأنَّ هؤلاء وصلت بهم الحالُ إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدًا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحَذَرِهم من الاطِّلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدَّة أصحاب الكهف اختلافًا صادرًا عن رَجْمِهم بالغيب، وتقوُّلهم بما لا يعلمون، وأنَّهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم من يقولُ: ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، ومنهم من يقول: ﴿خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، وهذان القولان ذكر الله بعدهما أنَّ هذا رجمٌ منهم بالغيب، فدلَّ على بطلانهما، ومنهم من يقول: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، وهذا ـ والله أعلم ـ الصوابُ؛ لأنَّ الله أبطل الأوَّلَيْن ولم يبطِلْه، فدلَّ على صحَّته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحةٌ للناس دينيَّة ولا دنيويَّة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم، ﴿فَلَا تُمَارِ﴾، أي: تجادل وتُحاج ﴿فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾، أي: مبنيًّا على العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدةٌ، وأما المماراة المبنيَّة على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أنْ يكون الخصمُ معاندًا، أو تكون المسألة لا أهميَّة فيها، ولا تحصُلُ فائدةٌ دينيَّةٌ بمعرفتها؛ كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك؛ فإنَّ في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة تضييعًا للزَّمان، وتأثيرًا في مودَّة القلوب بغير فائدة، ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾، أي: في شأن أهل الكهف ﴿مِّنۡهُمۡ﴾، أي: من أهل الكتاب، ﴿أَحَدٗا﴾، وذلك لأنَّ مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظنِّ الذي لا يُغني من الحقِّ شيئًا؛ **ففيها دليلٌ** على المنع من استفتاء من لا يصْلُحُ للفتوى؛ إما لقصوره في الأمر المستفتَى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلَّم به، وليس عنده ورعٌ يحجزه، وإذا نُهِي عن استفتاء هذا الجنس فنهيُهُ هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضًا دليلٌ على أن الشخص قد يكون منهيًّا عن استفتائه في شيء دون آخر، فيُستفتَى فيما هو أهلٌ له بخلاف غيره؛ لأنَّ الله لم يَنْهَ عن استفتائهم مطلقًا، إنَّما نهى عن استفتائهم في قصَّة أصحاب الكهف، وما أشبهها.

فوائد من هذه القصة

ففيها آيات بينات، وفوائد متعددة:

ففي هذه القصة: دليلٌ على أنَّ مَن فرَّ بدينه من الفتن سلَّمه الله منها، وأنَّ من حرص على العافية عافـاه الله، ومن أوى إلـى الله آواه الله، وجعله هدايةً لغيره، ومن تحمَّل الذُّلَّ في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

ومنها: أن قصة أصحـاب الكهف وإن كانت عجيبة فليسـت من أعجب آيات الله، فإن لله آيات عجيبة، وقصصًا فيها عبرة للمعتبِرين.

ومنها: أن مَـن أوى إلـى الله أواه الله، ولطـف به، وجعله سـببًا لهداية الضالين؛ فإن الله لطف بهـم في هذه القومـة الطويلة؛ إبقـاءً على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم، وجعل هذه النَّوْمة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة الله، وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد الله حق.

ومنها: الحثُّ على تحصيل العلـوم النافعة والمباحثة فيها؛ لأن الله بعثهم لأجل ذلك، وببحثهم ثم بعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وَعْدَ الله حقٌّ، وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها.

ومنها: الأدبُ فيمن اشـتبه عليه العلم أن يَرُدَّه إلى عالمه، وأن يقف عند ما يعرف.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشـراء، وصحة الشركة في ذلك؛ لقولهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنها: جواز أكل الطيبات، والتخيُّر من الأطعمة ما يلائم الإنسان ويوافقه، إذا لم تخرج إلى حدِّ الإسراف المنهي عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنها: الحثُّ والتحرُّز والاستخفاء، والبُعْد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر، وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: بيان رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتَرْكِهم لأوطانهم وعوائدهم في الله.

ومنها: ذِكْر ما اشتمل عليه الشر من المضارِّ والمفاسد الداعية لبُغْضه وتَرْكه، وأن هذه الطريقة طريقة المؤمنين.

ومنها: أن قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] فيه دليلٌ على أن هؤلاء القوم الذين بُعِثُوا في زمانهم أناس أهل تديُّن؛ لأنهم عظَّموهم هذا التعظيم حتى عزموا على اتخاذ مسجد على كهفهم، وهذا إن كان ممنوعًا - وخصوصًا في شريعتنا - فالمقصود بيان أن ذلك الخوف العظيم من أهل الكهف وقت إيمانهم ودخولهم في الغار أبدلهم الله به بعد ذلك أمنًا وتعظيمًا من الخلق، وهذه عوائد الله فيمن تحمَّل المشاقَّ من أجله أن يجعل له العاقبة الحميدة.

ومنها: أن كثرة البحث وطوله في المسائل التي لا أهمِّية لها لا ينبغي الانهماك به؛ لقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢].

ومنها: أن سؤال مَن لا علم له في القضية المسؤول فيها، أو لا يوثق به منهي عنه؛ لقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].



قصة مؤمن آل فرعون



﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۞ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۞ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۞ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۞ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۞

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۞ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۞ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۞ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۞ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٤٦].

ومن جملة الأسباب[١] هذا الرجل المؤمن الذي مِن آل فرعون من بيت المملكة، لا بدَّ أن يكون له كلمةٌ مسموعةٌ، وخصوصًا إذا كان يُظهِرُ موافقتهم ويكتم إيمانه؛ فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالَفهم في الظاهر؛ كما منع الله رسوله محمدًا ﷺ بعمه أبي طالب من قريش؛ حيث كان أبو طالب كبيرًا عندهم، موافِقًا لهم على دينهم، ولو كان مسلمًا لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفَّق العاقل الحازم مقبِّحًا فِعْلَ قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾، أي: كيف تستحلُّون قتله وهذا ذنبه وجُرْمه أنَّه يقول ربي الله؟! ولم يكن أيضًا قولًا مجرَّدًا عن البينات، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ لأنَّ بيِّنته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله، فهلَّا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يردُّه، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحلُّ قَتْلُه إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟! فأما وقد ظهرت حجَّته واستعلى برهانه فبينكم وبين حِلِّ قتله مَفاوزُ تنقطع بها أعناق الـمَطِيِّ.

---

(١) أي: الأسباب التي اندفع بها عن موسى شرُّ فرعون ومَلَئِه.

ثم قال لهم مقالةً عقليةً تُقنِع كلَّ عاقل بأيِّ حالة قُدِّرت، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، أي: موسى بين أمرَين؛ إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه، وضرره مختصٌّ به، وليس عليكم في ذلك ضررٌ؛ حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنَّكم إنْ لم تجيبوه عذَّبكم الله عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة؛ فإنَّه لا بدَّ أن يصيبكم بعضُ الذي يعِدُكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حُسْن عقله، ولطف دَفْعه عن موسى؛ حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائرًا بين تلك الحالتَين، وعلى كلِّ تقدير فقَتْلُه سَفَهٌ وجهلٌ منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه، وغفر له ورحمه، إلى أمرٍ أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، أي: متجاوز الحد بتَرْك الحق والإقبال على الباطل، ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب؛ لا في مدلوله، ولا في دليله، ولا يوفَّق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقليَّة والخوارق السماويَّة؛ فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليلٌ على كمال علمه وعقله ومعرفته بِرَبِّه.

ثم حذَّر قومه ونصحهم، وخوَّفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: في الدنيا ﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على رعيَّتكم، تنفِّذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهَبْكم حصل لكم ذلك وتمَّ، ولن يتمَّ؛ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾، أي: عذابه، ﴿إِن جَآءَنَا﴾، وهذا من حُسْن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم بقوله:

﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِن جَآءَنَا﴾؛ ليفهمهم أنَّه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

فقال ﴿فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا له في ذلك، ومُغَرِّرًا لقومه أن يتَّبعوا موسى: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وصدق في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، ولكن ما الذي رأى؟! رأى أن يستخفَّ قومه فيتابعوه؛ ليُقيم بهم رياسته، ولم يرَ الحقَّ معه، بل رأى الحقَّ مع موسى، وجحد به مستيقنًا له، وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، فإنَّ هذا قلبٌ للحقِّ؛ فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله لكان الشرُّ أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أنَّ في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ مكرِّرًا دعوة قومه، غير آيسٍ من هدايتهم؛ كما هي حالة الدُّعاة إلى الله تعالى؛ لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يثنيهم عُتُوُّ من دَعَوْه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، يعني: الأمم المكذِّبين الذين تحزَّبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بيَّنهم، فقال: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾، فيعذِّبُهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوَّفهم العقوبات الدنيوية خوَّفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، أي: يوم القيامة، حين ينادي أهلُ الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ إلى آخر الآيات، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾،

وحين ينادي أهلُ النار مالكًا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، فيجيبهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وحين يقال للمشركين: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾.

فخوَّفهم رضي الله عنه هــذا اليوم المهــول، وتوجَّع لهم أن أقاموا على شــركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، أي: قد ذهب بكم إلى النار، ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوّة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحدٍ، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأن الهدى بيد الله تعالــى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به لخبثه فلا سبيل إلى هدايته.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بــن يعقــوب عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ إتيان موســى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ في حياته، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شكُّكم وشرككم، و﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، أي: هذا ظنُّكم الباطل وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنَّه تعالى لا يترك خلقه سُدًى، لا يأمرهم وينهاهم، بل يرسل إليهم رسله، وظنُّ أنَّ الله لا يرسل رســولًا ظنٌّ ضلال، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، وهذا هو وصفهم الحقيقيُّ الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعُلُوًّا، فهم المسرفون بتجاوُزهم الحقَّ وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة حيث نســبوا ذلك إلى الله، وكذَّبوا رسوله؛ فالذي وَصْفُه الســرف والكذب لا ينفكُّ عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفِّقه للخير؛ لأنه ردَّ الحقَّ بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي بيَّنت الحقَّ من الباطل، وصارت من ظهورها بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها؛ ليدفعوها ويُبطلوها ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾، أي: بغير حجَّة وبرهان، وهذا وصفٌ لازمٌ لكلِّ مَن جادل في آيات الله؛ فإنَّه من المحال أن يجادل بسلطان؛ لأن الحقَّ لا يعارضه معارضٌ؛ فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلًا، ﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمِّن لردِّ الحقِّ بالباطل ﴿مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالله أشد بُغْضًا لصاحبه؛ لأنَّه تضمَّن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمورٌ يشتدُّ بُغْض الله لها ولمن اتَّصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشدَّ المقت موافقةً لربهم، وهؤلاء خواصُّ خَلْق الله تعالى؛ فمقتُهم دليلٌ على شناعة مَن مقتوه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: كما طبع على قلوب آل فرعون، ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ متكبِّر في نفسه على الحق بردِّه، وعلى الخلق باحتقارهم، جبارٍ بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ معارضًا لموسى ومكذِّبًا له في دعوته إلى الإقرار بربِّ العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾، أي: بناءً عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه: لَعَلِّي أَطَّلِع ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ في دعواه أن لنا ربًّا، وأنه فوق السماوات، ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، فزُيِّن له العمل السيئ، فلم يَزَل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسِّنه، حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظَر مناظرة الـمُحِقِّين وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق بسبب الباطل الذي زُيِّن له، ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويُوهِم به الناس أنه محقٌّ، وأن موسى مبطلٌ، ﴿إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾، أي: خَسارٍ وبَوارٍ، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.



﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، لا كما يقول لكم فرعون؛ فإنَّه لا يهديكم إلا طريق الغيِّ والفساد.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ﴾ يُتمتَّع بها ويتنعَّم قليلًا، ثم تنقطع وتضمحلُّ؛ فلا تغرَّنَّكم وتخدعنَّكم عما خلقتم له، ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ التي هي محلُّ الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملًا يسعِدُكم فيها.

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شِرْك أو فسوق أو عصيان، ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، أي: لا يجازَى إلا بما يسوؤه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء، ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾، أي: يُعْطَوْن أجرهم بلا حدٍّ ولا عَدٍّ، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِىٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ بما قلت لكم، ﴿وَتَدۡعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بتَرْك اتِّباع نبيِّ الله موسى عليه السلام، ثم فَسَّر ذلك فقال: ﴿تَدۡعُونَنِى لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِى بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ أنَّه يستحق أن يُعْبَد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذُّنوب وأقبحها، ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلُّها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء، ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه، ثم إذا تابوا وأنابوا إليه كفَّر عنهم السيئاتِ والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيويَّة والأخرويَّة.

﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقًّا يقينًا، ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِىٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٌ فِى ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: لا يستحقُّ من الدعوة إليه، والحثِّ على اللجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة؛ لعجزه ونقصه، وأنَّه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا

حياةً ولا نشورًا، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى فسيجازي كلَّ عامل بعمله، ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرُّؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذَّرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبَّة عدم قبولها حين يحلُّ بكم العقاب، وتُحْرَمون جزيل الثواب، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ألجأ إليه وأعتصمُ، وأُلقي أموري كلَّها لديه، وأتوكَّل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، يعلمُ أحوالهم وما يستحقُّون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شرَّكم، ويعلم أحوالكم، فلا تتصرَّفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلَّطكم عليَّ فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾، أي: وقى الله القويُّ الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفَّق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له؛ من إرادة إهلاكه وإتلافه؛ لأنه بَادَأَهُم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامَّة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمرٌ لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتدَّ حنقُهم عليه، فأرادوا به كيدًا، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم، وفي البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فهذه العقوبات الشنيعة التي تَحُلُّ بالمكذِّبين لرسل الله المعاندين لأمره.



قصة قارون



﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٢].

يخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل وفُعِلَ به ونُصِحَ ووُعِظَ، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، أي: من بني إسرائيل، الذين فُضِّلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتنَّ الله عليهم بما امتنَّ به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا بغى على قومه وطغى بما أُوتيه من

الأموال العظيمة المُطْغِية، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، أي: كنوز الأموال شيئًا كثيرًا، ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، والعُصْبة: من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك، أي: حتى أن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها هذه المفاتيح، فما ظنُّك بالخزائن؟!

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ناصحين له محذِّرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة؛ فإن الله لا يحب الفَرِحين بها، المُكِبِّين على محبَّتها.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغِ بها ما عند الله، وتصدَّقْ، ولا تقتصر على مجرَّد نَيْل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لا نأمرك أن تتصدَّق بجميع مالك وتبقى ضائعًا، بل أَنْفِقْ لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثْلُم دينك، ولا يضرُّ بآخرتك، ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله، ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالتكبُّر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنِّعم عن المنعم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، بل يعاقِبهم على ذلك أشدَّ العقوبة.

فقال قارون رادًّا لنصيحتهم، كافرًا بنعمة ربه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، أي: إنَّما أدركت هذه الأموال بكَسْبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحِذْقي، أو على علم من الله بحالي؛ يعلم أني أهلٌ لذلك، فلِمَ تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟

قال تعالى مبيِّنًا أن عطاءه ليس دليلًا على حُسْن حالة المُعْطَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، فما المانع من إهلاك قارون مع مُضِيِّ عادتنا وسنَّتنا بإهلاك مَن هو مثله وأعظم منه إذا فعل ما يوجِب الهلاك؟

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، بل يعاقبهم الله، ويعذِّبهم على ما يعلمه منهم؛ فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة؛ فليس قولهم مقبولًا، وليس ذلك دافعًا عنهم من العذاب شيئًا؛ لأن ذنوبهم غيرُ خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يَزَل قارون مستمرًّا على عناده وبَغْيِه، وعدم قبول نصيحة قومه، فَرِحًا بَطِرًا، قد أعجبته نفسه، وغرَّه ما أوتيه من الأموال، ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾، أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعدَّ وتجمَّل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرَمَقَتْه في تلك الحالة العيون، وملأت بِزَّتُهُ[1] القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كلٌّ تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: الذين تعلَّقتْ إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادةٌ في سواها، ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وصَدَقوا إنَّه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيًا إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى؛ فإنَّه قد أُعطِي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظُّ العظيم بحسب همَّتهم، وإنَّ همَّة جعلت هذا غايةَ مرادها ومنتهى مطلبها لَمِنْ أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ متوجِّعين مما تمنَّوا لأنفسهم،

---

(١) أي: هيئته.

راثين لحالهم، منكرين لمقالهـم، ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ العاجل؛ من لذَّة العبادة ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين ﴿خَيْرٌ﴾ من هذا الذي تمنَّيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كلُّ مَن يعلم ذلـك يُؤْثِـر الأعلى على الأدنـى، فما يُلَقَّـى ذلك ويوفَّـقُ له ﴿إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسـهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمـة، وصبروا على جواذب الدنيا وشـهواتها، أن تشْـغلهم عن ربهم، وأن تحُول بينهم وبين ما خُلِقوا له؛ فهؤلاء الذين يُؤْثِرُون ثواب الله على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغـي والفخر، وازَّيَّنَتْ الدنيـا عنده، وكثر بها إعجابه؛ بَغتَهُ العذاب، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله؛ فكما رفع نفسه على عباد الله أنزله الله أسفل سـافلين، هو وما اغترَّ به من داره وأثاثه ومتاعه، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾، أي: جماعة، وعُصْبة، وخدم، وجنود، ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، أي: جاءه العذاب، فما نُصِر ولا انْتصر.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: الذين يريـدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجِّعين ومعتبِرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يُضيِّق الرزق على من يشـاء، فعلمنا حينئذٍ أن بَسْـطه لقارون ليس دليلًا على خير فيـه، وأنَّنا غالطون في قولنـا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومِنَّته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، فصار هلاك قارون عقوبةً لـه، وعبرةً وموعظةً لغيـره، حتى إنَّ الذين غبطوه، سـمعت كيف ندِموا، وتغيَّر فِكْرُهم الأول، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أي: لا في الدنيا، ولا في الآخرة.



قصة أصحاب السبت



﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۞ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۞ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦].

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾، أي: اسأل بني إسرائيل، ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾، أي: على ساحله في حال تَعَدِّيهم، وعقاب الله إياهم، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، وكان الله تعالى قد أمرهم أن يُعَظِّموه ويحترموه، ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله وامتحنهم، فكانت الحيتان تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، أي: كثيرة طافية على وجه البحر، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾، أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾، أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئًا، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، ففِسْقُهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا لعافاهم الله، ولما

عرَّضهم للبلاء والشر، فتحيَّلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حُفَرًا، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشِّباك لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فِرَق: معظمهم اعتدوا وتجرَّؤوا، وأعلنوا بذلك، وفرقةٌ أعلنت بنَهْيِهم والإنكار عليهم، وفرقةٌ اكتفتْ بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم، وقالوا لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، كأنَّهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يُصْغِ للنصيح، بل استمرَّ على اعتدائه وطغيانه؛ فإنَّه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: لنُعْذر فيهم، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما نَجَعَ فيهم الوعظ، وأثَّر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾، أي: تركوا ما ذُكِّروا به، واستمرُّوا على غيِّهم واعتدائهم، ﴿أَنجَيْنَا﴾ من العذاب ﴿ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، وهكذا سنة الله في عباده أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمِرون بالمعروف والناهون عن المنكر، ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت، ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾، أي: شديد، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين؛ لأنَّ الله خصَّ الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدلَّ على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به

البعض سقط عن الآخرين؛ فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فأَبْدَوْا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون أشدَّ الكراهة لفعلهم، وأنَّ الله سيعاقبهم أشدَّ العقوبة.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾، أي: قسوا فلم يلينوا، ولا اتَّعظوا، ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولًا قَدَريًا: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فانقلبوا بإذن الله قردةً، وأبعدهم الله من رحمته.



قصة أصحاب القرية



﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝ ۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ١٣ ـ ٢٩].

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، أي: واضرب لهؤلاء المكذِّبين برسالتك، الرادِّين لدعوتك، مثلًا يعتبرون به، ويكون لهم موعظةً إن وُفِّقوا للخير، وذلك المثل هم أصحاب القرية، وما جرى منهم من التَّكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله.

وتعيين تلك القرية لو كان فيه فائدةٌ لعيَّنها الله، فالتعرُّض لذلك وما أشبهه من باب التكلُّف والتكلُّم بلا علم، ولهذا إذا تكلَّم أحدٌ في مثل هذا تجد عنده من الخبْط والخلْط والاختلاف الذي لا يستقرُّ له قرارٌ، ما تعرِف به أنَّ طريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق، وتَرْك التعرُّض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظنُّ الجاهل أنَّ زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حُجَّة عليها، ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن، واعتياد الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أنَّ هذه القرية جعلها الله مثلًا للمخاطبين، ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من الله تعالى؛ يأمرونهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، أي: قوَّيْناهما بثالثٍ، فصاروا ثلاثة رسل؛ اعتناءً من الله بهم، وإقامةً للحجة بتوالي الرسل إليهم، ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لهم: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهورًا عند مَن ردَّ دعوة الرُّسل، فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي: فما الذي فضَّلكم علينا وخَصَّكُم من دوننا؟ قالت الرسل لأممهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾، أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضًا المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فلو كنَّا كاذبين لأظهر الله خِزْينا، ولبادَرَنا بالعقوبة، ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البلاغ المُبِين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عَدَا هذا من آيات الاقتراح، ومن سرعة العذاب؛ فليس إلينا، وإنما وظيفتنا التي هي البلاغ المُبِين قمنا بها،

وبَيَّنَّاها لكم، فإن اهتديتم فهو حظُّكم وتوفيقكم، وإن ضللتم فليس لنا من الأمر شيء.

فقال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: لم نرَ على قدومكم علينا واتِّصالكم بنا إلا الشرَّ، وهذا من أعجب العجائب؛ أن يُجعل مَن قَدِم عليهم بأجلِّ نعمةٍ يُنعم الله بها على العباد، وأَجَلِّ كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كلِّ ضرورة، قد قدم بحالة شرٍّ زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموا بها، ولكنَّ الخذلان وعدم التوفيق، يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوُّه.

ثم توعَّدوهم فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، أي: لنقْتلنَّكم رجمًا بالحجارة أشنع القتلات، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقالت لهم رسلهم: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، وهو ما معهم من الشرك والشر المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾، أي: بسبب أنَّا ذكَّرناكم ما فيه صلاحكم وحظُّكم قلتم لنا ما قلتم، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون للحد، متجرِّئون في قولكم، فلم يَزِدهم دعاؤهم إلا نفورًا واستكبارًا.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ حرصًا على نُصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما ردَّ به قومه عليهم، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، فأمرهم باتباعهم، ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييدًا لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾، أي: اتَّبعوا من نصحكم نُصحًا يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم ولا أجرًا على نُصْحِه لكم وإرشاده إياكم، فهذا موجبٌ لاتباع مَن هذا وَصْفُه.

بقي أن يُقال: فلعلَّه يدعو ولا يأخذ أجرةً، ولكنَّه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحُسْنه، ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقُبْحه.

فكأنَّ قومه لم يقبلوا نُصحه، بل عادوا لائمين له على اتباع الرسل، وإخلاص الدين لله وحده، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وما المانع لي من عبادة مَن هو المستحقُّ للعبادة؛ لأنَّه الذي فطرني، وخلقني، ورزقني، وإليه مآل جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم، فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد في الدنيا والآخرة؛ هو الذي يستحِقُّ أن يُعبَد، ويُثنَى عليه ويُمجَّد دون من لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا عطاءً ولا منعًا، ولا حياةً ولا موتًا ولا نشورًا، ولهذا قال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾؛ لأنَّه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه؛ فلا تُغني شفاعتهم عني شيئًا، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من الضُّرِّ الذي أراده الله بي، ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ أي: إن عبدتُ آلهةً هذا وصفها ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فجمع في هذا الكلام بين نُصْحِهم، والشهادة للرسل بالرسالة، والاهتداء والإخبار بِتعيُّن عبادة الله وحده، وذكر الأدلَّة عليها، وأنَّ عبادة غيره باطلةٌ، وذكر البراهين عليها، والإخبار بضلال مَن عبدها، والإعلان بإيمانه جهرًا، مع خوفه الشديد مِن قَتْلِهم، فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾، فقتله قومه لما سمِعوا منه، وراجعهم بما راجعهم به.

ـ ﴿قِيلَ﴾ له في الحال: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، فقال مخبرًا بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحًا لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾، أي: بأي شيءٍ غفر لي، فأزال عني أنواع العقوبات، ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ بأنواع المثوبات والمسرَّات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ما احتجنا أن نتكلَّف في عقوبتهم، فننزل جندًا من السماء لإتلافهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾؛ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشـدَّة ضعف بني آدم، وأنَّهم أدنى شـيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم، ﴿إِن كَانَتْ﴾، أي: ما كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: صوتًا واحدًا، تكلَّم به بعض ملائكة الله؛ ﴿فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ قد تقطَّعـت قلوبهم في أجوافهـم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركـة، ولا حياة بعد ذلك العتوِّ والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبُّرهم عليهم.



قصة سبأ



﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ٢١].

سبأ قبيلةٌ معروفةٌ في أداني اليمن، ومسكنهم بلدةٌ يُقال لها: «مأرب»، ومِن نِعَم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا؛ أنه قصَّ في القرآن أخبار المهلَكين والمعاقَبين ممنْ كان يجاوِر العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾، أي: محلِّهم الذي يسكنون فيه، ﴿ءَايَةٌ﴾، والآيةُ هنا: ما أَدَرَّ الله عليهم من النِّعَم، وصرف عنهم من النِّقَم، الذي يقتضي ذلك منهم

أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسَّر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، وكان لهم وادٍ عظيمٌ تأتيه سيولٌ كثيرةٌ، وكانوا بنوا سدًّا مُحْكَمًا، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماءٌ عظيمٌ، فيفرِّقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحْصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نِعَمِه التي أَدَرَّها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنَّتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أنَّ الله جعل بلدهم بلدةً طيبةً؛ لحسن هوائها، وقلَّة وَخَمِها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أنَّ الله تعالى وعدهم إن شكروه أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أنَّ الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة، ـ الظاهرُ أنَّها قُرى صنعاء كما قاله غيرُ واحد من السلف، وقيل: إنَّها الشامُ ـ هيَّأ لهم من الأسباب ما به يتيسَّر وصولهم إليها بغاية السُّهولة من الأمن وعدم الخوف، وتواصُل القرى بينهم وبينها؛ بحيث لا يكون عليهم مشقَّةٌ بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، أي: سيرًا مقدَّرًا يعرفونه، ويحكمون عليه، بحيث لا يَتِيهُون عنه ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أنْ أمَّنهم من الخوف.

فأعْرضوا عن المنعِم وعن عبادته، وبطروا النعمة وملُّوها، حتى إنَّهم طلبوا وتمنَّوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرًا،

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطْغتهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾، أي: السيل المتوعِّر الذي خرَّب سـدَّهم، وأتلف جناتهم، وخرَّب بساتينهم، فتبدَّلت تلك الجناتُ ذات الحدائق المعجِبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجارٌ لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾، أي: شـيئًا قليلًا من الأكل الذي لا يقع منهـم موقعًـا، ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، وهذا كله شـجرٌ معروفٌ، وهذا من جنس عملهم؛ فكما بدَّلوا الشـكر الحسن بالكفر القبيح بُدِّلُوا تلك النعمةَ بما ذُكِـر، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، أي: وهل نُجازي جزاء العقوبة ـ بدليل السـياق ـ إلا مَنْ كفر بالله وبَطِر النعمة؟!

فلمَّا أصابهم ما أصابهم تفرَّقوا وتمزَّقـوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يُتحدَّث بهم، وأسـمارًا للناس، وكان يُضْـرب بهم المثل، فيقالُ: «تفرَّقوا أيدي سـبأ»، فكلُّ أحدٍ يتحدَّث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا منْ قال الله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: صبَّارٍ على المكاره والشدائد، يتحمَّلُها لوجه الله، ولا يتسخَّطُها، بل يصبر عليها، شكورٍ لنعمة الله تعالى، يُقِرُّ بها، ويعترف، ويُثْنِي على مَن أولاها، ويصرِفُها في طاعته.

فهذا إذا سـمع بقصَّتِهم، وما جرى منهم وعليهـم؛ عرف بذلك أنَّ تلك العقوبة جزاءٌ لكفرهم نعمةَ الله، وأنَّ مَن فعل مثلهم فُعِلَ به كما فُعِلَ بهم، وأنَّ شُكْر الله تعالى حافظٌ للنعمة، دافعٌ للنقمة، وأنَّ رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأنَّ الجزاء حقٌّ كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

ثم ذكر أنَّ قوم سـبأ من الذين صدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه؛ حيث قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وهذا ظنٌّ من إبليس

لا يقينٌ؛ لأنَّه لا يعلم الغيب، ولم يأتِهِ خبرٌ من الله أنَّه سيُغْويهم أجمعين؛ إلا من استثنى، فهؤلاء وأمثالهم ممنْ صدَّق عليه إبليسُ ظنَّه، ودعاهم وأغواهم، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ممنْ لم يكفرْ بنعمة الله؛ فإنَّه لم يدخُلْ تحت ظنِّ إبليس، ويُحتمَل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على جنس الناس، فتكون الآيةُ عامةً في كلِّ من اتَّبعه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾، أي: لإبليس، ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: تسلُّطٍ وقهرٍ، وقسرٍ على ما يريده منهم، ولكنَّ حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم؛ ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾، أي: ليقوم سوقُ الامتحان، ويُعلَم به الصادقُ من الكاذب، ويُعرَف مَن كان إيمانه صحيحًا يثبتُ عند الامتحان والاختبار، وإلقاء الشُّبه الشيطانيَّة، ممنْ إيمانه غيرُ ثابتٍ، يتزلزل بأدنى شبهةٍ، ويزول بأقلِّ داعٍ يدعوه إلى ضدِّه، فالله تعالى جعله امتحانًا، يمتحن به عباده، ويُظْهِر الخبيث من الطيب، ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ يحفظُ العباد، ويحفظُ عليهم أعمالهم، ويحفظُ تعالى جزاءها؛ فيوفِّيهم إيَّاها كاملة موفرةً.



قصة أصحاب الأخدود



﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ٤ ـ ١١].

قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾، وهـذا دعاءٌ عليهـم بالهلاك، و﴿الْأُخْدُودِ﴾: الحُفَر التي تُحْفَر في الأرض.

وكان أصحـاب الأخدود هـؤلاء قومًا كافريـن، ولديهم قـومٌ مؤمنون، فراودوهم للدخول في دينهـم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشـقَّ الكافرون أخدودًا فـي الأرض، وقذفوا فيها النـار، وقعدوا حولها، وفتنـوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمرَّ على الإيمان قذفوه في النار، وهذا فـي غاية المحاربـة لله ولحزبه المؤمنين، ولهـذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعَّدهم، فقـال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾، ثم فسَّـر الأخدود بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، وهـذا مـن أعظم ما يكون من التجبُّر وقساوة القلب؛ لأنَّهم جمعوا بين الكفر بآيات الله

ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب الذي تنْفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة يُمدَحُون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، أي: الذي له العزَّة، التي قهر بها كلَّ شيء، وهو حميدٌ في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصرَّف فيهم تصرُّف المالك بملكه، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا؛ أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أوَما علموا أنهم جميعهم مماليك لله، ليس لأحدٍ على أحدٍ سلطةٌ من دون إذن المالك؟ أوَخفِي عليهم أنَّ الله محيطٌ بأعمالهم، مُجازٍ لهم على فعالهم؟ كلَّا إنَّ الكافر في غرورٍ، والظالم في جهل وعمى عن سواء السبيل.

ثم وعدهم، وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: العذاب الشديد المحرِق، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: انظُروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وأهل طاعته وهو يدعوهم إلى التوبة.

ولما ذكر عقوبة الظالمين ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز برضا الله ودار كرامته.

قصة صاحب الجنتين



﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٤].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مَثَلَ هذَين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب؛ ليعتبروا بحالهما، ويتَّعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة؛ فالنتيجة تحصُل من قصتهما فقط، والتعرُّض لما سوى ذلك من التكلُّف.

فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة جعل الله له جنتين، أي: بستانَين حَسَنَيْن، ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾، أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصًا أشرف الأشجار العنب والنخل؛ فالعنب في وسطها، والنخل قد حفَّ بذلك، ودار به، فحصل فيه من حُسْن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمُلُ بها الثمار، وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعًا، فلم يَبْقَ عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماءٌ يكفيهما؟

فأخبر تعالى أن كلًّا من ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفًا، وأنها لم ﴿تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي: لم تنقص من أُكُلِها أدنى شيء، ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾، أي: لذلك الرجل ﴿ثَمَرٌ﴾، أي: عظيم، كما يفيده التنكير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحنَّت[1] أشجارهما، ولم تعرِض لهما آفةٌ أو نقصٌ، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغترَّ هذا الرجل، وتبجَّح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤ ـ ٣٦].

أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات المعتادة، مفتخرًا عليه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فَخَرَ بكثرة ماله، وعزَّة أنصاره؛ من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأيُّ افتخار بأمر خارجيٍّ ليس فيه فضيلةٌ نفسيَّة، ولا صفةٌ معنويَّة، وإنما هو بمنزله فخر الصبيِّ بالأماني التي لا حقائق تحتها؟!

ثم لم يَكْفِهِ هذا الافتخار على صاحبه حتى حكم بجهله وظلمه، وظنَّ لما دخل جنته فقال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾، أي: تنقطع وتضمحلَّ ﴿هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾، على ضرب المثل، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، أي: ليعطيني خيرًا من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين؛ إمَّا أن يكون عالِمًا بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكُّم والاستهزاء، فيكون

---

(١) أي: ثقلت.

زيادة كفرٍ إلى كفره، وإمَّا أن يكون هذا ظنَّه فـي الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظًّا من العقل، فأيُّ تلازُم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظنَّ بجهله أن من أُعطِي في الدنيا أُعطِي في الآخرة، بل الغالب أنَّ الله تعالى يَزْوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسِّعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيـبٌ، والظاهر أنَّه يعلم حقيقة الحـال، ولكنَّه قال هذا الكلام على وجه التهكُّم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، فإثبات أن وَصْفَه الظلم في حال دخوله الذي جـرى منه من القول ما جرى يدلُّ على تمرُّده وعناده.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٧ ـ ٣٩].

أي: قال لـه صاحبه المؤمن ناصحًا لـه، ومذكِّرًا له حالـه الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؛ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصَل عليك النعـم، ونقلك من طَوْر إلى طَوْر، حتى سـوَّاك رجلًا، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسَّر لك الأسـباب، وهيَّأ لك ما هيَّأ من نعم الدنيا، فلم تحصُل لك الدنيا بحولك وقوَّتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يَلِيق بك أن تكفُر بالله الذي خلقك من ترابٍ، ثم من نطفةٍ، ثم سـوَّاك رجلًا، وتجحد نعمته، وتزعم أنَّه لا يبعثـك، وإن بعثك أنَّـه يعطيك خيرًا من جنتـك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

ولهذا لما رأى صاحبُه المؤمن حالَه واسْـتمراره على كفره وطغيانه قال مُخْبِرًا عن نفسـه، علـى وجه الشـكر لربه، والإعـلان بدينـه، عند ورود المجادلات والشُّـبه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، فأقرَّ بالربوبية

لربه، وانفراده فيها، والتزم طاعته وعبادته، وأنَّه لا يشرك به أحدًا من المخلوقين، ثم أخبره أنَّ نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلَّة ماله وولده؛ أنَّها هي النعمة الحقيقية، وأنَّ ما عداها معرَّضٌ للزوال والعقوبة عليه والنَّكال، فقال:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۞ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۞ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۞ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۞ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٌ ثَوَابًا وَخَيۡرٌ عُقۡبًا﴾ [الكهف: ٣٩ ـ ٤٤].

أي: قال للكافر صاحبُه المؤمن: أنت وإن فخرتَ عليَّ بكثرة مالك وولدك، ورأيتني ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾؛ فإنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وما يُرجَى من خيره وإحسانه أفضلُ من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾، أي: على جنَّتك التي طغيت بها وغرَّتْك، ﴿حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: عذابًا بمطر عظيم أو غيره، ﴿فَتُصۡبِحَ﴾ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعُها، وزال نفعُها.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا﴾ الذي مادتُها منه ﴿غَوۡرًا﴾، أي: غائرًا في الأرض ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾، أي: غائرًا لا يُستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنَّما دعا على جَنَّتِه المؤمن، غضبًا لربه؛ لكونها غرَّته وأطغتْه، واطمأنَّ إليها؛ لعلَّه يُنيب، ويراجع رُشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، أي: أصابه عذابٌ أحاط به، واستهلكه فلم يَبْقَ منه شيءٌ، والإحاطة بالثمر يستلزمُ تَلَفَ جميع أشجاره،

وثماره، وزرعه، فندم كلَّ الندامة، واشتدَّ لذلك أسفه، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، أي: علــى كثــرة نفقاته الدنيويــة عليها، حيــث اضمحلَّت وتلاشــت، فلم يَبْقَ لها عوضٌ، ونَدِمَ أيضًا على شــرِكْه وشَرِّه، ولهذا قال: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

قال الله تعالــى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾، أي: لما نزل العذاب بجنَّته ذهب عنه ما كان يفتخــر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئًا أشدَّ ما كان إليهم حاجةً، وما كان بنفسٍ منتصرًا، وكيف ينتصــر أو يكون له أنصارٌ على قضاء الله وقَدَرِه الذي إذا أمضاه وقدَّره لو اجتمع أهلُ السماء والأرض على إزالة شيءٍ منه لم يقدروا؟!

ولا يُســتَبْعَد من رحمة الله ولطفه أنَّ صاحب هــذه الجنة التي أحيط بها تحسَّــنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرُّدُه وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأنَّ الله أذهب عنه ما يُطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا عجَّل له العقوبة في الدنيا، وفضلُ الله لا تحيطُ به الأوهام والعقول، ولا ينكِرُه إلا ظالمٌ جهولٌ.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: فــي تلــك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على مَن طغــى وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحًا، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تَبيَّن وتوضَّح أن الولاية لله الحق وحده، فمن كان مؤمنًا به تقيًّا كان له وليًّا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والـمَثُلات[1]، ـ ومن لم يؤمن بربه ويتولَّاه خسِر دينه ودنياه ـ فثوابه الدنيوي والأخروي خيرُ ثواب يرُجى ويؤمَّل.



---

(١) أي: العقوبات.

فوائد من هذه القصة

ففي هذه القصة العظيمة: اعتبارٌ بحال الذي أنعم الله عليه نِعَمًا دنيوية، فألهتْه عن آخرته وأطغتْه، وعصى الله فيها، فإنَّ مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنَّه وإنْ تمتَّع بها قليلًا فإنَّه يُحْرَمها طويلًا، وأنَّ العبد ينبغي له إذا أعجبه شيءٌ من ماله أو ولده أن يضيفَ النعمة إلى موليها ومُسْدِيها، وأن يقولَ: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ليكون شاكرًا لله متسبِّبًا لبقاء نعمته عليه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

وفيها: الإرشاد إلى التسلِّي عن لذَّات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير؛ لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

وفيها: أنَّ المال والولد لا ينفعانِ إن لم يُعِينَا على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

وفيه: الدُّعاء بِتلفِ مالِ مَنْ كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إنْ فضَّل نفسه بسببه على المؤمنين وفخر عليهم.

وفيها: أنَّ ولاية الله وعدمها إنما تتَّضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحقَّ الجزاء، ووجد العاملون أجرهم، فهنالك ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، أي: عاقبةً ومآلًا.



قصة أصحاب الفيل



﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].

أي: أما رأيتَ من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلَّة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيتَه الحرام، وأرادوا إخرابه؛ فتجهَّزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفِيَلة لهدمه، وجاؤوا بجمعٍ لا قِبَل للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قربِ مكَّة، ولم يكن بالعرب مدافعةٌ، وخرج أهل مكَّة من مكَّة خوفًا على أنفسهم منهم؛ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، أي: متفرِّقة، تحمل حجارة محمَّاة من سِجِّيلٍ[1]، فرمتْهم بها، وتتبَّعتْ قاصِيَهم ودانِيَهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعَصْفٍ[2] مأكولٍ، وكفى الله شرَّهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، وقصَّتُهم معروفةٌ مشهورةٌ[3]، وكانت تلك السنة التي وُلِدَ فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته، ومقدمات رسالته، ولله الحمد والشكر.

---

(١) أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة.

(٢) العصف: ورقَ الزَّرع.

(٣) هذه قصة أصحاب الفيل بإيجاز: أرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء... سمَّتْهَا العرب القُلَّيْس؛ =

= لارتفاعها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا، حتى قصدها بعضهم فأَحْدَثَ فيها وكَرَّ راجعًا، فأقسم أبرهة ليَسِيرَنَّ إلى بيت مكة، وليخرِّبَنَّه حجرًا حجرًا، فتأهَّب أبرهة لذلك، وصار في جيش عَرَمْرَم، واستصحب معه فيلًا عظيمًا يقال له: محمود، فلما انتهى أبرهة إلى قريب من مكة أغار جيشه على سَرْحِ أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة إلى مكة مَن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدُّوه عن البيت، فذهب إليه عبد المطلب، فلما رآه أبرهة أَجَلَّهُ، وكان عبد المطلب رجلًا جميلًا، ونزل أبرهة عن سريره، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلَّمْتَنِي، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رَبُّ الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال: أنت وذاك. فلما أصبح أبرهة تهيَّأ لدخول مكة، وهيَّأ فيله وعَبَّأَ جيشه، فلما وجَّهوا الفيل نحو مكة أقبل نُفَيْل بن حبيب حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بأذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبَرَكَ الفيل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه فأبى، فوجَّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، والعرب على رأس الجبل ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة. تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٣ ـ ٤٨٥) باختصار وتصرُّف يسير.

قصة مسجد الضرار



﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ۞ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠].

كان أناس من المنافقين من أهل قُباء اتَّخذوا مسجدًا إلى جنب مسجد قُباء، يريدون به المضارَّة والمشاقَّة بين المؤمنين، ويُعِدُّونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله يكون لهم حصنًا عند الاحتياج إليه، فبيَّن تعالى خِزْيَهم، وأظهر سِرَّهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، أي: مضارَّة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه، ﴿وَكُفْرًا﴾، أي: مقصدهم فيه الكفر إذا قصد غيرهم الإيمان، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليتشعَّبوا ويتفرَّقوا ويختلفوا، ﴿وَإِرْصَادًا﴾، أي: إعدادًا ﴿لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدَّم حرابهم واشتدَّت عداوتهم، وذلك

كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قَدِم النبيُّ ﷺ وهاجَر إلى المدينة كفر به، وكان متعبِّدًا في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ، فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعدٍ وممالأة هو والمنافقون، فكان مما أعدُّوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهُدِم وحُرِّق، وصار بعد ذلك مزبلةً.

قال تعالى بعدما بَيَّن من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ في بنائنا إيَّاه ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فشهادة الله عليهم أصدق من حَلِفِهم، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، أي: لا تُصلِّ في ذلك المسجد الذي بُنِي ضرارًا أبدًا؛ فالله يُغْنِيك عنه، ولست بمضطرٍّ إليه. ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في قُباء، وهو مسجد قُباء أُسِّس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذِكْره وشعائر دينه، وكان قديمًا في هذا عريقًا فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وتتعبَّد، وتذكر الله تعالى، فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ من الذُّنوب، ويتطهَّروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث، ومن المعلوم أنَّ مَن أحبَّ شيئًا لا بدَّ أن يسعى له ويجتهد فيما يحبُّ، فلا بدَّ أنهم كانوا حريصين على التطهُّر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرَّزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يُتْبِعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم[١].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٥)، والحاكم (٥٥٦).

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ الطهارةَ المعنوية؛ كالتنزُّه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسيَّة؛ كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضَل بين المســاجد بحســب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه، فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: على نيَّة صالحة وإخلاص، ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ بأن كان موافقًا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾، أي: على طرف ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾، أي: بالٍ قد تداعى للانهدام، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: شــكًّا وريبًــا ماكثًــا في قلوبهم، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يندموا غاية النــدم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانُهم لا يزيدهم إلا ريبًا إلى ريبهم، ونفاقًا إلى نفاقهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء؛ ظاهرها وباطنها، خفيِّها وجليِّها، وبما أســرَّه العباد وأعلنوه، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يخلُقُ، ولا يأمر ولا ينهى؛ إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به، فللَّه الحمد.



في هذه الآيات فوائد عدة

منها: أنَّ اتِّخاذ المسجد الذي يُقصد به الضِّرار لمسجدٍ آخر بقربه أنه محرَّم، وأنه يجب هدمُ مسجد الضرار الذي اطُّلِع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل، وإن كان فاضلًا، تُغيِّره النية، فينقلب منهيًّا عنه، كما قلبتْ نية أصحاب مسجد الضرار عملَهم إلى ما ترى.

ومنها: أنَّ كل حالة يحصُلُ بها التفريق بين المؤمنين فإنَّها من المعاصي التي يتعيَّن تركُها وإزالتها؛ كما أنَّ كل حالة يحصل بها جمعُ المؤمنين وائتلافهم يتعيَّن اتِّباعها والأمر بها، والحثُّ عليها؛ لأنَّ الله عَلَّل اتِّخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجِب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبُعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثَّرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونُهِي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثِّر في الأماكن كما أثَّرت في مسجد قُباء، حتى قال الله فيه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قُباء كلَّ سبتٍ يصلي فيه، وحثَّ على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يُستفادُ من هذه التعاليل المذكورة في الآية أربع قواعد مهمَّة، وهي: كل عمل فيه مضارَّة لمسلم، أو فيه معصيةٌ لله ـ فإن المعاصي من فروع الكفر ـ أو فيه تفريقٌ بين المؤمنين، أو فيه معاونةٌ لمن عادى الله ورسوله؛ فإنه محرَّم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشــئة عن معصية الله لا تزال مُبْعِدة لفاعلها عن الله، بمنزلة الإصــرار على المعصية حتى يزيلها ويتــوب منها توبةً تامَّةً؛ بحيث يتقطع قلبُه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مســجدُ قُباء مســجدًا أُسِّــس على التقوى، فمســجد النبيِّ ﷺ الذي أَسَّسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمــل المبنيَّ على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسَّــس على التَّقوى، الموصِل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمــل المبني على ســوء القصد وعلــى البدع والضَّــلال هو العمل المؤسَّس على شــفا جُرُفٍ هارٍ، فانهار به في نار جهنَّم، والله لا يهدي القوم الظالمين.



قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا



﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وكذلك لقد تاب الله على ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: كعب بن مالك وصاحباه، وقصَّتُهم مشهورةٌ معروفة، في الصحاح والسنن(١).

---

(١) قال كعب بن مالك ﵁: كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلَّفت عنه في تلك الغزاة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أهبة غزوهم، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، فما رجل يريد أن يتغيَّب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهَّز معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئًا، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئًا، فقلت أتجهَّز بعده بيوم أو يومَين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهَّز، فرجعت ولم أقضِ شيئًا، فلم يَزَل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدَّر لي ذلك، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال: «ما فعل كعب؟»، فقال رجل: حبسه بُرْدَاه، ونظرُه في عِطْفِه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ، فلما بلغني أنه توجَّه قافلا حضرني همي، وأقول: =

= بماذا أخرج من ســخطه غدًا؟ فلما قيل: إن رســول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشــيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رســول الله ﷺ قادمًا، وجاءه المخلَّفــون، فطفقوا يعتذرون إليــه ويحلفون له، فقَبِل منهم رســول الله ﷺ علانِيَتَهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل ســرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسُّم الـمُغضَب، فقال لي: «ما خلَّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»، فقلت: بلى، إني والله لو جلســت عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن ســأخرج من ســخطه بعذر، ولقد أُعْطِيتُ جدلًا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يســخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إنــي لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلَّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»، فقمت، وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، قد كان كافيك ذنبَك استغفار رسول الله ﷺ لك، فو الله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذِّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالــوا: نعم، رجلان، قالَا مثل ما قلت؛ مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلَين صالحَين، قد شهدَا بدرًا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، فاجتنبَنا الناس، وتغيَّروا لنا حتى تنكَّرت في نفســي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدَا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأســواق ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتَيه برد السلام عليَّ أم لا؟ حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ، فســلمت عليه، فو الله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أُحِب الله ورسوله؟ فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تســوَّرت الجدار، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطَلِّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقرَبْها، وأرسل إلى صاحِبَيَّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية رســولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شــيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك». قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حزنوا حزنًا عظيمًا، و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها ورحبها، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ التي هي أحبُّ إليهم من كلِّ شيءٍ، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تَجْرِ العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشـدَّة والمشقَّة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدَّموا رضا الله ورضا رسـوله على كلِّ شيءٍ.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ أي: تيقَّنـوا وعرفـوا بحالهـم أنـه لا يُنْجِّي من الشـدائد ويُلْجأ إليه إلا الله وحده لا شـريك له، فانقطع تعلُّقهم بالمخلوقين، وتعلَّقوا بالله ربهـم، وفرُّوا منه إليه، فمكثوا بهذه الشـدة نحو خمسين ليلةً.

= كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أسـتأذن فيها رسـول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسـون ليلة من حين نهى رسـول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صُبْحَ خمسـين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس سـمعت صوت صارخ: يا كعب بن مالك، أَبْشِـر، قال: فخررت سـاجدًا، وعرفت أن قد جـاء فرج، وآذَن رسـول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشـرني نزعت له ثوبَيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا، يهنوني بالتوبة، حتى دخلت المسجد فإذا رسـول الله ﷺ جالس حوله الناس، فلما سلَّمت على رسول الله ﷺ، قال رسـول الله ﷺ، وهو يبرق وجهه من السرور: «أَبْشِرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك»، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك»، قلت: فإني أمسك سـهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتـي أن لا أُحَدِّث إلا صدقًـا ما بقيت، وأنزل الله على رسـوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبـة: ١١٧] إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. صحيح البخاري (٦/ ٣ ـ ٧) رقم (٤٤١٨) باختصار.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: أذن في توبتهم ووفَّقهـم لها، ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهـم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾، أي: كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلَّات والنُّقصان، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: وصْفُـهُ الرحمة العظيمة التي لا تزال تنْزِلُ على العباد في كلِّ وقت وحين في جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينيَّة والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليلٌ علـى أن توبة الله على العبد أجلُّ الغايات، وأعلى النهايات، فـإنَّ الله جعلها نهاية خواصِّ عباده، وامتـنَّ عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبُّها ويرضاها.

ومنها: لُطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أنَّ العبادة الشاقَّة على النفس لها فضلٌ ومزيَّة ليست لغيرها، وكلَّما عظُمت المشقة عظم الأجر.

ومنهـا: أن توبة الله على عبده بحسـب ندمِهِ وأسـفِهِ الشـديد، وأنَّ من لا يبالي بالذنب ولا يُحْرج إذا فعله؛ فإنَّ توبته مدخولةٌ، وإنْ زعم أنَّها مقبولةٌ.

ومنها: أنَّ علامة الخير وزوال الشدَّة إذا تعلَّق القلب بالله تعالى تعلُّقًا تامًّا، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أنَّ مِن لُطف الله بالثلاثة أنْ وَسَـمَهم بِوَسْـمٍ ليس بعارٍ عليهم، فقال: ﴿خُلِّفُواْ﴾؛ إشارةً إلى أن المؤمنين خلَّفوهم، أو خُلِّفوا عن منْ بُتَّ في قبول عذرهم، أو في ردِّه، وأنهم لم يكـن تخلُّفهم رغبةً عن الخير، ولهذا لم يقلْ: «تخلَّفوا».

ومنها: أن الله تعالى منَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم.



المراجع

مراجع التخريج

١ ـ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (المتوفى: ٢٥٦هـ).

٢ ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ).

٣ ـ سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ).

٤ ـ سنن ابن ماجه، ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ).

٥ ـ سنن النسائي، أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ).

٦ ـ المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ).

٧ ـ صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ).

٨ ـ دلائـل النبـوة للبيهقـي، أحمد بن الحسـين بن علي بن موسـى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ).

٩ ـ تفسـير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).

مراجع الغريب والفرق والبلدان

١٠ ـ النهاية فـي غريب الحديـث والأثر، مجـد الدين أبو السـعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ).

١١ ـ الفائق في غريب الحديث، أبو القاسـم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ).

١٢ ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ).

١٣ ـ القامـوس المحيـط، مجـد الدين أبـو طاهر محمد بـن يعقوب الفيروزابادي (المتوفى: ٨١٧هـ).

١٤ ـ تـاج العـروس، محمد بن محمد بـن عبد الرزاق الحسـيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ).

١٥ ـ التبيان في تفسير غريب القرآن، أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم (المتوفى: ٨١٥هـ).

١٦ ـ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ).

١٧ ـ معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ).

١٨ ـ غريب القــرآن، أبو محمد عبد الله بن مســلم بن قتيبــة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ).

١٩ ـ المِلَل والنِّحَل، أبو الفتــح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ).

٢٠ ـ معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ).



الفهرس



